ومع غيرهم وقد ذكر عن بعضهم أنه جاءه بعض إخوانه يطلب منه سلفا فلما أخرج له ذلك السلف خرج وهو باك فقال أخوه ما أبكاك قال له تفريطى فى حقك حيث جئت تطلب منى السلف وأستغفر الله مما جرى منه هكذا فكن وإلا فالأصل معلول

(٢٤١) ﴿حديث ثواب من زرع زرعا﴾

عَنْ أَنَسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ

ظاهر الحديث يدل على أن كل غرس من المسلمين غرسا فكل من أكل منه شيئا من جميع بنى آدم أو من جميع الدواب له فيه أجر صدقة والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل المراد بالغرس كلما نبت ويؤكل منه كان له أصل ثابت مثل التمر والرمان وما أشبههما أو ما ليس له أصل ثابت مثل القمح والشعير والبطيخ والقثاء وما أشبهها والمراد الذى ليس له أصل ثابت لا غير وهل يكون الغرس على أى وجه كان أو يكون على وجه مخصوص وهل يحتاج إلى نية فى غرسه ام لا وهل يكون الأكل على أى وجه كان بحقه مثل الشراء منه وغير ذلك أو بوجه مخصوص وكذلك الدواب بأى وجه أكلته وهل جميع الدواب فى ذلك سواء ما يتملك منها وما لم يتملك وهل يلحق الطير بالدواب أم لا وهل يشترط فى الغرس دوام ملك الغارس عليه حين الأكل منه أم لا وهل يعلم قدر تلك الصدقة أو ليس لنا طريق يعرف به وما الحكمة فى الاخبار بذلك وما يترتب عليه من الفقه ﴿أما قولنا﴾ هل المراد بالغرس ماله أصل ثابت وما ليس له أصل أو ماله أصل ثابت ليس إلا إن نظرنا بحسب إصطلاح الناس فى الغراسة فلا يطلقونها إلا على كل ماله أصل ثابت وأما ما ليس له أصل ثابت فانهم يطلقون عليه زراعة وإن نظرنا إلى اللغة فكل ما يبذر فى الأرض وينبت ينطلق عليه إسم غراسة مثل ما جاء فى وصف الجنة «غرسها الرحمن بيده» أى بيد قدرته وهو أن قال لها كونى فكانت بغير واسطة بيد مخلوق من خلقه وقد جاء أن فيها من الفواكه والنعم ما له أصل ثابت وما ليس له أصل ثابت مثل الزعفران الذى هو حشيشها وليس له أصل ثابت وأطلق على الكل غراسة وهذا إذا نظرت من جهة الخير المتعدى النفع فالحبوب التى يكنون عنها بالزراعة أعم فانها غالب الأقوات وقد كان سهل من فقهاء غرناطة بالأندلس وكان من خير علماء وقته يقول لأصحابه إن الأعمال قد قلت والكسل توالى فأكثروا الزرع لأن تكثر حسناتكم وكانت غرناطة الغالب عليها كثرة زرع الحبوب ويسرد عليهم الحديث الذى نحن بسبيله وهذا الذى هو غالب ما تصل إليه جميع الدواب أعنى الحبوب المزروعة وهذا أيضا من طريق كرم المولى سبحانه أولى لأن الكريم إذا تكرم لا يحصر بل يوسع ويفسح ﴿وأما قولنا﴾ هل يكون الغرس على

أى وجه كان أو على وجه مخصوص ﴿ فالجواب ﴾ إن العمل إذا كان مخالفا للشرع فهو غير مجزىء والله اعلم وقد تقدم الكلام على هذا النوع فى غير ما موضع من الكتاب وقد قال صلى الله عليه وسلم «ليس لعرق ظالم حق» فمن ليس له حق كيف يكون فيه ما جورا وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يقبل عمل امرء حتى يتقنه قيل وما إتقانه قال يخلصه من الرياء والبدعة» فكل شيء خالف لسان العلم فلا يكون عامله فيه مأجورا فاذا خالف هذا الغارس فى غرسه لسان العلم اليس يكون فى فعله آثما ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يحتاج فى غرسه ذلك إلى نية أم لا ظاهر الحديث لا يعطى ذلك بل هو من طريق الفضل لكن من وقف فى ذلك الى حسن النية كانت له زيادة فى أجره لقوله صلى الله عليه وسلم «خير الاعمال ما تقدمته النية كما أن النية السوء إذا تقدمته أفسدته مثل أن ينوى بذلك الغرس ضرر الغير او فخرا أو مباهاة أو ما يشبه هذه النيات المبطلة للاعمال على حسب ما تقرر بذلك بلسان العلم ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يكون ذلك الأكل منه على أى وجه كان بحق أو بغير حق فقد تقرر من الشرع أن كل ما أخذ من مال أحد بأى وجه أخذ بأكل أو غيره بغير حق فان صاحبه فى ذلك مأجور فيكون الاخبار هنا لو كان على هذا المعنى تأكيدا لا غير والمعروف من طريق الأحاديث أنه لا يأتى منها حديث إلا لزيادة فائدة بل لفوائد جمة مثل ما قال عليه السلام «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهى له صدقة» وقد تقرر بالشرع إن كل ما فعله الآدمى مما هو عليه واجب أنه فيه مأجور فلما كانت النية بالاحتساب فى ذلك الواجب يزيده بذلك خيرا أخبر به عليه السلام ولما كان الزرع والغرس مما هو مباح لنا على لسان العلم وكان فيه خير متعد للحيوان العاقل وغيره تفضل المولى جل جلاله علينا بأن جعل لنا بذلك الخير المتعدى وإن كنا لم نقصد أن جعل فيه أجرا كان ذلك الأكل بحق أو بغير حق ولتلك الفائدة أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بذلك فى هذا الحديث وجعله خاصا بالمؤمنين ﴿ وأما قولنا ﴾ هل الدواب فى ذلك الأكل سواء كانت مما يتملك أو لا يتملك لفظ الحديث يعطى العموم والعلة المتقدم ذكرها وهى الخير المتعدى تقويه ﴿ واما قولنا ﴾ هل الطير تلحق بالدواب أو لا فان نظرنا الى العلة المذكورة فلا فرق بين الطير وغيره بل الطير يكون فى ذلك آكد لأن منه جل معاشه وإن نظرنا إلى لفظ الحديث فليس ينطلق على الطير إلا إن جعلناه من باب التنبيه بالأكثر على الأقل لأن الدواب اكثر من الطير وإن قلنا إن الطير وإن كان يطير فهو ايضا مما يدب على الأرض فلا يخرج من عموم الحديث لأن كل ما يطير يدب ولا ينعكس وهو الأظهر والله أعلم أن يكون عاما فى الطير وغيره للوجوه المذكورة وهل يشترط دوام الملك على ذلك الغرس عند الأكل ام لا احتمل والأظهر إن دوام الملك وعدم دوامه فى ذلك سواء له نظائر فى الشرع عديدة منها قوله عليه السلام «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك»

لأنهما يعطيان مالا يملكان ويكون لهما الأجر مثل صاحب الأصل لأنهما كانا سببا فى الخير الذى هو الانفاق فكيف من هو سبب فى أصل الخير وظهوره وهى الغراسة من باب أولى ومنها قوله صلى الله عليه وسلم «الدال على الخير كفاعله» فاذا كان الذى يدل على الخير مثل فاعله وهو لم يفعل شيئا فكيف من كان فيه أصلا ولهذه الفائدة وما تقدم ذكره وما بعد أخبر بذلك الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم ويأتى فيه البحث الأول وعموم لفظ الحديث يعطى ذلك ولا يخصص لفظه عليه السلام بغير معارض لان هذا ممنوع وقد جاءت زيادة إلى يوم القيامة والله بغيبه أعلم ﴿وأما قولنا﴾ هل لنا طريق إلى معرفة مقدار الأجر فلفظ الصدقة يكفى فى ذلك لان الصدقة يكون الأجر فيها بقدر كبرها وصغرها وهذا مثلها فقد يكون الأكل منه كثيرا وقليلا بل بقى هنا من جهة قوة الطمع فى فضل الله تعالى وعموم الحديث ﴿بحث﴾ وهو هل يكون ما يأكل هو وأهله داخلا فى عموم لفظ إنسان أولا لأنه وإياهم ناس فيرجى ذلك من فضل الله تعالى لعموم اللفظ ومما يؤيد ما تقدم من البحث ماخرجه مسلم «لا يغرس رجل مسلم غرسا ولا زرعا فيأكل منه إنسان أو طير أو شىء إلا كان له فيه أجر» وفى حديث ثان إلى يوم القيامة أو كما قال عليه السلام ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى أنه أخبرنا بهذا وما يترتب عليه من الفقه ففيه وجوه منها المعرفة بعظم مزية قدر المؤمن على غيره لكونه يؤجر على أشياء لا يؤجر عليها غيره وهو لم يقصد بذلك قربة ومنها الترغيب فى المشى فى التصرف على لسان العلم لأنه لا يكون هذا الخير وما أشبهه إلا لمن كان تصرفه على لسان العلم لأنه لا يكون هذا الخير كما تقدم البحث فيه ومنها الحض على التزام طريق المفاحين ليكون له الخير فى هذا وأمثاله ومنها الارشاد إلى ترك النيات المفسدة لهذا الخير والترغيب فى النيات المنمية له لأنه إذ علم أنه يثاب عليه ينميه بحسن النية فيه كما هى عادة أهل التوفيق والاتباع لسلف الخير ﴿ويترتب عليه من الفقه﴾ أن عمل الأسباب التى اقتضتها الحكمة الربانية فى عمارة هذه الدار إذا كانت على وجهها لا تنافى العبادة وفيها أجر وقربة إلى الله تعالى ومنها أنها لا تنافى طريق الزهد وتلخص من هذا أن الزهد والرغبة أمر قلبى وقد جاء ما يبين هذا أيضا عنه صلى الله عليه وسلم حيث قال «ليس الزهد بتحريم الحلال وإنما الزهد بأن تقطع الاياس مما فى أيدى الناس وأن تكون بما فى يد الله أوثق مما فى يدك» أو كما قال عليه السلام ﴿وفيه من الفقه﴾ الحض على العلم بالسنة ليعلم المرء ماله من الخير فيرغب فيه فان مثل هذا وما أشبهه لا يعرف إلا من طريق السنة ليس له طريق غير ذلك لا عقل ولا قياس وليعلم المرء أيضا أن ماله من الخير يصل إليه وإن لم يعلم به وكذلك ضده فيحفظ نفسه من الشر وقد جاء هذا أيضا منه صلى الله عليه وسلم حيث قال «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها أهله لا يبالى بها يهوى بها فى النار سبعين خريفا وإنه ليتكلم بالكلمة من الخير لا يبالى بها يرفع له بها سبعون درجة فى الجنة» أو كما قال عليه السلام وفى هذا

الحديث وأمثاله مايقوى قول أهل السلوك والخدمة لأنهم يقولون لم يبق لأهل الفلاح فى تصرفهم مباح إنما هو واجب أو مندوب لأنه قد جاء هذا الأجر فى الزراعة وهى من المباحات عند أهل العلم وقد جاء «أن المؤمن يؤجر حتى فى بضعه لأمرأته قيل يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون فيها مأجورا فقال عليه السلام أرايت لو وضعها فى الحرام أليس يكون مأثوما قالوا بلى قال كذلك إذا وضعها فى الحلال كان مأجورا» أوكما قال عليه السلام وجاء أن نومه إذا قصد به العون على الطاعة كان فيه مأجورا وهو ماجاء عن معاذ حين سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى قصته المشهورة فقال صاحبه أقرأ القرآن قائما وقاعدا وأفوقه تفويقا ولا أنام وقال معاذ أقوم وأنام وأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى فشهد النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بالفقه وجاء فى شربة الماء إذا قصد به العون على الطاعة وسمى أولا ثم قطع وحمد يفعل ذلك ثلاثا أن الماء يسبح فى جوفه فهذه مع ماتقدم ذكره فى الحديث من الاستشهادات فى أن جميع تصرفات المؤمن وشهواته تراه فيها مأجورا فكيف ماهى قربة بوضعها إما واجبات وإما مندوبات فظهرت الأدلة الشرعية بتقوية مقالهم وطريقتهم المباركة جعلنا الله ممن ألحق بهم بمنه وفضله

(٢٤٢) ﴿ حديث رحمة الله لمن يرحم عباده ﴾

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ

ظاهر الحديث أن رحمة الله لا ينالها إلا من تكون فيه رحمة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ قوله ﴿ لا يرحم ﴾ معناه هل المراد لا يرحم أبدا أو أنه ليس من طريق الحكم بالعدل سبب يوجب له بالوعد الحق رحمة احتمل الوجهين معا بحسب التأويل فى قوله عليه السلام ﴿ من لا يرحم ﴾ على من لا يذكر بعد دخول المراد بقوله ﴿ من لا يرحم لا يرحم ﴾ غيره إما باحسان أو بما يكون فى مثله من تسل أو تعز وإرشاد إلى غير ذلك من وجوه المسرات او يريد بقوله من لا يرحم لا يرحم أى لا تكون فيه رحمة الايمان التى هى دالة عليه فلا يرحم لخلوه من الايمان أو يكون المراد من لا يرحم نفسه بامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه لا يرحم لأنه ليس له عهد عند الله تعالى يوجب ذلك أو يكون المراد لا يرحم الرحمة التى ليس فيها ضيم ولاشىء من شوائب التشويشات إلا من كان راحما على الاطلاق لنفسه ولغيره وفى إيمانه كما قال عز وجل فى كتابه (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) أى يحق لهم الرجاء لما أتوا به موجباته فان رجوا بغير عمل فليس ذلك رجاء وإنما تسميه العلماء تمنى والتمنى عندهم مظنة الهلاك وكقوله عز وجل (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى قوله تعالى أولئك هم المفلحون) أو يكون المراد أن أهل المبالغة فى الرحمة يتجاوز الله تعالى بفضله عنهم ويرحمهم

كما تجاوزوا عن الكريم فان الله آخذ بيده كلما عثر وقد جاء «أن يوم القيامة ينادى مناد من له على الله حق فليقم فيقوم العافون عن الناس فيؤمر بهم إلى الجنة من غير حساب» واحتمل أن تكون الرحمة هنا بمعنى الحسنات والأجور فانه لا يؤجر ويحسن إليه إلا من فعل رحمة أى عملا يوجب له ثوابا كقوله عليه السلام «إن الله لا يمل حتى تملوا» أى إن الله لا يمل بالاحسان وحسن الجزاء حتى يملوا من العمل واحتمل أن يكون المراد لا ينظر إليه بعين الرحمة إلا من وفق إلى الرحمة وجعلت فى قلبه فتكون دالة على الرحمة له ومن لم يجعل فى قلبه رحمة كان ذلك دليلا على عدم الرحمة له فى الآخرة وإن كان هذا على عمل خير فى الظاهر لأن تلك العلامة لم يجدها وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم ما يبين هذا المعنى وهو قوله عليه السلام «اطلبوا الرقة فى ثلاث فى الذكر والتلاوة والصلاة فان وجدتموها وإلا فاعلموا أن الباب مغلق» أو كما قال عليه السلام والرقة لا تكون إلا مع الرحمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «لأعرابى ما بالك أنزع الله الرحمة من قلبك إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء» أو كما قال عليه السلام وقد قال صلى الله عليه وسلم فى القاسى القلب «بعيد من الله» وقد قال صلى الله عليه وسلم «ألا أخبركم بمن يحرم على النار وتحرم عليه النار على كل قريب هين سهل» أو كما قال عليه السلام وهذه الأدلة كلها إنما هى لمن جعلت الرحمة فى قلبه واحتمل أن يكون المراد بالرحمة هنا الصدقة فيكون المراد بقوله لا يرحم أى لا يدفع عنه البلاء مثل ما حكى فى قصة القصار من بنى إسرائيل الذى كان يؤذى الناس فشكوه لنبى ذلك الزمان فأخبرهم أن الله عز وجل يرسل عليه بلاء فى اليوم الفلانى فلما كان فى ذلك اليوم خرج الرجل على عادته للقصارة وأخرج معه رغيفين لغذائه فلقيه مسكين فسأله فأعطاه الرغيفين فلما كان عشية النهار وإذا به راجع ما به شىء فقالوا لذلك النبى صلى الله عليه وسلم وعلى سيدنا وعلى جميعهم أين الذى أوعدتنا فسأله ما فعلت اليوم فأخبره باعطائه الرغيفين فأمر بحل رزمة ثيابه فوجد فيها حية عظيمة ملجمة بلجام من نار فقال لهم هذا البلاء الذى كان أرسل عليه وهذا اللجام هى الصدقة التى تصدق بها حبستها عنه أو كما جرى وقد قال صلى الله عليه وسلم «ادفعوا البلاء بالصدقة» واحتمل أن يكون المراد الارشاد لجميع مصانع المعروف لقوله صلى الله عليه وسلم «مصانع المعروف تقى مصارع السوء» واحتمل أن يكون المراد جميع الوجوه كلها لأن على كل واحد منها أدلة من السنة عديدة ويترتب على ذلك من الفقه أن يتفقد المرء نفسه فى هذه الوجوه كلها لعله أن يكون ممن يرحم وإن عسر عليه شىء منها فيلجأ إلى المولى الكريم لعله يمن عليه بالرحمة وأسبابها فهو منان كريم جعلنا الله من أهلها بفضله فى الدنيا والآخرة

(٢٤٣) ﴿ حديث الحث على إكرام الجار ﴾

عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ

ظاهر الحديث يدل على الحض على حفظ الجار والاخبار بكثرة وصية جبريل عليه السلام للنبي عليه السلام به والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل هذه الوصية من قبيل الواجب أو المندوب وهل الوصية به من أجل الاحسان إليه وإن كان من أجل ذلك فما حده أو المراد غير ذلك من ترك الضرر إليه أو الجميع وهل ذلك على الاطلاق على أى حال كان الجار أو لها شروط وأى حد هو حد الجار من القرب والبعد ومن أى الجهات يكون وهل القريب منهم والبعيد فى الحرمة سواء وهل هى من الأمور التى يحتاج فيها إلى نية أم لا ﴿أما قولنا﴾ هل هذه الوصية من قبيل الواجب أو المندوب فهذه الصيغة لا تستعمل إلا فى المندوبات والمرغبات مثل قول أبى هريرة رضى الله عنه «أوصانى خليلى بثلاث ركعتى الضحى وصيام ثلاثة أيام من كل شهر وأن وأتر قبل أن أنام» وحفظ الجار من كمال الايمان وهو أيضا مما كانت الجاهلية ترعاه وتحافظ عليه وتفتخر بحفظه وتعيب تارك ذلك وتذمه ﴿وأما قولنا﴾ ما حد الاحسان إليه فهو على ضربين إما الاحسان إليه بأنواع ضروب الاحسان وأما كف الأذى عنه على اختلاف أنواعه وكف الأذى عنه أشد وأبلغ فى حقيقة الايمان لقوله صلى الله عليه وسلم «لا يبلغ أحد حقيقة الايمان حتى يأمن جاره بوائقه» أو كما قال عليه السلام فنفى صلى الله عليه وسلم أن تجتمع حقيقة الايمان مع إذائه الجار والاحسان إليه من كماله والاحسان إليه يكون بالوجوه المحسوسة مثل الهدية وأن لا يمنعه غرز خشبة فى جداره إن احتاج إليها وما هو فى معنى ذلك ويكون بالمعنويات مثل إرادة الخير له والدعاء له بذلك بظهر الغيب وما فى معناه ومعاونته على شىء إن احتاج إليه بقدر الجهد بأى نوع كان ذلك من المحسوسات أو المعنويات كل ذلك على قدر طاقتك بغير ضرر يلحق فيه للغير ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك على الاطلاق أو له شروط ﴿فالجواب﴾ أنه من وجه على الاطلاق ومن وجه له شروط فالذى هو على الاطلاق إرادتك الخير له إن لم يكن من أهله ودعاؤك له فى ذلك بظهر الغيب وما فى معناه وأما الذى له شروط فانه إذا كان على الاستقامة فالمندوب قد أصاب محله فأحسن إليه بما أمكنك من وجوه الاحسان حسا ومعنى وإن كان على غير الاستقامة فواجب عليك كفه عن ذلك إن كان ذلك فى قدرتك أو موعظته إن قبل وإلا فهجرانه على قدر جرمه ويكون يعلم أن هجرانك له من أجل ذلك لعله يرجع ومن أجل هذا وما أشبهه «قيل الجار قبل الدار» وقال العلماء شؤم الدار سوء جارها ﴿وأما قولنا﴾ أى حد هو حدها فقد تكلم الناس فى ذلك فما قيل فيه إن من بينك وبينه أربعون دارا فما دون ذلك فهو من جيرانك وأما ما يدل على الحديث الذى بعد هذا فهو من الاثنين فدون على ما يقع الكلام عليه فى موضعه من الحديث إن شاء الله تعالى ﴿وأما قولنا﴾ من أى الجهات يكون فقد قال العلماء من الأربع جهات إن كانت الجهات عامرة كلها ﴿وأما قولنا﴾ هل القريب والبعيد فى الحرمة سواء فهذا يحتاج إلى تفسير أما فى منع الضرر لهم فذلك سواء

وأما في إرسال الخير إليهم فان كان مثل المعنويات فهو في ذلك سواء وإن كان من جهة المحسوسات فيعمل في ذلك بحسب نص الحديث الذي يأتي بعد هذا الحديث وهو تقديم أقربهم منك بابا فتلك السنة هذا إذا تساووا في حق الجوار بلا زيادة حق على ذلك فان من الجيران من له حق واحد ومن له حقان وهو الذي يكون جارا مسلما ومن له ثلاث حقوق وهو أن يكون جارا مسلما قريبا ومنهم من يكون له أربعة حقوق ﴿القرابة والجوار والاسلام والصهر﴾ فيكون إذ ذاك المقدم منهم الذي يكون أكثرهم حقا ﴿وأما قولنا﴾ هل يحتاج في ذلك إلى نية أم لا فاعلم أن كل فعل يمكن عمله لله ويمكن عمله لغير الله والوجهان فيه سائغان على لسان العلم فلا بد من النية فيه إذا فعل لله ليمتاز عن غيره والاحسان للجار هو مما يمكن أن يكون لله وأن يكون لغير الله مثل أن تفعل الخير معه مكافأة على إحسان تقدم له عليك أو لمن يلزمك منه ملزم أو لحب فيه أو لخياء منه أو لرغبة في مكافأته أو لاحسان أو لخوف منه وأشياء عديدة إذا نظرتها تجدها فاذا كان لمجرد الجوار فالنية فيه مطلوبة ليتميز من هذه الوجوه كلها وما أقل اليوم فاعل ذلك وقد ذكر عن بعض أهل الدين والفضل أنه كان له أحد جيرانه وكان مسرفا على نفسه والسيد لا يعلم ذلك منه وكانت لذلك المسرف عادة إذا كان يفيق من نشوته قريب السحر يرفع صوته ويقول «أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ومثلي في الحقيقة لا يضاع» فكان ذلك السيد يتأنس بذلك القول منه كل ليلة إلى أن وقع الحاكم عليه فأمر بسجنه فلما كان في السحر لم يسمع السيد القول المعتاد من جاره فلما أصبح قال للخديم الذي له اذهب إلى جارنا فاسأل عن حاله وما كان سبب قطعه العادة البارحة فرجع الخديم له وأخبره بشأنه وما هو عليه فقال السيد لا يمكنني إضاعته فتوجه للحاكم في قضيته فقضى الحاكم حاجته وأطلقه ووجهه إلى ذلك السيد فلما رآه قال له هل ضيعناك أو فرطنا في حقك فاستحى من ذلك السيد وتاب وحسن حاله ﴿تنبيه﴾ إذا كنت يؤكد عليك في حق جار بينك وبينه جدار وتمنع أن يصل إليك منه إذاية وتؤمر بحفظه وإيصال الخير إليه فكيف بمراقبة الملكين الحافظين الذين ليس بينك وبينهما جدار ولا حائل وأنت تؤذيهما مع مرور الساعات بدوام التفريط وإيقاع المخالفات أنظر بعقلك هل يصح لك مع ذلك حقيقة الايمان أم كيف حالك يا مسكين لأنه قد جاء «أن الحفظة الكرام يسرون بحسنات العبد أكثر ما يسر العبد بها عند رؤية ثوابها وأنهما يحزنان ويهتمان من سيئات العبد ومعصيته أكثر مما يحزن العبد إذا رأى جزاءه عليها» فاسامتك لهما بخطيئتك وأنت لا تستحي ولا تنزجر فأنقبه يا بطال قبل رفع الحجاب وغلق الباب إذا كنت نفسك لا تحفظها وجيرانك منك لا يسلمون فالهرب منك ثم الهرب الهرب وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿حتى ظننت أنه سيورثه﴾ فيه دليلان (أحدهما) أن من أكثر له من شيء رجي له الانتقال إلى ما هو أعلا منه لأنه لما كثرت من جبريل عليه السلام الوصية في حق الجار ظن سيدنا صلى الله

عليه وسلم أنه سيبلغ الاعتناء به إلى ماهو أعلا وهو الميراث ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لأهل المقامات والأحوال لأنهم يقولون إذا فتح على أحد فى مقام ودام عليه بأدب رجى له الانتقال إلى ماهو أعلى منه ﴿ والدليل الثانى ﴾ أن أعلا الحرمة هو الميراث والميراث على ضربين ميراث العوام وهو فى حطام الدنيا وميراث الخواص وهو العلم إذا كان لله وهو على ضربين منقول ووهبى وهو الميراث الذى ورثته الأنبيا عليهم أفضل الصلاة والسلام لأن العلماء رضى الله عنهم ورثة الأنبياء عليهم السلام كالذى روى عن بعض الصحابة وهو أبو هريرة رضى الله عنه أنه مر على بعض أصحابه فى السوق فقال لهم أتجلسون هنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد وذلك بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فسارعوا إلى المسجد فاذا ناس من الصحابة رضى الله عنهم يتذاكرون فى العلم فقالوا له وأين ماقلت قال ذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الأنبياء عليهم السلام لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ حظه من الميراث غير أن بين الميراثين فرقا عظيما وهو أن الميراث الذى فى حطام الدنيا تدخله نسبة الدار وهو الضيق والنقص بالحجب إما كلى أو بعضى وبالعول أيضا نقص إثان وأما ميراث الخواص فليس فيه شىء من ذلك بل التوادد واسع ولهم الخير التام نسبة الدار الذى هو لها حكمة حكيم وأما اللدنى فكذلك أيضا وهو حق بدليل الكتاب والسنة فأما الكتاب فقصة الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام حين قال الخضر « إنى على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه أنت وهو اللدنى على ماذكره أهل العلم وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه » وهو المشروع وكان فى قصتهما ماقص الله سبحانه فى كتابه إلى قوله (ومافعلته عن أمرى) وقصة آدم عليه السلام حين علمه الله أسماء كل شىء بعد ماسأل جل جلاله الملائكة عن ذلك فقالوا (سبحانك لا علم لنا) فقال تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) كما قص الله سبحانه فى كتابه إلى قوله تعالى (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) وتعليمه جل جلاله أسما الأشياء كلها حتى اسم القصعة والقصيعة إنما كان بالعلم اللدنى بلا واسطة بين آدم ومولاه ولهذا ظهر عجز الملائكة وأقروا به وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم « إن من أمتى لمحدثين وإن عمر لمنهم » وقصته صلى الله عليه وسلم مع أبى هريرة حين شكى له أنه يسمع الحديث وينساه فقال له عليه السلام « أبسط رادك فبسطه قال فغرف بيده ثم قال ضمه فضممته فما نسيت شيئا بعده فكان أبو هريرة رضى الله عنه بعد ذلك أكثر الصحابة حديثا وقال رضى الله عنه حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم يعنى أن جميع تلك الأحاديث التى رواها إنما هى من بركة بسطة الرداء والصحابة رضوان الله عليهم قد قالوا أكثرت يا أبا هريرة من الحديث فكأنه يقول إذا الشىء الواحد أقلقكم وقلتم إنى أكثرت من الحديث فلو سمعتم الآخر قتلتمونى لأنكم كنتم تنسبونى إلى أن ذلك كذب منى

على النبي ﷺ ولم يقل هذا أبو هريرة وهو يقصد به الصحابة لأنهم رضي الله عنهم يعرف كل واحد منهم بفضل صاحبه ودينه وإنما قال ذلك من أجل الجهال الداخلين في الدين إذا كانوا يسمعون من الخلفاء وأكابر الصحابة رضوان الله عليهم أكثر أبو هريرة من الحديث وينكرون عليه ذلك وإنما أنكر من الصحابة من أنكر ذلك على أبي هريرة أنه اتهمه وإنما رأوا أن شغله بالتعبد أولى من استغراق الزمان كله في رواية الحديث فان كتاب الله قد كتب وأثبت بالاجماع وفيه جميع الأحكام وأن الصحابة رضي الله عنهم فقد نقل عنهم من الأحاديث ما فيه كفاية وزيادة فقد حصل من مجموع الثقلين وهما الكتاب والسنة ما فيه كفاية لمن اشتغل بالدين وتوفية ما به أمر لأن الصحابة والصدر الأول رضوان الله عليهم إنما كانت همتهم في الأعمال لأنها هي ثمرة العلم وكان مذهب أبي هريرة أن يبث ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أداء الفرائض أفضل القرب كما روى عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لو وضعتم الصمصامة على هذه وأشار إلى قفاه ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها فلم يرجع واحد منهم عما ظهر له والكل على الحق رضي الله عن جميعهم كما فعل بعض أصحاب مالك رحمه الله وكان ذلك الصاحب ممن قد انقطع إلى العبادة فكتب إلى مالك يحضه على ترك العلم والانقطاع إلى العبادة فأرسل مالك إليه وهو يقول له «يا أخي ما أنت عليه بأفضل مما أنا عليه والكل على خير إن صلحت النية» فلم يرجع إليه فاذا رأى الجاهل أبا هريرة بعد ما سمع من أكابر الصحابة رضي الله عنهم أنه أكثر من الحديث قد زاد في الحديث أضعافا مضاعفة ينسبه إلى ما لا يليق به وقد يفضي الأمر إلى القتل فيكون قولهم ذلك مع الزيادة في الحديث قاطعا للبلعوم كما ذكر رضي الله عنه لأنه من شارك في قتل نفس بأي وجه شارك وإن قل من قول أو فعل سمي قاتلا لغة وشرعا فلذلك كف رضي الله عنه عن الزيادة (١) ﴿وفي ذلك دليل﴾ للاخذ بسد الذريعة وفي فعل سيدنا صلى الله عليه وسلم ذلك مع أبي هريرة دليل لأهل الأحوال الصادقة المستقيمة على طريق الكتاب والسنة مع أولادهم في السلوك ينظرون إلى الذين فيهم الأهلية فيورثونهم من أحوالهم المباركة التي فتح عليهم فيها لأنه صلى الله عليه وسلم الأصل في كل خير من علم أو حال أو عمل فانه بحر الأنوار والحكم والحلى النفيسة وجامع للاعلى من العلوم والأحوال والشيم الرفيعة بدءا وعودا فكل من كان من أهل السعادة قد أخذ منه مشربا وفي قوله عليه السلام ﴿ظننت﴾ وجه ثالث وهو إن الظن إذا كان في طريق الخير جائز شرعا ما صح منه وما لم يصح فانه صلى الله عليه وسلم قد ظن أنه سيورثه ولم يقطع ذلك ففائدة إخباره عليه السلام لنا بذلك لنأخذ منه الدليل على جواز ذلك والفرق بينه وبين الظن السوء بأنه ممنوع شرعا كما قال عز وجل (إن بعض الظن إثم) وفي ذلك دليل على الطمع في زيادة خير المولى سبحانه عند توالي

(١) وقد قال الحافظ في الفتح وبقية شراح الجامع أن المراد بالذي كتمه أبو هريرة إنما هو تولية بعض أمراء بني أمية

نعمه على عبده بلغ ذلك حده أولم يبلغه لأنه أى توالى نعم أكبر من كثرة تردد جبريل عليه بالوصية فى حق الجار إلى خير البشر صلى الله عليه وسلم ﴿ وفيه دليل ﴾ على الندب إلى التحدث بما يقع فى النفس من الخير قضى بذلك أم لا وقد قيل فى فضل مولاك فاطمع إن كنت طامعا فليس عار على عبد فى فضل مولاه طمع

(٢٤٤) ﴿ حديث الترتيب بين الجيران بالمودة ﴾

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ إِنَّ لِى جَارَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِى قَالَ إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا

ظاهر الحديث يدل على أن أقرب الجيران منك بابا أولى بالهدية من غيره والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا على طريق الاستحباب أو الوجوب ﴿ فالجواب ﴾ إما أن يكون ذلك على الوجوب فليس بظاهر لأن الهدية لم يقل أحد أنها واجبة فاذا كان الفعل فى نفسه مندوبا فتقديم الناس فيه بعضهم على بعض من باب المندوب أيضا فانه لا يكون الفرع أقوى من الأصل ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المستحب فى الأعمال الأخذ بما هو أعلا يؤخذ ذلك من إرشاده صلى الله عليه وسلم لما هو الأفضل فى الترتيب بين الجيران وأعظم حرمة أليس أنها لو أهدت لغير الأقرب بابا لكانت مأجورة فى هديتها فلما كان الأقرب بابا أعظم حرمة كان بالمعروف أولى وكان صاحبه أكثر أجرا وكذلك السنة فى غير ذلك من أفعال البر يؤيد ذلك ويقويه قوله عز وجل فى كتابه (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) ﴿ وفيه دليل ﴾ على تقديم العلم قبل العمل يؤخذ ذلك من سؤال الحارض الله عنها قبل عملها ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل الطريق لأنهم يؤخرون العمل لاشتغالهم بتصحيح النية يؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم «خير العمل ما تقدمته النية» أو كما قال عليه السلام ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الجوار الذى وكد فى حقه على نحو الحديث قيل أنه ما يتعدى إلى أكثر من إثنين وما عداه أخفض رتبة فى الطلب فأوجب ذلك تأكيدا ما على غيره ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن آكد الجهات فى الجوار جهة الأبواب لأن الذى هو أقرب منك بابا هو الذى تكثر مشاهدته لك ولكل ما يرد عليك وقد يعلم من حالك لكثرة الملازمة ما لا يعلمه غيره وأنت أيضا تعلم من حاله كذلك وهذا كله إذا كان الجوار على الشروط المتقدم ذكرها فى الحديث قبل وعرى عن الحقوق الزائدة عليها كما تقدم أيضا ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المندوب إلى حفظ الجار الرجال والنساء فيه سواء يؤخذ ذلك من قولها إلى أيهما أهدى فانها سألت عما يخصها فى ذلك ولو كانت فى ذلك نائبة عنه صلى الله عليه وسلم لقالت إلى أيهما نهدى ﴿ تنبيه ﴾ القرب بأى وجه كان كانت له حرمة ما أما ترى الجار قد جعلت له حرمة من أجل الجوار بالجدار وإن كان كافرا ففيه إرشاد إلى أن تكون لك همة فيها فحولية لعل قربك يكون من النوع الذى لا قطع له فان قرب الكافر بجوار الجدار ينقطع بانقطاع هذه الدار والقرب بمناسبة الطريقة والحال يتأكد

حقه فى تلك الدار كما جاء الأثر «أن عمار المساجد جيران الله» فاذا كانوا جيرانه فى هذه الدار فكيف يكون حال حرمتهم فى تلك الدار هاه حبا فيهم وشوقا اليهم ماأحسن ماأثنى عليهم مولاهم حيث قال (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله) وماذا أعد لهم يتضمن قوله ويزيدهم من فضله فثواب أعمالهم محدود معلوم وماكان من فضله عزوجل فلا تصل إليه العقول ولا تحيط به الاوهام جعلنا الله من أهل القرب المقربين بفضله كما يليق بفضله وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده وآله وسلم

(٢٤٥) ﴿حديث كل معروف صدقة﴾

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ

ظاهر الحديث يدل على أن كل من عمل عملا من أعمال المعروف أن له فيه أجرا وحسنة مثل ماله فى الصدقة إذا تصدق بها والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل المراد بالمعروف الشرعى أو العادى وهل فاعله يحتاج إلى نية حتى يكون مأجورا أو بنفس فعله يكون مأجورا وإن عرى عن النية وهل هو محدود معلوم لا يزيد ولا ينقص أو هو معلوم غير محدود يزيد وينقص بحسب الازمنة ﴿أما قولنا﴾ ماالمراد بالمعروف فالمراد أنه قد عرف وتحقق أنه من أفعال البر فصار هذا الاسم عليه علما ﴿وأما قولنا﴾ هل المراد الشرعى أو العادى فالجواب أنه لا ينطلق اسم معروف إلا على ماقد عرف بالأدلة الشرعية أنه من أفعال البر كان أصله أولا مخترعا بالشرع أو كان عادة فأقرتها الشريعة أن جعلته معروفا فمثال ماالخترعته الشريعة معروفا ولم يعلم قبل أنه من وجوهه مثل «الحب فى الله تعالى والبغض فى الله» إذا كانا بشروطهما ومايشبههما وهو كثير ومثل إماطة الأذى من الطريق وماأشبهه وهو أيضا كثير ومثل أنواع الاذكار وما فى معناها وهو أيضا كثير ومثل أنواع المندوبات وأما ماكان عادة بين الناس وأثبتت الشريعة أنه معروف فهو مثل السلف فانه كان عادة بين الناس أثبتت الشريعة فيه من الأجر كثيرا حتى ارتفع الحق الواجب الذى فيه من الزكاة طول بقائه عند الذى استسلفه فاذا بقى مال المقرض الذى فيه نصاب عند الذى استسلفه سنين عديدة ثم قبضه صاحبه لا يجب عليه فيه إلا زكاة سنة واحدة لا غير ومثل استعارة متاع البيت كان الناس يفعلونه عادة فجاء فيه من الأجر ما جاء وجاءت الأدلة الشرعية تحض عليه حتى قال بعض العلماء أنه واجب ومن هذا النوع كثير وقد جاء فى مبلغ أجورهم أنه من أعار قدرا كان له من الأجر بقدر ما طبخ فيها من الطعام أن لو تصدق به ومن أوقد شعلة نار كان له من الأجر بقدر ما طبخ على تلك النار أن لو تصدق به وكذلك فى سلف الخيرة أو هبتها وكذلك الملح ﴿وأما قولنا﴾ هل يحتاج إلى نية عند فعله أو بنفس الفعل يكون

مأجورا وإن لم تحضره نية فهذا يحتاج إلى تقسيم وذلك أن العلماء قد أجمعوا على أن أفعال البر كلها إذا وجدت فيها النية مقدمة فلا خلاف فى كمالها ورجاء قبولها وبقى الخلاف فيما عدا ذلك هل يجزىء مطلقا أو لا يجزىء مطلقا أو بالتفرقة البعض يجزىء والبعض لا يجزى خلاف متسع وترك الخلاف أولى ﴿وأما قولنا﴾ هل هو محدود معلوم لا يزيد ولا ينقص أو هو معلوم غير محدود يزيد وينقص بحسب الأحوال والأزمنة فان نظرنا بحسب الوقائع وطرقها فتزيد فى زمان وتنقص فى زمان آخر لكن الشأن هل تعلم جميع أنواعها مفصلا هذا ما قدر أحد من العلماء أن يحصره لأنه قد جاء عن سيدنا صلى الله عليه وسلم أنه بلغ عدد المستحقرات من أفعال البر الذى أعلاها منحة العنز ومنحة العنز عند العرب من الأشياء التى لا يبالى بها سبعين أو كما قيل وقد روى عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم قالوا عددناها بعد فما قدرنا على أن يبلغ فيها أكثر من خمسة عشر وهى مثل إماطة الأذى عن الطريق ومثل أن تلقى أخاك بوجه طلق ومثل الكلمة الطيبة ومثل الارشاد إلى الطريق وما فى معناها فاذا كانوا أولئك السادة لم يقدروا أن يحصروا من السبعين إلا خمسة عشر مع اهتمامهم بالدين وجمعهم على ذلك فكيف بمن بعدهم لا سيما فى زماننا هذا وهنا ﴿إشارة لطيفة﴾ وهى أنه لما أن خفيت أفعال المعروف لدقة أكثرها أشبهت إخفاء ليلة القدر وإخفاء الساعة فى يوم الجمعة وليلة القدر ترقب فى لياليها المعلومة لها والساعة التى فى يوم الجمعة ترقب فى جميع يومها فينبغى أن ترقب أفعال المعروف مثلها وكيفية ذلك أن يحضر النية فى أول يومه لأنه لا يفعل فعلا من الأفعال أو يتكلم بكلمة إلا ناويا بها القرب الى الله تعالى فما وقع له من ذلك فان جدد له نية فهو الكمال وإن حصلت له غفلة حين وقوع ذلك منه فيرجى أن ما تقدم ذلك من النية يجزىء عنه مالم يكن لتلك النية مناقض وقد تقدم أن الأفعال قسمان واجب ومندوب بالنسبة إلى النيات وأما المباح فلا سبيل اليه عند أهل الطريق فاذا فعل ذلك يرجى أن يصادف كل معروف كما يصادف ليلة القدر والساعة التى فى الجمعة من ارتقبهما والله الموفق ويكون فى ذلك كله مستعينا بالله تعالى مستعيذا به ومستغيثا خوفا أن يوكل إلى نفسه فيقطع به فيما نواه فيحصل والعياذ بالله فى المقت لقوله تعالى (لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وبقى علينا كيفية التوجيه بحسن النية فى جميع الحركات كيف تكون حتى يسلم من البدع وتكون فى ذلك على لسان العلم وهنا ﴿إشارة حسنة﴾ وهى أنه لما خفيت علينا هذه الفوائد كما خفيت علينا ليلة القدر وجعلوا قيام السنة كلها بنية ليلة القدر كما تقدم الكلام عليه حين تكلمنا على ليلة القدر قالوا هنا نحن نجعل حركاتنا كلها مباحها وغير ذلك كلها بنية القربة لله تعالى كما أوصينا من أفعال البر التى قد نبه عليها صلى الله عليه وسلم ولم نصل إلى معرفتها فقد يحصل لنا المقصود إن وقع منا فعل ونية حسنة متقدمة وما كان من المباح وفعلناه بنية القربة ولم يصادف

تلك الأشياء فلا يضرنا ذلك وهو وجه حسن لأننا نؤجر ما قالوا فى الأجر وإصابته بفضل الله تعالى وماقالوا فانه إذا لم يصب من ذلك شيئا لا يضره ذلك وأنه لايخلو فى ذلك الوجه من الأجر أيضا لحرصه على إصابة الخير واتباع السنة وقهر نفسه حتى نفى عنها المباح الذى لها سعة فيه وملازمته ذلك ابتغاء مرضات مولاه العليم الكريم وكيف يضيع ذلك ومولاه جل جلاله يقول فى كتابه (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) بل يرجى أن يزيده من الأجر فى ذلك النور والهدى إلى سبيل الخير بالوعد الجميل (ومن أصدق من الله قيلا ، ومن أصدق من الله حديثا) لكن بقى علينا كيف توجيه حسن النية فى جميع الحركات على نحو ما أشاروا اليه كيف يكون حتى نسلم من البدع ونكون فى ذلك على لسان العلم فنقول والله المستعان لايخلو ما يتصرف فيه العبد أن يكون فيما يخص نفسه أو ما يخص غيره فان كان فيما يخص نفسه فلا يخلو أن يكون من النوع الذى فيه قربة لله تعالى فهذا قد تميز بنفسه أو يكون مما أبيح له فعله على لسان العلم فيجعله بنية العون على طاعة الله دق الأمر فى ذلك أو جل دليله فى ذلك قول معاذ رضى الله عنه فى نومه «وأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى» وقد تقدم الكلام عليه فى غير ما موضع وان كان فيما يخص غيره فلا يخلو أن يكون مع حيوان عاقل مثله أو غير عاقل فان كان عاقلا فلا يخلو أيضا ما يتصرف فيه أن يكون مما قد تبين أن فيه قربة الى الله تعالى فقد بان من الوجه وان كان لم يتبين فيه ذلك فيكون نيته فى ذلك أحد النيات المستحسنة شرعا وهى إما من باب إدخال السرور أو من شفقة الاسلام أو من باب العون على مافيه رفق له فى شأنه أو من باب الرفق لقوله عليه السلام « ما كان الرفق فى شىء إلا زانه » أو من باب اتباع حكمة الله تعالى الجارية فى ذلك الوجه أو من باب اتخاذ الخير عادة مطلقا أو ما فى معنى هذه النيات أيها أمكن فى ذلك الأمر فعله وليتحذر فى ذلك من الرياء وطلب المدح على ذلك أو العوض أو ما يقرب من ذلك وان خفى سواء كان فعلا أو قولا أو نية ومما روى فيما يشبه هذا النوع من حسن النية للغير فى أمر خاص أن بعض المسرفين على نفسه مات ولم تعلم له حسنة قط فرآه بعض المباركين فى نومه فى حالة حسنة فقال له بم نلت هذه المنزلة فقال له لم توجد لى حسنة واحدة إلا أنه خرجت يوما سرية من سرايا المسلمين فغنمت فبلغنى ذلك ففرحت لكون المسلمين غنموا فغفر الله لى بذلك فانظر الى هذا الخير ما أدقه وأخفاه وإلى هذا الفضل ما أعظمه وأعلاه ومن هنا فتنبه وإن كان الحيوان غير عاقل فقد بان المعرف فيه لقوله ﷺ « فى كل كبد حراء أجر » إلا أنه يتحرز أن يكون لولوع به أو لمنفعة يرجوها منه أو عليه أو لحظ ما من الحظوظ النفسانيـــة فتلك أبواب قد عرف ما فيها وما على الداخل فيها وما له على حسب ما قد بيناه فى غير ما موضع من الكتاب وليس هى من هذا الباب الذى نحن بسبيله فى شىء وفى الحديث ﴿فائدة لطيفة﴾ وهى الحض لك أن ترد بالك إلى باب المعروف فتعلمه وتعمل به

لأنه باب واسع كاد أن لا يخلو من وفق إلى علمه والعمل به من داوم الخير ليلا ونهارا لئلا تجهل فتقول لا تكون الحسنة إلا فى الصدقة بالمحسوس ويفوتك خير كثير وأنت قادر عليه وليس عليك فى أكثره شيء من المشقة والصدقة بالمحسوس قد لا يقدر عليها بعض الناس وهذا منه صلى الله عليه وسلم من أحسن الارشاد جزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيا عن أمته بفضله وجعلنا من مباركيها فى الدارين بمنه

(٢٤٦) ﴿ حديث كراهة الشعر وحرمته ﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَأَنْ يَمْتَلِيءَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيءَ شِعْرًا

ظاهر الحديث يدل على ترجيح أن يمتلىء الجوف قيحا الذى هو عين الهلاك على أن يمتلىء شعرا والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما يعنى بجوفه ومنها هل قوله شعرا على عمومه أو ليس وما المراد بقوله أن يمتلىء شعرا هل لكثرة حفظه الشعر أو هل بتعلق الخاطر به ومنها ما الحكمة فى أن مثل بالقيح دون غيره ﴿ أما قولنا ﴾ ما معنى جوفه احتمل وجهين أحدهما أن يعنى به الذى فى جوفه وهو القلب واحتمل أن يكون على ظاهره فيعنى به الجوف كله وما فيه من القلب وغيره والأول أظهر والله أعلم ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم «شعرا» هل ذلك على العموم من أى نوع كان الشعر أو على الخصوص احتمل اللفظ لكن قواعد الشريعة تخصصه لأن ما كان من الشعر فى مدحه صلى الله عليه وسلم فهو قربة الى الله تعالى وقد كان هو صلى الله عليه وسلم يحض عليه مثل قوله صلى الله عليه وسلم لحسان أجبهم عنى فقال له حسان والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين أو كما قال وما كان منه فى تنزيه الحق سبحانه فذلك قربة أيضا وما كان منه يحض على الآخرة ويزهد فى الدنيا فذلك من باب الوعظ والتذكار بالخير وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة » فما كان منه حكمة فكيف ملء الجوف بالقبيح خير منه هذا لا يمكن فيكون اللفظ عاما ومعناه الخصوص والله أعلم على هذا التوجيه المتقدم فيكون المحذور منه مثل النوع الذى ذمه مولانا جل جلاله فى كتابه حيث قال (والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون) وذلك مثل شعراء الجاهلية وتغزلهم فانهم كانوا يتغزلون فى مدح النساء وذكرهن وغير ذلك من الوجوه المحركة للشهوات وحبها وحب الدنيا وفخرهم بما لا يجوز شرعا وما فى معناه ولذلك ذكر عن بعض أهل الطريق وكان من أكابر وقته أنه جاءه بعض الناس بابنه بعد ما علمه العربية والأدب ورغب منه أن يقرأ عليه شيئا من طريق القوم لعله ينبعث له همة فقال له لا أفعل لأنك أتيت به إلى بعد ما ملأت قلبه بالشعر وخالط بشاشة الشهوات وحب الدنيا فما عسى أن أفعل فيه فامتنع منه ولم يقبله وهنا ﴿ إشارة لطيفة ﴾ كما قال صاحب الرسالة « وأولى القلوب بالخير ما لم يسبق الشر إليه »

﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى يمتلىء شعرا هل المراد منه الذى يكثر من حفظ هذا النوع من الشعر أو المراد به من تعلق به خاطره حتى يكون به مشغوفا (فالجواب) أن هذا على وجهين إما مشغوفا بترداده وذكره والنظر فيه أو مشغوفا به وبنظمه وإنشائه واختراعه ومعارضة من تقدم من أهل ذلك الشأن احتمل الوجوه كلها لكن الأظهر والله أعلم أن المراد هو الذى تعلق خاطره به التعلق الكلى الذى يلهيه عن غيره كان ممن يخترعه وينشئه أو ممن ينقله ويحفظه وقد أعز به فالوجهان سيان مثل الذى ابتلى بحب الدنيا كان بيده منها شيء أو لم يكن الكل مما غلب عليهم حب الدنيا من أجلها يحبون ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أن مثل بذكر القيح فاعلم وفقنا الله وإياك أن تمثيله عليه السلام بالقيح من أعظم الحذر عما مثل به وذلك أن أهل صنعة الطب يزعمون أنه إذا وصل إلى القلب من الداء شيء إن كان يسيرا فان صاحبه يموت لا محالة لأنه عضو رئيس لا يحمل من الآلام شيئا وإن غيره مما فى الجوف مثل الكبد والرئة إلى غير ذلك أن الآلام إذا كانت فى بعضها ان ذلك من الأمور المخوفة والغالب على صاحبها الهلاك فكيف إذا امتلأ الجميع بالقيح لا شك فى هلاك صاحب ذلك ألا ترى أنه إذا كان بعض الأنامل فيه نبات عند أخذه فى جمع القيح لا يهنأ لصاحبه عيش ولا حال وأيضا أن صاحب ورم الأكباد يموت بخبول الدماغ من هول ما يقاسى فمرجيحه صلى الله عليه وسلم هذه الحالة التى ذكرناها على الشعر الذى فيه راحة النفس إنما ذلك لجمعه علتين وهما شغله عن الله تعالى بما لا يجوز من ذكر تلك الأمور التى يتضمنها تغزل الشعر لأنه قد قال صلى الله عليه وسلم « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت » ولما كان الشغل هنا بمكروه أو حرام كانت الموتة على الحالة المذكورة خيرا له ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال هل يتعدى الحكم بوجود العلة أم لا الظاهر تعديه لأن كل ما يشغل عن الله تعالى فصاحبه محروم فان كان بمحرم من أى المحرمات كان فالموت على هذه الحالة خير له مما هو فيه ﴿ تنبيه ﴾ اذا كان ملؤه بالقيح خير له من الشعر وما فيه إلا العلتان اللتان ذكرناهما فكيف إذا امتلأ بعلم الجدل وما يشبهه لأن تلك العلوم تقسى القلوب وتشغلها عن الله تعالى وتحدث الشكوك فى الاعتقادات وتطيل اللسان وتزرع الحسد فى القلوب والتنافس وتفضى إلى التباغض والتحكم على القدرة بأشياء لا توافقها الأدلة الشرعية فكيف يكون حال صاحبه وفيه ﴿ تنبيه ﴾ على ترك حظوظ النفس والعوائد السوء يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم بعث والعرب فى معظم فصاحتها واشتغالها بالشعر وتنافسها فيه فزجرهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك بهذا الزجر العظيم الذى تضمنه الحديث ﴿ ويترتب على ذلك من الفقه ﴾ أن شغل الباطن بغير ما يرضى الله من أعظم الأمور المهلكة ولم يجعل له مخرج والأمور الواقعة فى الخارج من الكبائر والصغائر وما بينهما جعلت فيها الحدود والكفارات الى غير ذلك مما هو معروف من قواعد الشرع ويترتب عليه

أيضا أن الزجر كان لنفسك أولغيرك أو يكون بحسب الشيء المنهى عنه من قوة أولين حتى يكون عاصما لتلك المادة الرديئة ﴿وفيه دليل﴾ لأهل المجاهدات وهو أنه لما عصت عليهم نفوسهم فى الانقياد الى ما أريد منها أخذوها بالمجاهدات على قدر رعونتها حتى انقادت وقد ذكر عن بعضهم أن نفسه كان فيها رعونة فجاهدها عشرين سنة بأكل نشارة الخشب ولم يطعمها خبزاً أصلا حتى انقادت واستقامت لما أريد منها ومثل ذلك الشأن فى قطع العوائد السوء ولا ينظر فى ذلك لكثرة انتشارها فى الناس وإنما ينظر فيها بلسان العلم هل يجوز أم لا وعلى ذلك يكون العمل فهى طريق النجاة جعلنا الله من أهلها فى الدارين بمنه وفضله

(٢٤٧) ﴿ حديث فيضحة الغادر يوم القيامة ﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ الْغَادِرَ يُرْفَعُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ

ظاهر الحديث يدل على فضيحة الغادر يوم القيامة ينصب له لواء غدرته وشهرته بها على جميع العالم هناك والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل الغدر على عمومه فى الدق والجل أو فى أشياء مخصوصة وهل له عذاب غير ذلك أم ليس وهل لكل غدرة تكون منه ينصب له بها لواء أو لواء واحد يكفى عن جميع غدراته وهل تعرف الحكمة فى ذلك أم لا ﴿أما قولنا﴾ هل الغدر على عمومه وهو فى بعض الأشياء دون بعض أما ماعدا الأشياء المحرمات والمكروهات التى قد خرجت ببيانها فهو عام فى الدق من الأمور والجل وهذا باب ضيق لم يسامح فيه أحد من العلماء فى ذرة حتى أنهم قالوا فى الأسير إذا كان فى دار الحرب وقال له العلج الذى هو فى يده عاهدنى على أن لا تهرب وأنا أسرحك من الحديد فان عاهده وسرحه من الحديد من أجل عهده فلا يحل له الهروب بخلاف أن لو حلفه فله إذا حلفه أن يهرب ويكفر عن يمينه أما ترى إلى حال الغادر فى كتاب الله عز وجل حيث قال (ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) فأورثهم غدرهم لمولاهم أنجس الأحوال وهو النفاق ﴿وأما قولنا﴾ هل له عذاب على ذلك فالعذاب له بحسب ماقدر عليه وانما تكون له هذه العلامة التى يعرف بها يوم القيامة لأنه قد شاءت الحكمة الربانية أن جعلت لكل صاحب ذنب علامة يعرف بها ذنبه مثل شاهد الزور يبعث مولعا لسانه بالنار وآكل الربا يتخبط مثل صاحب الجنون فى الدنيا والذى يطلب وليس بذى حاجة ليس فى وجهه مزعة لحم والنائحة لها سربالان أحدهما من

الجرب والثاني من القطران ومانع الزكاة إن كانت إبلا بطح لها بقاع قرقر فجاءت أوفر ما كانت تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر آخرها ردت أولاها حتى يقضى الله تعالى بين عباده ثم يرى سبيله وان كانت غنما فمثل ذلك إلا أنه قال تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها وإن كان ماله ذهبا أو فضة مثل شجاع أقرع يعضه فى شدقيه يقول أنا مالك أنا كنزك والمتكبرون يبعثون مثل الذر وآكل أموال اليتامى ألسنة النار تخرج من منافس جسده وشارب الخمر الكوز معلق فى عنقه والكذاب ينشق شدقيه كما تقدم فى الحديث والمغتابون الناس تقرض شفاههم بالمقاريض أو كما ورد فى ذلك فهذه كلها علامات على كل ذنب حتى يعرف به صاحبه وهى أشياء عديدة بحسب الجرائم وكفى فى ذلك قوله تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والاقدام) أعاذنا الله من الذنوب والفضيحة بها ولم يكن فيها إلا هذا المقدار لكان كافيا فى الردع والازدجار فكيف بالأمور الزائدة على ذلك الذى لا تحمله الجبال ﴿وأما قولنا﴾ فيمن له غدرات هل تنصب له ألوية بعددها أو لواء واحد يكفى ظاهر الحديث يعطى أن لكل غدرة لواء يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام يقال هذه غدرة فلان بن فلان ، وجاء فى حديث غيره بقدر غدرته ﴿وأما قولنا﴾ هل تعرف الحكمة فى كونه جعلت شهرته بنصب اللواء أم لا فنقول والله أعلم قد عرفنا من حكمة الشريعة أن العذاب على الشىء يكون بما يضاده وأن الشهرة هنـــاك من جملة العقاب أيضا فلما كان الغدر هنا أمرا باطنيا خفيا جعلت علامته هناك أشهر الأشياء لأن عادة العرب إن أشهر الأشياء عندهم إنما يكون برفع الألوية وقد جاء فى حديث آخر « أنه ينصب عند أسته » أو كما ورد وهذه مبالغة فى التوبيخ والخزى جزاء وفاقا ﴿وفيه دليل﴾ على أن المعرفة فى الآخرة مثل المعرفة هنا يؤخذ ذلك من قوله فلان بن فلان وكما أن المعرفة بالآباء هنا فكذلك هناك ﴿تنبيه﴾ إعرض يافلان بن فلان على نفسك حين وصف ﷺ أبواب الجنة وذكر أن لكل باب منها من أعمال الخير نوعا يدخل أهله من ذلك الباب وأن أهل الصوم يدخلون من باب الريان فقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله ماعلى من يدعى من تلك الأبواب كلها فقال صلى الله عليه وسلم « أرجو أن تكون منهم » أو كما ورد وكيف حال من اجتمعت عليه وفيه تلك العلامات القبيحة على مافرط من الزكاة وغيرها من المتقدم ذكرها ورايات غدره تخفق عند أسته فاجعل نفسك بين هاتين الحالتين واختر إلى أيهما تفرع بالاعمال لا بالطمع والآمال « والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » جعلنا الله من أهل الكيس وأعاننا عليه وأسعدنا به بمنه

(٢٤٧) ﴿ حديث كراهة الالفاظ الخبيثة من المؤمن ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسِي وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِسَتْ نَفْسِي

ظاهر الحديث النهى عن أن يصف أحد نفسه بالخبث ولكن إن ظهر له منها مالا يعجبه يعبر عن ذلك بقوله لقست نفسى والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل النهى عنها على طريق الكراهة أو الحظر وهل الأمر بقوله ﴿ لقست نفسى ﴾ على طريق الندب أو على طريق الوجوب وإن كان على طريق الندب هل يعبر بغير هذه الصيغة أم لا وما الحكمة فى منعه من قول الخبث وهل يكون المنع من هذه اللفظة لاغير أو ما هو فى معناها ﴿ أما قولنا ﴾ هل النهى على طريق الحظر أو الكراهة احتمل والظاهر أنه على طريق الكراهة بحسب ما علله بعد ﴿ وأما قولنا ﴾ هل إن كان على الندب هل يعبر بغير لقست ﴿ فالجواب ﴾ إن الأولى فى المندوب صيغة لفظه صلى الله عليه وسلم لما فى ذلك من الخير وإن عبر بما فى معناها فقد خرج عن المنهى عنه ودخل فى باب المندوب إلا أنه ترك الأولى من المندوب لترك اللفظ المبارك ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى نهيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك فان قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا لحكمة فما هى فاعلم وفقنا الله وإياك أنه عليه السلام كان يعجبه الفال الحسن ويكره السيء منه فكراهيته عليه السلام لذلك الوجه الخبيث لوجهين والله أعلم أحدهما كراهيته من أن يكون فالا فانها لفظة ثقيلة كما نهى عليه السلام أن يسمى أحد ابنه أو عبده خيرا خيفة أن يقول طالبه هنا خير ولا يكون حاضرا فقال ليس هنا خير والوجه الثانى كراهة أن يشهد المرء على نفسه بالفسق لأن الفاسق والكافر والفاجر نفس كل واحد منهم خبيثة فلما كانت تلك اللفظة تحتمل جملة معان قبيحة منع عليه السلام المؤمنين أن يعبروا بها عما يجدوا فى أنفسهم مما لا يرضوه من عجزها أو ما يشبهه وأبدل لهم لفظة حسنة وهى قوله لقست وهذا من نوع الفال الحسن ﴿ ويترتب على هذا من الفقه ﴾ أن يطلب المرء أنواع الخير حتى ولو بالفال الحسن ويضيف الخير الى نفسه ولو بنسبة ما وإن ضعفت طمعا فى فضل الكريم الجواد ويدفع عن نفسه السوء ويكرهه حتى التفاؤل به ولا يكون بينه وبين أهله وصلة ويقطعها القطع الكافى حتى فى الألفاظ المشتركة التى تقع معبرة عن حاله وحالهم يعدل عنها خيفة شؤمها أعاذنا الله من ذلك بمنه ومما يقوى ما أشرنا إليه ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أتاه أعرابى فقال له « ما اسمك فقال جمرة فقال ابن من فقال ابن شهاب قال ممن قال من الحرقة قال أين مسكنك قال بحرة النار قال بأيها قال بذات لظى قال عمر أدرك أهلك فقد احترقوا » فكان كما قال عمر رضى الله عنه

رواه مالك فى موطئه ﴿وأما قولنا﴾ هل النهى عن هذه اللفظة لا غير عنها أو عن ما هو فى معناها فاذا قلنا بتعليل قوله فينبغى المنع منها وما فى معناها للعلة المذكورة لاسيما ما ذكرنا عن عمر رضى الله عنه آنفا وان قلنا تعبد فلا يتعدى الحكم إلى غيرها وليس بظاهر ويجب على القول بالتعليل أن يمنع اما اتخذه اليوم بعض الناس أنه إذا كان به شىء يقول نفسى ليس بطيبة وأنا ليس بطيب يخرج نفسه من الطيبين فاذا أخرجها من الطيبين ألحقها بالخبيثين وكذلك كل ما كان من هذا النوع المنع فيه هو الأولى ﴿وفيه دليل﴾ على كثرة شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته يؤخذ ذلك من نهيه عليه السلام عن هذا وما أشبهه ﴿وفيه تنبيه﴾ لأهل القلوب لأن من الألفاظ والحركات ما هى إشارة من الغيب لمن فهم ولولا ذلك ما كان ينهى هذا السيد صلوات الله عليه وسلامه عن هذا وأشباهه ومما يروى عن بعض أهل القلوب أنه خرج متوجها فى حاجة فقابله دكان صاحب الحاجة وهو قد نزل إلى حاجة له وجعل عن دكانه عودين على شبه لام ألف فلما رآها الفقير رجع فقيل له فى ذلك فقال لهم أما تروا على دكانه العلامة على أنها ليست عنده فقالوا وما هى فقال لام ألف عبارة عن لا شىء هنا فلما كان بعد مجيئه سأله بعض أصحاب الفقير عما قال فقال صاحب الدكان صدق الفقير فان الحاجة لم تكن عندى ومن قول بعضهم ما يقوى هذا المعنى قوله « الاعتراض على الرموز جفا إن فهمت وإلا فلا تعترض على ما ليس لك به علم » ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن ينظر بنور الله » فمن نظر بالنور فهم موضع الاشارة ومن لم يكن له نور لم يلتفت إلى شىء وبقى مثل البهيمة فأما أن يجعل الكل رموز فيخرج بذلك إلى باب عظيم من الفساد وأما أن يسد هذا الباب مرة واحدة فتفوته هذه الرموز وتغطى عنه فهذا فى حقه أسلم له إذا سلم الأمر إلى أهله وهذا إنما هو لأهل الميراث والنور والتوفيق كما ذكرنا عن عمر رضى الله تعالى عنه فيما تقدم من الكتاب ومن رزقه الله من ذلك الميراث والنور والتوفيق نسبة ما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا قاسم والله يعطى » فوجود الخير على يده عليه الصلاة والسلام تتابعت وقسم لمن قسم ما قدر له جعلنا الله ممن أجزل نصيبه من تلك الخيرات إنه ولى حميد

(٢٤٩) ﴿حديث تحريم سب الدهر﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدى الليل والنهار

ظاهر الحديث يدل على المنع من سب الدهر لأنه يعود إلى سب خالقه ومصوره وهو الله سبحانه وتعالى والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن هذا صيغته صيغة الخبر ومعناه الزجر والمنع لأنه ممنوع أن يسب عبد مولاه أو مخلوق خالقه أو عابد معبوده فلما كان هذا ممنوعا عقلا وشرعا استغنى بالاخبار

عن النهى والمنع وشبههما ﴿ومنها﴾ هل سب الليل والنهار أعيانهما هو المنهى عنه أو سب ما يجرى فيهما من الحوادث والنوازل كانت على أيدى البشر أو بغير واسطة البشر وهل هذا المنع يتعدى إلى غيرهما من المخلوقات أولا وهل يمنع مايشبهه أو يقارب السب مثل الذم والشؤم وما فى معناهما أولا يمنع إلا السب لاغير وما الحكم فيمن فعل ذلك ﴿أما قولنا﴾ هل الممنوع سب أعيان الليل والنهار أو ما يجرى فيهما من الحوادث فهذا لايخفى على أن من سب الصنعة فقد سب صانعها ولا يكاد هذا يخفى على أحد حتى يأتى على ذلك هذا العتب وإنما الظاهر سب مايجرى فيهما من الحوادث وهذا هو الذى يقع فيه كثير من الناس وهو الذى يعطيه سياق الحديث لقوله ﴿بيدى الليل والنهار﴾ فنفى عنهما أن يكون لهما تأثير فيما يجرى فيهما من الأمور والحوادث، والأمور والحوادث التى تجرى فيهما على نوعين بواسطة الحيوان العاقل المكلف فهذا يضاف شرعا ولغة إلى الذى أجرى على يده وإن كان فى التحقيق بقضاء الله تعالى وقدره لأن أفعال العباد كسبا لهم قد ترتبت عليها الأحكام بالثواب والعقاب بمقتضى الحكمة الالهية وهى فى الانشاء والاختراع خلق الله سبحانه لاخالق إلا هو سبحانه وتعالى علوا كبيرا وما جرى فيهما بغير واسطة أحد من خلقه فذلك منسوب إلى قدرة القادر ليس لليل والنهار فى ذلك فعل ولا تأثير لاعقلا ولا لغة ولا شرعا وهو المعنى فى الحديث والله أعلم وكذلك أيضا كل ما كان صادرا عن الحيوان غير العاقل فهو مضاف إلى القدرة إذا لم يكن ذلك بتسبب العاقل المكلف ولذلك جعل الشارع عليه الصلاة والسلام جرحها جبارا أى ليس فيه أرش ولا قود ولادية وكذلك الحكم فى الجمادات كلما يكون منها ينسب إلى القدرة أيضا مثل حائط تقع على أحد أو جبل ينهد عليه أو ثمرة تضر به أو تسقط عليه أو مايغرق فيه أو مايشبه هذه كلها منسوبة إلى القدرة والسبب لها سبب لصورها وظهرت بقدرته ﴿وفيه دليل﴾ على نفى الأفعال عن غير العاقل المكلف من جماد وحيوان غير عاقل فسبحان من أظهر قدرته أين شاء بلاحجاب عليها وحجبها حيث شاء برداء حكمته فجاءت الحكمة شاهدة للقدرة والقدرة شاهدة للحكمة (حكمة بالغة فما تغنى النذر) ﴿وأما قولنا﴾ هل يتعدى المنع إلى سب غيرهما فاعلم أن كل حكم كان منوطا بعلة فحيث وجدت العلة فالحكم ثابت لازم فلما علل سبحانه منع سب الدهر بأنه سب له عز وجل لكونه بيده تعالى عن الجارحة والتحديد وإنما اليد هنا كناية عن يد القدرة كقوله تعالى (خلقت بيدى) أى بقدرتى فحيث وجدنا هذه العلة منعنا ويكون ذكر الدهر هنا الذى هو الليل والنهار من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى لأن الليل والنهار من أعظم الآيات والمخلوقات الدالة على تحقيق الربوبية ولذلك أشار عز وجل فى كتابه العزيز إلى النظر فيهما بقوله (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) ويكون النظر فى ذلك على التقسيم المتقدم وهو هل تجرى تلك الأمور على يد مكلف أولا فان كانت على يد مكلف فيكون الانكار أو الزجر

أو البغض أو غير ذلك امتثالا للأمر لا غير بقدر ما جعل لك فى ذلك دون زيادة فيه فتكون متعديا ولا ينقص منه فتكون غير مرف لما به أمرت حكما عدلا وما فهم هذا المعنى إلا أهل التوفيق لأنهم يقولون كل ما فى الوجود حسن جميل إلا ما ذمه الشرع ذممناه حكما وامتثالا وقد ذكر عن بعض الناس أنه رآه بعض إخوانه مكروبا فقال له فى ذلك فقال إنه دخل على فى معبدى هذا قوم مباركون من الأبدال مرارا فرغبت منهم فى بعضها عساهم يحملونى معهم وكانوا يأتونى بخرق العادة من أرض بعيدة فحملونى معهم فوصلونى فى لحظة قريبة وكانوا فى غار فى جبل على البحر الكبير فلما كان إحدى الليالى جاءت ريح شديدة وظلام شديد وهول فى البحر شديد فخرجوا من الغار وخرجت معهم وأخذوا فى التقديس والتسبيح والتعظيم لله سبحانه فحملنى الجهل بأن قلت هذا هول عظيم فالتفتوا إلى وقالوا تعترض على الله لا يصحبنا قليل الأدب ثم التفت الشيخ منهم وقال لبعضهم اجعله فى مكانه الذى أخذناه منه وأخذ بيدى شيأ يسيرا وإذا أنا فى موضعى ولم أره ولا واحدا منهم بعد ذلك فكيف لا أحزن على طردى ثم على قلة أدبى وا أسفا على جهلى وا أسفا على بعدى فلم يزل باكيا أو كما جرى هكذا تكون الحرمة عند المباركين احترموا فاحترموا واستحسنوا فاستحسنوا آثروه بالبر والاكبار فآثرهم على غيرهم بالترفيع والاعظام وعامله بالرافى والاحسان ﴿وأما قولنا﴾ هل يمنع ما فى معنى السب أو ما يقرب منه مثل تعييب الأمور والكراهية أو ما يشبه ذلك فاعلم وفقنا الله وإياك أن ما قرب من الشىء يعطى حكمه وإن لم يكن فى الحقيقة مثله لأن ما هو فى معنى السب إما أن نقول هو مثله فيمنع وإما أن يكون أقل درجة منه وأقل ما يكون فيه قلة الأدب لأنك تذم شيئا لا تعرف ما فيه من الحكمة والاتقان بغير دليل ولا اعتبار اللهم إلا إن كان ذلك كما تقدم بدليل شرعى فهو على ما تقدم الكلام عليه ولذلك لم يأت عن سيدنا صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الأنبياء عليهم السلام أن أحدا منهم عاب شيئا من خلق الله تعالى إلا ما أمر به من طريق الأمر فمن خالف سنن الرسل عليهم الصلاة والسلام ووقع فى شىء من خلق الله أقل درجاته أنه وقع فيما فيه قلة الأدب كيف يستحسن حاله أو تحسن منه حال ﴿وفى هذا الحديث دليل﴾ لأهل السنة رضى الله عنهم لأنهم يقولون إن العقل لا يحسن ولا يقبح وإنما التحسين والتقبيح للشرع لا غير ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكم على من فعل ذلك فهذه مسألة اجتهادية لأنه لم يجىء عن الشارع عليه السلام فى ذلك شىء فان قلنا إن حكمه حكم السب الصريح فالخلاف فيه معلوم وما أظنه يكون مثله إلا ممن يعلم ما جاء فى ذلك ثم يقصد الذم بعد العلم فكأنه ما أراد إلا الصريح منه فينبغى أدبه ولا يؤول الحكم فيه إلى العقل لأن السب الصريح الأظهر فيه من الخلاف الذى بين العلماء الأدب فكيف بهذا الذى هو دونه وإن صدر ذلك من جاهل يعنف بالقول الشديد ويبين له قدر ما وقع

فيه خلاف ويقال له إن عدت إلى مثل هذا أدبت الأدب الوجيع ويغلظ له فى ذلك ولا يعذر فى ثانى مرة إن وقعت منه ويؤدب والله الموفق للصواب ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن مجموع الليل والنهار يسمى دهرا شرعا يؤخذ ذلك من ذكره الدهر ثم فسره بقوله (بيدى الليل والنهار) ﴿ وفيه دليل ﴾ لمذهب مالك رحمه الله فى منعه الربا المعنوى يؤخذ ذلك من أنه لما كان سب الدهر يؤول إلى سب المولى سبحانه جعله سببا له فجعل ما يعود بالمآل كالذى هو حاضر فى الوقت ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل السنة الذين يقولون إن الصفة لا تفارق الموصوف يؤخذ ذلك من أنه لما كانت الأمور صادرة عن صفة قدرته عز وجل جعل ذلك صادرا عن ذاته الجليلة بقوله سبحانه بيدى الليل والنهار ﴿ وفيه تنبيه ﴾ لمن له همة أن لا يتكلم بما لا يعرف ما معناه وكذلك فى الأفعال لا يفعل شيئا حتى يعلم هل ذلك مما ليس عليه فيه درك أم لا ومما يقوى ذلك وصية الخضر لموسى عليهما السلام حين افترقا وطلب موسى منه الوصية فقال له فى جملة وصيته (يا موسى لا تفتح بابا لا تدرى ما غلقه ولا تغلق بابا لا تدرى ما فتحه) فيا هذا إذا تأملت مثل هذه الأمور وأدلة الشرع وجدت الدين من شيئين ويدور على قاعدتين الامتثال والأدب فمن امتثل فقد وفى ما به أمر ومن تأدب فقد نجا مما عنه نهى وله كره وفقنا الله وإياك لذلك الامتثال والأدب بمنه

(٢٥٠) ﴿ حديث الكرم قلب المؤمن ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَقُولُونَ الْكَرْمَ إِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ

ظاهر الحديث يدل على ان حقيقة تسمية الكرم إنما هى لقلب المؤمن وأنه فى غيره مجاز والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن فيه دليلا لمن يقول أن اللغة اصطلاحية يؤخذ ذلك من أنهم كانوا عربا وكانوا يكنون عن ثمرة العنب بالكرمة فمنع صلى الله عليه وسلم من ذلك بقوله ﴿ إنما الكرم قلب المؤمن ﴾ وقد جاء من طريق آخر ولكن قولوا حديقة العنب ﴿ وفيه بحث ﴾ وهو لم خص قلب المؤمن بهذا الاسم فان قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا لحكمة فما هى فنقول والله أعلم لما كان اشتقاقه من الكرم والأرض الكريمة هى أحسن الأرض وهذه الصفة حيث ما وجدت فهى من أحسن الصفات فلا يليق إلا أن يعبر بها عن قلب المؤمن الذى هو خير الأشياء لأن المؤمن هو خير البرية على أحد الوجوه وخير ما فى المؤمن قلبه لأنه قد قال ﷺ « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » وكيف لا يكون كذلك وهى أرض لنبات ثمرة الايمان التى قد قال مولانا سبحانه (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها) ﴿ ويترتب عليه فيها من الفقه ﴾ أن كل خبر كان لفظا أو معنى أو مشتقا منه أو مسمى به إنما تكون إضافته الحقيقية إلى الايمان وأهله وهو فيما عدا ذلك مجاز وفى الكرمة أيضا شبه

من المؤمن لأنها لينة قريبة الجنى حلوة المذاق وتغنى عن الطعام لأكلها وتغنى عن الماء لمن استعملها ﴿ وفيها تنبيه لطيف ﴾ لأن أوصاف الشيطان تجرى معها كما يجرى الشيطان فى بنى آدم مجرى الدم فكما أن غفلة المؤمن عن شيطانه أوقعته فى المخالفة وألبسته ثوب البعد والحرمان كذلك إن غفل عن عصير الكرمة ظهرت تلك الأوصاف فيها وألبستها ثوب التخمير والتنجيس وهو الخمر المتفق عليه من جميع العلماء على تحريمه بلا خلاف ويقوى الشبه بينهما من أجل أن الخمر من ساعته يعود خلا فكساه ثوب التخليل فكذلك المؤمن من ساعته بالتوبة النصوح عادت له طهارته الأصلية ورياشته الجميلة وجبت توبته ما كان قبلها من البعد والحرمان وأذهبت الآثام والأثقال وكما أيضا تكون توبة المؤمن بمعالجة من وعظ أو تذكار أو تكون بغيض لا يتقدمه علاج فكذلك العصير إذا تخمر قد يكون تخلله بمعالجة وقد يكون دفعة من غير علاج فهل نظرت يامسكين إلى عصير كرم قلبك فتعالج تخميره لعله يعود خلا ولا تغفل عنه فيذهب بجميع عقلك فتلحق بالهالكين ﴿ وفيه دليل ﴾ على كثرة حياء سيدنا صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من قوله ويقولون ﴿ بلفظة الغيبة ﴾ ولم يقل لهم تقولون فانه يكون فيه الخجل لهم وكذلك كانت عادته المباركة إذا قيل له عن أحد شيء فانه كان لا يسميه باسمه ولا يقول له يافلان لم قلت كذا وكذا إلا أنه كان قوله (ومابال رجال) يقولون كذا أو يفعلون كذا ﴿ ويترتب عليه من الفقه ﴾ إن أهل الفضل أولى الناس بالأدب ومكارم الأخلاق وقد نص صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه مالك قال بعض الناس فان كنت ذا همة فتحمل بمكارم الأخلاق والشيم واملأ عطفيك تبختراً بهما فقد أصبت سنة خير الأمم

(٢٥١) ﴿ حديث إباحة التسمي وتحريم الكذب عليه ﷺ ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ عَلَى صُورَتِي وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام أحدها إباحته صلى الله عليه وسلم التسمية باسمه والمنع من أن يكنى بكنيته والثانى اخباره صلى الله عليه وسلم بأنه من رآه فى النوم فقد رآه حقا فان الشيطان لا يتمثل فى صورته والثالث من كذب عليه صلى الله عليه وسلم متعمدا فليتبوأ مقعده من النار والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ هل قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى ﴾ هل ذلك تعبد أو [illegible]

العلماء فى ذلك فمنهم من حمل الحديث على ظاهره مطلقا ومنع أن يكنى بكنيته أصلا ومنهم من عمل وقال إنما أراد أن لا يجمع فى شخص واحد بين اسمه صلى الله عليه وسلم وكنيته وهذا خروج عن ظاهر الحديث ومنهم من عمل وقال إن علة ذلك أنه كان صلى الله عليه وسلم ماشيا وشخص ينادى خلفه يا أبا القاسم فالتفت إليه صلى الله عليه وسلم فقال له الشخص لم أعنك وإنما عنيت هذا وأشار إلى شخص غيره فقال هو صلى الله عليه وسلم إذ ذاك ﴿سموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى﴾ أو كما ورد ﴿فاذا قلنا﴾ أن هذا كان سببا لمنعه عليه السلام أن يكنى بكنيته فهل يقصر ذلك النهى على العلة فيرتفع بارتفاعها وهى نقلته صلى الله عليه وسلم أو يبقى النهى على عمومه وإن ذهبت العلة موضع خلاف ويحتمل عندى علة أخرى والله أعلم وهى أن العرب كانت كناهم بأسمائهم وكانت من أسماء نبيه صلى الله عليه وسلم فلعله عند ذكر الشخص أبا القاسم تحركت عنده من ابنه شىء كان يشغله عما كان بسبيله فمنع صلى الله عليه وسلم من ذلك كما فعل بعلم الثوب فى الصلاة حين نظر اليه فلما فرغ من صلاته قال (ردوه إلى أبى جهم فانى نظرت إلى علمه فى الصلاة فكاد يفتننى) ﴿ويترتب على هذا الوجه من الفقه﴾ قطع كلما يتوقع منه شىء من التشويش والمحافظة على خلو القلب بالاشتغال بما هو إليه مندوب وما هو عليه واجب ﴿وإن قلنا﴾ أن علة المنع ما ذكرنا أولا من كونه صلى الله عليه وسلم التفت إلى الذى نادى يا أبا القاسم فقال لم أعنك فيكون نهيه عليه الصلاة والسلام عن ذلك فى حق أمته لأنه من أعرض هو ﷺ عنه فان الله يعرض عنه لأن الله عز وجل يقول (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وكذلك من أعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أعرض الله عنه فيكون هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام حين لقيه بعض الصحابة ليلا ومعه عليه الصلاة والسلام إحدى أزواجه (١) فقال له إنها فلانة وعلل ذلك عليه الصلاة والسلام بان قال « خفت أن ينزغ الشيطان فى قلبك شيئا » او كما ورد فكان ذلك لرفقه صلى الله عليه وسلم بأمته فحيث ما يخاف عليهم شيئا ما يتوقعه يحذرهم عنه وحيث علم لهم شيئا من الخير أرشدهم إليه فجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيا عن أمته وحشرنا فى زمرته غير خزايا ولا ندامى بفضله فانه ولى حميد ﴿وأما إباحته﴾ صلى الله عليه وسلم لهم التسمية باسمه عليه الصلاة والسلام فذلك لما جاء فيه من الخير لأنه قد جاء أن من اسمه محمد لا يخلو عن خير وقد ذكر أنه إذا نودى يوم القيامة باسمه يا محمد فمن سمعه ورفع له رأسه أفلح وسعد وجاءت فيه مما يشبه هذا آثار كثيرة وقد رأيت بعض المباركين وكان عنده شىء من اسان العلم وكان له جملة أولاد وكلهم سماهم محمدا وما فرق بينهم إلا بالكنى لما سمع من الخير الذى جاء فى هذا الاسم المبارك ولمن سمى به ابنه ولذلك ما رأيته وإياهم إلا فى خير عظيم وكان فقيرا وكانت له عائلة كثيرة من غير أن يقصد أحدا أو يخرج عما كان به مشتغلا عما كان يعنيه من دينه والأولى فى هذه الوجوه حمله على ظاهره فانه أبرأ للذمة وأعظم

(١) هى صفية بنت حيى رضى الله تعالى عنها كما رواه المصنف فى أبواب الاعتكاف

للحرمة والله المرشد للصواب وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿من رآني في المنام فقد رآني حقا فان الشيطان لا يتمثل على صورتي﴾ فقد اختلف العلماء في هذا فمنهم من قال إن الصورة التي لا يتمثل الشيطان عليها هي الصفة التي توفي صلى الله عليه وسلم عليها حتى قالوا وتكون في لحيته عدة تلك الشعرات البيض التي كانت فيها وقال بعضهم وحتى تكون رؤياه له في دار الخيزران وهذا تحكم على عموم الحديث وتضييق للرحمة الواسعة ومنهم من قال إن الشيطان لا يتصور على صورته عليه الصلاة والسلام أصلا جملة كافية فمن رآه في صورة حسنة فذلك حسن في دين الرائي ومن رآه على صورة غير حسنة فرؤياه صلى الله عليه وسلم حق وذلك القبح في دين الرائي وإن كان في جارحة من جوارحه شيء فتلك الجارحة من الرائي فيها خلل من جهة الدين وهذا هو الحق وقد جرب هذا فوجد على هذا الأسلوب سواء بسواء لم ينكسر وبهذا تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه عليه الصلاة والسلام حتى يتبين للرائي هل عنده خلل في دينه أو لا لأنه صلى الله عليه وسلم نوري فهو مثل المرآة الصقيلة ما كان في الناظر إليها من حسن أو غيره تصور فيها وهي في ذاتها على أحسن حال لا نقص فيها ولا شين وكذلك ذكروا في كلامه عليه الصلاة والسلام في النوم أنه يعرض على سنته عليه الصلاة والسلام فما وافقها فما سمعه الرائي فهو حق وما خالفها فالخلل في سمع الرائي فانه صلى الله عليه وسلم ﴿ما ينطق عن الهوى * ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ فتكون رؤيا الذات المباركة حقا ويكون الخلل قد وقع في سمع الرائي وهو الحق الذي لا شك فيه ﴿تنبيه﴾ وهل تحمل الخواطر التي تخطر لأرباب القلوب بتمثيله صلى الله عليه وسلم في بعض الخاطبات التي يخاطبون على لسانه عليه الصلاة والسلام وتشكل صورته المباركة في عالم أسرارهم في بعض المحضرات والمحادثات التي من عادة طريقهم المباركة على أنها مثل رؤيا المنام فتكون حقا أم لا فاعلم وفقنا الله وإياك أن خواطر أرباب القلوب حق بحسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية وأنها أصدق من مرائي غيرهم لما من عليهم من تنويرها وبركتها دون إشارة من قبله صلى الله عليه وسلم رؤياه صلى الله عليه وسلم من مبارك وغيره حق فكيف بهما إذا اجتمعا فذلك تأكيد في صدقها وقد بينا الدليل على تصديق خواطر الرجال من الكتاب والسنة في غير ما موضع من الكتاب فاذا اجتمع ما ذكرنا من تشكل صورته المباركة أو كلامه المبارك لأولئك المباركين وقد اجتمع على تصديق ذلك أدلة الكتاب والسنة وكفى في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إن الشيطان لا يتمثل بصورتي» لأنه لفظ عام ولأجل حمل العام على عمومه وما نفاه عليه الصلاة والسلام من طريق الباطل الذي هو طريق الشيطان وتخيلاته لم يبق إلا أن يكون حقا قطعا لكن بالشرط المتقدم وهو أن تعرض على كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام فما وافق أمضي وإلا فلا وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿فليتبوأ مقعده من النار﴾ أي فلينزل

مقعده من النار لأن التبوء هو النزول لقوله عز وجل (وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) أى جعلناه له منزلا ﴿وهنا بحث﴾ وهو أنه قد علم بأدلة الشرع أن الكذب من الكبائر وقد جاء فيه من الوعيد العظيم ما تقدم ذكره فى الأحاديث قبل فهل لاخباره صلى الله عليه وسلم هنا عن الكذب علة خصوصا بهذه الصيغة زيادة فائدة أو إنما أخبر أن الكذب عليه صلى الله عليه وسلم من جملة الكذب المحرم الذى لا يمكن فيه التأويل ولا يقبل التعليل ولا التوجيه لما تقدم الكلام على الكذب فى الأحاديث قبل ووجهنا ما قال فيه العلماء فاذا هو على خمسة وجوه كما هو مذكور هناك فيكون الكذب عليه صلى الله عليه وسلم من أحد الأقسام الخمسة وهذا القسم الذى هو منها محرم بالنص والاجماع ولا يدخل فيه ذلك التقسيم بالجملة الكافية وأن صاحبه يعذب العذاب الأليم واحتمل أن يكون بمنزلة هذا النوع المذكور وزيادة ﴿فائدة أخرى﴾ وهى أن الذى يكذب عليه صلى الله عليه وسلم متعمدا لابد له من دخول النار بخلاف غيره من الكذابين فقد يأتى الله بمن يشفع فيه وقد يتوب أو قد يتداركه الله تعالى بنوع من أنواع الرحمة يؤخذ ذلك من قوة قوله عليه الصلاة والسلام فليتبوأ فكأنه عليه الصلاة والسلام يقول فليقعد مقعده من النار فلا محيص له منها وبهذا تظهر الفائدة فى الفرق بين الكذب عليه صلى الله عليه وسلم من الكذب على غيره والله أعلم ومن جهة التعليل يقوى هذا التوجيه لأن الكذب عليه صلى الله عليه وسلم يقع به الخلل فى الدين وتغيير الأحكام وهذا كفر عند بعضهم وإن لم يستحله ومن كفر فلا محيص له من النار بخلاف غيره من الكبائر والآثام فان صاحبها فى المشيئة ﴿وبقى بحث﴾ فى توبته هل تصح أم لا فهى والله أعلم على ضربين لا يخلو أما كذب به عليه صلى الله عليه وسلم أن يكون قد ترتبت عليه أحكام أولا فان كان ترتبت عليه احكام فهل يمكنه ردها وقطع تلك المادة بالجملة الكافية أولا يمكنه ذلك فان لم يترتب عليه أحكام وترتبت عليه وقدر على قطع تلك المادة الفاسدة بالجملة الكافية وفعل ذلك وصدق مع الله تعالى فى توبته رجيت له لعموم قوله صلى الله عليه وسلم « التوبة تجب ما قبلها » وإن كان لا يمكنه تلافى ذلك خيف عليه من عدم القبول لنقص شروط التوبة فان من شروطها رد المظالم لأن أولئك المساكين الذين بلغت لهم تلك الاحكام الفاسدة وعملوا عليها فقد ظلمهم ظلما كثيرا وقد جاء أن مولانا سبحانه يقول يوم القيامة لصاحب البدعة (هب أغفر لك فيما بينى وبينك فالذين أضللت كيف أفعل بهم) أو كما ورد معناه أى لا أترك لك حقوقهم وآخذك بها فاذا كان هـــذا لصاحب البدعة فكيف بمن كذب عليه صلى الله عليه وسلم وغير بذلك أحكام شريعته من باب أحرى وأولى ومن هذا الباب وصية بعض أهل التحقيق « إتضع لا ترتفع إتبع ولا تبتدع من تورع لم يتسع » ومما يشبهه وصية الآخر بقوله « عليك بالسنة والسنن تفز بالأجر وغنيمة الدارين » من الله علينا بذلك بمنه آمين

(٢٥٢) ﴿ حديث النهى عن التسمى بملك الملوك ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْنَعُ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ

ظاهر الحديث يدل على أن أخس الاسماء وأرذلها عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ هل هذا التحقير الاسم يلحق منه للذى يسمى به شيء خلاف هذا أم لا ومنها هل هذا لعلة أو لغير علة فان كان لعلة فهل نطرد الحكم حيث وجدنا العلة أولا وما الحكمة فى قوله «يوم القيامة» ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يلحق للمسمى بهذا الاسم زيادة على تحقير الاسم أولا نقول إنما جعل ترفيع الأسماء يوم القيامة للدلالة على ترفيع أهلها وما لهم فى ذلك اليوم من الخير والسرور وكذلك ضده دال على ضده لأن ذلك يوم حق ليس فيه مجاز ، لا تلبيس ﴿ وأما قولنا ﴾ هل ذلك لعلة أولا فان قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا لعلة فهى فنقول والله أعلم لتشبهه باسم من (ليس كمثله شيء) لأن هذا الاسم لا يكون حقيقة إلا لله سبحانه وتعالى فان كانت العلة ما ذكرنا فيجوز تعدى الحكم مثل أن يتسمى بسلطان السلاطين وكذلك قاضى القضاة وإن كانت العلة بهذا الاسم أعنى قاضى القضاة وقد تقدمت بسنين لاسيما فى جهة المشرق وقد ذكر عن الثورى من أهل التحقيق أنه جاء يزوره من كان يتسمى بهذا الاسم فى زمانه فلما دخل عليه قال له بعض من جاء معه هذا قاضى القضاة وكان معهم قاعدا منبسطا فلما سمع كلامه قام دهشانا مسرعا وهو يقول هذا قاضى القضاة فهذا يوم الفصل والقضا فأين الميزان فأين الصراط وجعل يعدد من أحوال يوم القيامة ماشاء الله تعالى فحصل من كلامه فى النفوس حال عجيب وقد حدثنى بعض من لقيته من السادة أن دولة الموحدين وكانت دار مملكتهم فى غرب العدوة مراكش أن القاضى الذى كان يتولى بها كان يدعى بقاضى الجماعة لأن الفقهاء إذ ذاك كانوا هنالك متوافرين وكان الغالب عليهم الدين فلم يأخذوا من الأسماء وجميع الأشياء إلا الذى ليس فيه شيء من المكروه ولا يحتاجون فيه إلى شيء من التأويل وهذه طريقة السلف رضى الله عنهم ولم يسمع هذا الاسم فى السلف الصالح أيضا فنعوذ بالله من قلة الاهتمام بأمور الدين والتهاون به ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى قوله يوم القيامة لأنه يوم تظهر فيه الأمور على ماهى عليه حقيقة ليس فيها زغل ولا عناد ولا تجاوز ولا مجاز إلا حقائق ظاهرة وهذه الدار فيها التلوينات والاختلاطات وقد يكون ظاهر الأمر يوافق باطنه والضد وفى تلك الأعمال على إبراز الضمائر وتحقيق الحقائق (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت) ﴿ وفيه تنبيه ﴾ على أن الأدب فى الدين مطلوب جدا يؤخذ ذلك من كونه لما تسمى هذا المسكين بهذا الاسم وهو محتمل إن أراد مالك ملوك الأرض

وكان ذلك ملكا له واحتمل أن يسم به اختيارا مثل مايتسمى بعض نساء العرب وغيرهن فى الوقت وقيل هذا الوقت سنة العرب والناس أجمعين يعلمون أن ذلك ليس بحقيقة وكما يسمى بعض الناس بسيد الناس وهذا مقطوع أيضا أنه ليس كذلك وهذا الاسم أيضا يدخله المنع بالتعليل المتقدم وما هو فى معناه لأن العلة فيه موجودة لكن غفلات توالت وعوائد سوء اتخذت راح الأمر عليها على ما قدر له بما قدر واحتمل أن يكون يسمى بذلك تمردا وتجبرا لكن ليس فى الحديث ما يدل على واحد من هذه خصوصا فالكل محتمل والمحتمل ينبغى أن يبقى كل محتملاته لا سيما فى مواضع الخوف لكن صيغة اللفظ فى الحديث العموم لأنه قال ﴿ تسمى ﴾ فيكون معناه تسمى بهذا الاسم على أى وجه وقع هذا الاسم فصاحبه بتلك الحالة الذميمة والمخزاة العظيمة فبهذا يزداد الحض على طلب الأدب فى الدين ﴿ وفيه إرشاد ﴾ إلى علم السنة وإشاره على غيره لأن هذا وأمثاله وهى مواضع عديدة وقد نبهنا عليها فى مواضع من الكتاب لاتعلم إلا من طريق علم السنة والاهتمام به وقد غفل عن ذلك كثير من الناس وأوقعهم ذلك فى المهالك وهم لا يعلمون ويكون حالهم كما أخبر تعالى فى كتابه (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) فمنهم من جهله جملة واحدة ومنهم من اشتغل به وكان عليه به لأثرة غيره عليه ويجعل ذلك نبلا وكيسا وهو غى وحرمان أعاذنا الله من ذلك بمنه ولذلك كانت وصية من لقيته من أهل التوفيق بالعلم والسنة أن يقول الرجل يكون محاسبا مراقبا فكنت أقول ما معنى قولكم محاسبا مراقبا فكان جوابه على ذلك أن يكون محاسبا يحاسب نفسه فى هذه الدار لقوله صلى الله عليه وسلم « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » فان رأى على نفسه دركا أخذ فى خلاصها ومراقبا يجعل قلبه أمام رأيه فان خطر له قول أو فعل نظره بلسان العلم فان كان جائزا فعل أو قال وإن كان ممنوعا أو مكروها أمسك لأن ترك الذنب أولى من طلب المغفرة وإلا كان كتاجر ينفق ولا يعلم فيصبح وقد أفلس وإن لم يعرف ذلك الذى خطر له من أى الوجوه هو توقف حتى يسأل أهل العلم الذين هم على السنة واتباع السنن فان المؤمن وقاف جعلنا الله من المؤمنين حقا الملطوف بهم بمنه لارب سواه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(٢٥٣) ﴿ حديث من السنة تشميت العاطس بعد حمده ﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ عَطَسَ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الْآخَرَ فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللهِ شَمَّتَّ هَذَا وَلَمْ تُشَمِّتْنِي قَالَ إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللهَ وَأَنْتَ لَمْ تَحْمَدْ

ظاهر الحديث يدل على أن السنة أنه لايشمت العاطس حتى يحمد الله تعالى ومن عطس ولم يحمد الله تعالى فلا يشمت والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل التشميت للعاطس واجب أو مندوب ومنها كيف صفة التشميت وما معناه ومنها هل هذا مطلق في كل مرة وإن تكرر هذا من العاطس مرارا أو له حد محدود ومنها هل هذا لكل عاطس كان مؤمنا أو كافرا أو هذا خاص بالمؤمن ﴿ أما قولنا ﴾ هل هو على الوجوب أو الندب فقد اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال فمنهم من يقول إنه فرض على كل من سمعه وهم أهل الظاهر ومن علمائنا من وافقهم على ذلك ومنهم من قال هو ندب وإرشاد ومنهم من قال هو واجب على الكفاية كرد السلام وهم جمهور أهل السنة ﴿ وأما قولنا ﴾ كيف صفة التشميت فقد جاءت صفته نقلا عن النبي صلى الله عليه وسلم لأنه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله وإذا قال الحمد لله فليقل له يرحمك الله ويرد عليه يغفر الله لنا ولكم » أو كما قال عليه الصلاة والسلام وفي رواية يرد عليه (بقوله) يهديكم الله ويصلح بالكم ومنهم من قال هو بالخيار لأن اللفظين قد رويا عن النبي صلى الله عليه وسلم فأيهما رد فقد وافق السنة ومنهم من استحب أن يجمع بينهما حتى يكون أجمع للخير وخروجا عن الخلاف وهو الأحسن والله أعلم وقد جاء بدل التشميت بالسين المهملة ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى التشميت فهو بمعنى أبعد الله عنك الشماتة وجنبك ما يشمت به عليك وما معنى التسميت فهو بمعنى جعلك الله على سمت حسن هذا قول أئمتنا ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا مطلق في كل مرة وإن تكرر العطاس من العاطس في الوقت مرارا فالذي عليه الجمهور أنه لا يخرج عن الثلاثة أو الرابعة لأنه جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا عطس فشمتوه ثم إن عطس فشمتوه ثم إن عطس فشمتوه ثم إن عطس فقولوا له عافاك الله فإنه مضنوك » أو كما قال عليه الصلاة والسلام قال راوي الحديث لا أدري بعد الثالثة أو بعد الرابعة قال فإنه مضنوك » فمن أجل الشك الذي روي عن راوي الحديث وقع الخلاف ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا أمر عام كان العاطس مؤمنا أو كافرا أو هو المؤمن لا غير لا أعرف خلافا أن التشميت عام للمؤمن والكافر غير أن في الكيفية في ذلك وقعت التفرقة بين المؤمن والكافر لأن الكيفية في تشميت المؤمن كما تقدم الكلام عليها وأما الكافر فإنه يقال له (يهديكم الله ويصلح بالكم) وهذه الصفة التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم في تشميته أهل الكتاب لأن اليهود كانوا يستعملون العطاس بين يديه صلى الله عليه وسلم رجاء في دعائه وتشميته (يهديكم الله ويصلح بالكم) وبقي الخلاف بين العلماء إذا عطس العاطس فحمد الله فسمعه بعض الحاضرين ولم يسمعه الغير هل يجب على من لم يسمعه حين حمد الله وقد سمع الذي شمته هنا يشمته هو أيضا لذلك أم لا قولان وفيه دليل ﴾ على جواز طلب المعقول من الفاضل عنه الحكم وبيانها يؤخذ ذلك من قوله « يا رسول الله شمت هذا ولم تشمتني » ﴿ وفيه بحث ﴾ وهو ما الحكمة بأن جعل في العطاس هذه الأحكام المذكورة فإن قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا الحكمة

فما هى فاعلم أنه لم يختلف أحد ممن له معرفة بطب الأبدان وأدوائها أن العطاس فيه منفعة للعاطس وأنه إذهاب داء قد يكون فى رأسه فعلى هذا هو من جملة النعم وقد تقرر فى قواعد الشرع أنه مما استعبدنا به الشكر على النعم وأعلا الشكر هو الحمد فأمرنا بذلك فأتتجت بالعود الجميل مزيد النعماء وهو الدعاء بالخير أثر الحمد لأن الله عز وجل يقول فى كتابه (لئن شكرتم لأزيدنكم) فتأكدت النعمة بمزيد الدعاء له من السامعين لعطسه ثم تأكدت الرحمة بالدعاء من العاطس لأخيه الذى شمته ولنفسه إن شاء الله ﴿ وفيه تنبيه ﴾ يدل على لطف المولى سبحانه بعبيده وهو أن جعل المزيد هنا بعد الحمد واجبا مشروعا ولم يترك ذلك لاختيار أحد من عباده ولا غيبا عنا حتى لا نعلم هل قبل منا فنزيد لنا ولا ماهى الزيادة أيضا حتى يحصل العلم بها ولا ماهو قدر الزيادة ولا ماهو جنسها فشرعت لنا تلك الألفاظ الدالة على الخير العميم لمن فهم معانيها وتدبرها لأنه إذا قلنا إن التشميت واجب كما تقدم وهو الذى عليه الجمهور فاذا فعل المكلف الواجب الذى عليه بشروطه رجى له القبول فهذا قد دعى للعاطس بالخير امتثالا لما به أمر فهذا دعاء مرجو قبوله فلما كان الأمر على هذا الخير العظيم أمر العاطس أن يدعو للذى أجرى له على يديه مزيد الخير لدعائه له بالخير وأن يدعو هو أيضا له بالخير حتى تكون رحمته عز وجل عامة بعباده إذ ذاك وكان الرجاء فى قبول الدعاء الثانى مثل الأول سواء ويترتب على هذا من الارشاد أنه إذا شعر أحد من العبيد موطنا يكون فيه خيرا أو رجاء من وجه أن يكثر فيه بالدعاء لنفسه ولوالديه وأقاربه وأصحابه وإخوانه المؤمنين فان لله نفحات إذا وجدت سعد بها عالم كبير جعلنا الله ممن تعرض لها وأصابها وممن أجزل له نصيبه منها بتعرض وبغيره فانه ولى حميد ﴿ وفيه دليل ﴾ على عظيم النعمة على العاطس يؤخذ ذلك مما ترتب عليه من هذه الأحكام والخير فصارت علما على ذلك ﴿ وفيه إشارة ﴾ إلى عظيم فضل الله تعالى ورحمته لأنه عز وجل رحم عبده بأن أذهب عنه ذلك الضرر الذى كان به بنعمة العاطس ثم ثناها بمشروعية الحمد له ثم أتبعها بدعاء خير بعد دعاء خير وهذا كله فى لمحة واحدة نعم متواليات فى أيسر زمان بلا موجب عليه إلا بمجرد الفضل بدء منه وبرحمته سبحانه وكذلك الخير المذكور تمامه منه ﴿ تنبيه ﴾ فى أحكام الحديث وفيما أشرنا إليه من التنبيهات وغير ذلك إذا نظرتها بقلب له بصيرة حصل لك به من قوة الايمان ما لا يحصل بعبادة أيام عديدة ودخل داخل قلبك وحلك ودمك من حب الله تعالى الذى قد أعد لك من هذا الخير العظيم ما لم يكن لك فى ظن ولا علم ومن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان معرفة هذا الخير على يديه ما لا يقدر قدره وكذلك الحب فى علم لله بسنته عليه الصلاة والسلام وزيادة ذرة من هذا خير من قناطير مقنطرة من الأعمال المقبولة بلا خلاف فى ذلك بين أحد من علماء أهل التوفيق ولاتباع السنة والسنن أعاد الله علينا من بركاتهم وجعلنا لأنعمه من الشاكرين بمنه

(٢٥٤) ﴿ حديث التشهد المشروع فى الصلاة ﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَا السَّلَامُ عَلَى اللهِ قَبْلَ عِبَادِهِ السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلِ التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ يَتَخَيَّرُ بَعْدُ مِنَ الْكَلَامِ مَا شَاءَ

ظاهر الحديث يدل على أن هذا التشهد المذكور فى الحديث هو المشروع فى الصلاة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ هل تجزىء خلاف هذه الصيغة أم لا ومنها هل هو سنة أو فرض ومنها الكلام على معانى تلك الألفاظ ﴿ فأما قولنا ﴾ هل تجزىء خلاف هذه الصيغة فاعلم أنه لا يجزىء إلا ما جاء فيها من اختلاف بعض ألفاظها فى بعض الروايات فمنها ماجاء من طريق عائشة رضى الله عنها وهو قولها « التحيات الطيبات الصلوات الزاكيات لله أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين شهدت أن لا إله الله شهدت أن محمد رسول الله » ومنها ماجاء من تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى علمه الناس على المنبر والصحابة رضى الله عنهم متوافرون وهو « التحيات لله الزاكيات لله الطيبات الصلوات لله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » ومنها ماجاء من تشهد ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما والمعنى فى الكل واحد غير أن فى بعض الألفاظ اختلافا وكلها فى الصحيح وبأيها تشهد أجزأ بلا خلاف أعرفه بين أحد من العلماء خلف عن سلف ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هو سنة أو فرض فالجمهور على أنه سنة إلا ماروى عن الشافعى أن الصلاة على النبي ﷺ فيه فرض وأما الكلام على معانى الألفاظ فقوله ﴿ التحيات لله ﴾ جمع تحية والتحية هى السلام فالسلام كله على اختلاف أنواعه وصيغه هو لله تعالى أى مضاف إليه لأن من أسمائه سبحانه السلام فكل ما كان مشتقا من هذا الاسم فهو له ومضاف إليه وقوله ﴿ والصلوات ﴾ هى جمع صلاة وفى اللغة معناها الدعاء والدعاء منه تتابع الرحمة والرحمة منه كدعائه صلى الله عليه وسلم لأبى أوفى حين أتاه ابنه بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبى أوفى وارحمهم » وعطفها على التحيات فاستغنى

بذلك عن إعادة ذكر الله تعالى والصلاة من الله سبحانه وتعالى رحمة لعباده ومن أحدهما عز وجل الرحمن فكل ما كان مشتقا من هذا الاسم فهو له ومضاف إليه قوله ﴿ والطيبات ﴾ جمع طيب والطيب كله على اختلاف وصفه له حل وعلا ومضاف إليه سبحانه وتعالى على التحيات لله فاستغنى بذلك عن إعادة ذكر الله تعالى وهو من فصيح الكلام قوله ﴿ السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ﴾ السلام معناه الأمان وبركاته وخيراته وأمره عليه السلام بالدعاء له هنا ظاهر في حقهم لأن من أكبر القرب إلى الله سبحانه الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم والدعاء له وإن كان هو عليه الصلاة والسلام لما أعطاه الله وفضله غير محتاج إلى دعائنا لكن ذلك رحمة في حقنا ألا ترى إلى ما جاء من الخير إلى من قال في دعائه (١) آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد » هذا أمر قد من الله به عليه حتما لا تبديل فيه فالفائدة في ذلك للذي يدعو به حتى تكون بركته صلى الله عليه وسلم تعود على أمته في كل الأحوال وقوله ﴿ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنه إذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض ﴾ السلام معناه الأمان كما تقدم فكأنه قال ويدعون الأمان لنفسه ولكل عبد صالح في السماء والأرض ومن جعل له الأمان من الله فقد حصل له جميع الخير من الله علينا بذلك بمنه ﴿ وفيه تنبيه ﴾ منه صلى الله عليه وسلم لنا على اتباع طريق الصالحين لأنه إذا كنت منهم فجميع المصلين في كل صلاة يدعون لك بالأمان والخير فذلك خير من أضعاف أضعاف عملك مما لا يعلم قدره إلا الذي من به عليهم ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الملائكة والصالحين من المؤمنين لا يفضل أحدهما الآخر لأن العلماء اختلفوا فيمن أفضل أهل الملائكة أو الصالحين من بني آدم على قولين والنص منه صلى الله عليه وسلم هنا يعطي أن لا تفضيل بينهما لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كما ذكر أول الحديث يسلمون على الله قبل عباده ثم على جبريل وميكائيل ثم على فلان فقال هو صلى الله عليه وسلم عند ما علمهم كيفية التشهد إذا قال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فقد وافق كل عبد صالح في السماء والأرض فجمع فيه بين الملائكة لأنهم سكان السماء وبين بني آدم الصالحين بلا تقديم ولا تفضيل وقوله ﴿ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﴾ ختمه بأرفع الكلام وعماد الدين وهي كلمة الإخلاص وتصديق رسالته صلى الله عليه وسلم ثم أباح لنا الزيادة على ذلك بما هو يناسبه لأن ذلك معروف عند العرب يؤخذ ذلك من قوله ﴿ ثم يتخير بعد من الكلام ما شاء ﴾ نحو ما أتى بنا إليه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أول ما فرضت الصلاة لم يكن التشهد من مشروعيتها لا فرضا ولا سنة يؤخذ ذلك من قول عبد الله ﴿ كنا إذا صلينا مع النبي صلى الله عليه وسلم نقول السلام على الله قبل عباده ﴾ فدل على أنهم بقوا على ذلك زمانا حتى إلى اليوم الذي سمع النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهم عن ذلك وأمرهم بما ذكر بعد وبقي ﴿ هنا بحث ﴾ وهو

---

(١) وأوله (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد حلت له شفاعتي يوم القيامة) رواه البخاري وأصحاب السنن والبيهقي واللفظ له .

أن يقال لهم إن يقولوا ﴿ السلام على الله قبل عباده ﴾ ثم أمرهم أن يقولوا التحيات وهي جمع تحية والتحية هي السلام كما تقدم والانفصال عنه بأن السلام هو الأمان فلما قالوا هم السلام على الله فليس على الله خوف من أحد ولا يقدر أحد على ضره ولا نفعه كما جاء في حديث مسلم وغيره « إن يريد واضري لم يقدروا » وكذلك نفعه سبحانه فنهاهم عن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى منه يطلب الأمان وهو الذي يؤمنا وهو الذي يخوف ومنه الخوف وفيه الرجاء فأمرهم عليه السلام أن يأتوا الأمر على بابه ويطلبوا الأمان منه عز وجل ويعرفوا له سبحانه بأنه هو السلام وهو الذي يعطي السلام وإليه يضاف حقيقة وإن كان يضاف إلى غيره في بعض الأماكن فهو مجاز أو لوجه ما من طريق ما اقتضته الحكمة الربانية فجزاه الله عنا من معلم خيرا ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن ما كان من زيادة ذكر أو دعاء في الصلاة لا يفسدها بوجه ذلك من أن النبي ﷺ لم يأمرهم بإعادة الصلاة التي تقدمت لهم وهم كانوا يذكرون ونفيها ما نهاهم عنه كما في نص الحديث ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه إذا كان القلب متعلقا بفعل خير والمرء في الصلاة أن ذلك لا يفسد صلاته إذا لم يكن يتولى على القلب حتى يخل ببعض أركانها يؤخذ ذلك من أنه لما سمع سيدنا صلى الله عليه وسلم مقالتهم وهو في الصلاة بقي خاطره المكرم متعلقا بمقالتهم لأنه عليه السلام عندما سلم من الصلاة كلمهم كما هو نص الحديث فدل على أن ذلك بقي مستصحبا إلى فراغه عليه السلام من الصلاة فكلمهم فيه فان استولى على القلب المشتغل بتلك الطاعة حتى أخل بركن من أركان الصلاة أعاد الصلاة كما فعل عمر رضي الله عنه حين صلى صلاة الصبح بالصحابة رضوان الله عليهم فلم يقرأ فيها فلما فرغ منها قيل له في ذلك فقال إني جهزت جيشا إلى الشام وأنا في الصلاة وأنزلتهم منازلهم ثم أعاد الصلاة ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أفضل الأعمال تعليم دين الله تعالى يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم لم يفضل أثر الصلاة إلا أن أخذ في تعليمهم ولم يشتغل بتسبيح ولا غيره فدل ذلك على فضيلته وقد جاء أنه « من صلى الفريضة وقعد يعلم الخير نودي في ملكوت السموات عظيما » ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن سيدنا صلى الله عليه وسلم أن يشرع من الأحكام ما يظهر لدون وحي ويلزمنا امتثاله يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام لما علمهم التشهد لم يذكر أن ذلك كان بوحي ولو كان بوحي ذكره كما فعل عليه السلام في غير ما موضع على ما هو منصوص عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ وفيه دليل ﴾ على فضيلة الصحابة رضوان الله عليهم يؤخذ ذلك من أنهم تلقوا هذه الأحكام عنه صلى الله عليه وسلم ونقلوها لنا فهذه منزلة لا يشاركهم فيها أحد وفيه ﴿ نكتة صوفية ﴾ وهو إذا كان جميع الخير والطيب له سبحانه فلم يبق للعبد إلا الفقر دائما واللجأ دائما والاحتياج إليه سبحانه دائما فانظر كيف تقول ذلك في كل صلاتك ثم تدعو عند فراغك بكثير من الأشياء حسا ومعنى وتضيفها إلى نفسك حقيقة (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) فلو جعلت حالك مثل مقالك لكنت من الأبرار لكن كثافة الران فسد به الحال

(٢٥٥) ﴿ حديث أنواع الزنا وما كتب على العبد منه لابد من نفاذه ﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لامحالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تتمنى ذلك وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه

ظاهر الحديث يدل على الاخبار بأن من كتب الله عليه من بني آدم شيأ من الزنا لابد أن يفعله ولو تحرز بما عسى أن يتحرز والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أنه صلى الله عليه وسلم قسم الزنا على قسمين زنا الفرج وهو الزنا الحقيقي وهو الذي يوجب الحد وزنا العين بالنظر واللسان بالكلام وهو الذي يدخل تحت حد اللمم على قول بعض العلماء لأنهم قالوا مادون النكاح فهو اللمم ويستشهدون بقوله تعالى (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم) ومصداق ذلك من الحديث نفسه قوله عليه السلام ﴿ والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ﴾ فاذا كذبه الفرج فلا زنا وبقي فيه ﴿ سؤال ﴾ وهو أن يقال ذكره العين واللسان هل ذلك الزنا مقصور على هاتين الجارحتين أو ذكرهاتين الجارحتين من باب ذكر التنبيه بالأعلى على الأدنى الظاهر أنه من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى لأن لكل جارحة زنا وهو خروجها في تصرفها عما شرع لها فان اليد لما لمست مالم يجز لها فقد زنت وكذلك الأذن إذا سمعت مالايجوز لها فقد زنت وكذلك الأنف إذا شم مالايجوز فقد زنا وكذلك الرجل إذا مشت إلى مالايجوز لها فقد زنت وكذا جميع الحواس زنا كل جارحة بحسب خروجها عما شرع لها لكن لاتخلو كل جارحة من الجوارح أن يكون خروجها عما شرع لها مما هو من أسباب النكاح وأدواته أو من غير ذلك فان كان مما هو من أسباب النكاح وأدواته فهو الذي يكون الفرج يصدقه أو يكذبه وهو الذي أشار إليه سيدنا صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي نحن بسبيله وإن كان خروجها عما شرع لها لايمكن أن تكون تلك المخالفة إلا منها وهي التي تحققها إن كانت لها مشاركة مع غيرها من الجوارح فيها أو تكذبها فليس من هذا الحديث الذي نحن بسبيله ولها حكمها منصوص عليه في موضعه مثال ذلك الغيبة التي هي مختصة باللسان وهي من الكبائر بلاخلاف لقوله صلى الله عليه وسلم «الزنا إثنان وسبعون بابا أدناه مثل أن يطأ الرجل أمه وان أربى الربى استطالة لسان المسلم في عرض أخيه» فمن وقع في الغيبة بلسانه فقد تحقق عليه إثم الغيبة ولا يحتاج في ذلك لجارحة أخرى تصدقه أو تكذبه وعلى هذا النوع فانظر جارحة جارحة تجد القاعدة مطردة والحكم فيها واحد وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أدرك ذلك لامحالة ﴾ لايختص هذا بالزنا وحده بل كذلك حكم الله في جميع أنواع الخير والشر من كتب له من

أحد الوجهين شيئا واجبا فلا بد له منه لا يرده عنه راد لأنه قد نص العلماء على أن ماقدر على العبد على ضربين قدر قدر وقدر أن يرده وحمله ما من الوجوه فذلك الذى ينفع أثر الحكمة فيه وهى التسبب فى دفعه وماقدر له أو عليه حتما فذلك لا يرده شيء من الأشياء ومنه خوف الرجال وأهل العقول وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ والنفس تتمنى ذلك وتشتهى ﴾ يعود على جميع ماذكر فى الحديث لأنها مطبوعة على تمنى جميع الشهوات حلالا كانت أو حراما لكن لا يضر ذلك إذا زجرها صاحبها ولم يوافقها على ذلك ودخل تحت تضمن قوله تعالى (ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) فان لم ينهها ولم يقع ماطلبته منه بحكم الوفاق لم يكن من أحد القسمين ولم يكن ممن ينطلق عليه اسم زان لأنه لم يقع الفعل بالفرج الذى هو مصدقه ولم يكن أيضا ممن زجر النفس عن الهوى فتكون الجنة له مأوى وكذلك كلما حدثت به النفس من غير ذلك إنما هو مفتقر إلى ظهوره على جارحة من الجوارح التى ذلك الفعل يختص بها فان هو زجرها ونهاها كان هو من المفلحين وإن هو وافقها حتى ظهر ذلك على تلك الجارحة كان من الخاسرين وإن هو لم ينهها ولم يفعل بحكم الوفاق فكان من المذنبين كما تقدم التقسيم وكذلك تعدى الحكم إلى ماهو الشخص فيه مؤاخذ بعقد النية الذى هو من الأمور القلبية إذا وافقها على ماسولت له عقد نيته على ذلك كان من الخاسرين وإن نهاها عن ذلك كان من المفلحين التقسيم بعينه مثال ذلك الحسد المنهي عنه شرعا إذا دعته النفس إليه مشى فيه ذلك التقسيم وكذلك ماأشبهه مما هو مختص بالقلب ليس إلا فتكون النية وعقدها هى التى تصدق ذلك أو تكذبه ﴿ وفيه دليل ﴾ لطريق أهل الصوفة الذين يرون مخالفة النفس وحديثها جملة واحدة يؤخذ ذلك من نصه صلى الله عليه وسلم فى الحديث إن من الذى طبعت عليه أنها تتمنى ذلك الحرام ، تشتهيه فمن هذه صفتها وجبت مخالفتها عقلا ودينا فانها تفضى بصاحبها إلى الهلاك وقد قال نفسك وإن صلحت لا تأمنها فان الشرع يلمع من أفشدتها ويترتب على فهم الحديث لشرحه فائدتان إحداهما أن تجتهد فى أفعال الخير لعله يدفع عنك بها من الشر مالا تعلمه وقد كتب عليك فتكون ممن وقاه معروفه مصارع السوء والأخرى دوام الخوف وإن كنت على أرفع الأحوال أو على أى حالة كنت خوفا أن يكون قد سبق عليك فى الكتاب الختم بما لا تطيقه وأنت لا تعلم ومن أجل هذه الاشارة قال جل جلاله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) جعلنا الله ممن يخشاه وكانت خشيته سببا إلى سعادته بمنه

(٢٥٦) ﴿ حديث النهى عن أن يقام الرجل من مجلسه ﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ نَهَى عَنْ أَنْ يُقَامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ وَيَجْلِسَ فِيهِ آخَرُ وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما النهي عن أن يقام الرجل من مجلسه الذي جلس فيه و يجلس فيه غيره والثاني الأمر بالتفسح فيما بين الجلاس والتوسع إذا دخل عليهم والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا على عمومه في كل مجلس أو هو على الخصوص في مجالس مخصوصة وهل هذا أيضا عام في كل الرجال أولا ومنها هل هذا تعبد أو لحكمة فان كان لحكمة فما هي وهل النهي عن ذلك على الكراهة أو التحريم ﴿ أما قولنا ﴾ هل ذلك عام في كل المجالس أو هو في مجالس مخصوصة صيغة اللفظ تعطي العموم وقواعد الشرع تخصصه لأنه قد تقرر من الشرع أنه من جلس فيما ليس له ملك ولا له فيه سبب يؤخذ ذلك من أنه يقام ويخرج ولا ينزل منزلة من له ذلك أو أذن فيه من له الاذن في ذلك فما بقي أن يكون ذلك إلا خاصا في المواضع المباحة للناس دخولها أو الجلوس فيها أما على العموم للناس كلهم مثل المساجد ومجالس الحكام والعلم الذي هو لله أو ما يشبه ذلك وما يشبه ذلك أو على الخصوص مثل من يدعو قوما مخصوصين إلى منزله في وليمة أو غيرها مما أجازته الشريعة فهذه المجالس من جلس فيها مجلسا فلا يقام منه ويجلس فيه غيره ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا عام في كل الرجال أولا فظاهر اللفظ العموم وما يقرر من الشريعة أيضا يخصصه امثل إزالة المجانين من المساجد لقوله صلى الله عليه وسلم «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم» ومثل أكل الثوم النيء والاحرم فهؤلاء يقومون ويخرجون من المساجد إذا تأذى بهم الجلاس وكذلك كل من يكون فيه إذاية للجلاس فانه يخرج لقوله صلى الله عليه وسلم «لاضرر ولاضرار» ويشترط أن يكون ذلك الضرر مما يراه الشارع صلوات الله وسلامه عليه ضرر لا بحظ نفساني ولا بحظ دنياوي وكذلك يقام السفهاء من مجالس الحكام والعلم وأعني بالسفهاء الذين يسفهون بالألسنة حتى يخرجوا لما ينافي مجلس العلم والحكم وما يشبه هذا ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هو تعبد أو لحكمة فان كان تعبد فلا تعليل ولا توجيه وإن كان لحكمة وهو الظاهر فما هي فنقول والله الموفق للصواب أن الحكمة فيه ظاهرة من وجهين أحدهما منع تكبر بعضنا على بعض لأن إزالة هذا من مجلسه وإجلاس غيره فيه استنقاص بالقائم واستصغار له وترفيع المجالس في مجالسه وتكبر منه وقد قال صلى الله عليه وسلم «أنه أوحي إلي أن لا يفخر بعضكم على بعض ولا يتكبر بعضكم على بعض» أو كما قال عليه السلام وهو أيضا مما يوجب الضغائن في الصدور والاحقاد وقد نهينا عن ذلك وما هو السبب إلى شيء فهو مثله والوجه الآخر إن المباح كله الناس كلهم فيه على حد سواء الرفيع والوضيع فمن سبق إلى شيء منه فقد استحقه ومن استحق شيئا من الأشياء بوجه شرعي فاذا أخذ منه بغير وجه شرعي فقد غصبه والغصب حرام بدليل الاجماع فلما جلس هذا مجلسه من تلك المجالس المتقدم ذكرها فقد استوجبه بوجه شرعي فلا يقام منه لأنه هو المستحق له ﴿ وأما قولنا ﴾ هل النهي على التحريم أو على

الكراهية فعلى التوجيه الأول يكون على الكراهية وعلى التوجيه الآخر يكون على التحريم وهو الظاهر لأنه يمكن الجمع بين التعليلين فاذا كان الجمع بين التعليلين ممكنا اندرجت الصغرى التى هى النهى فى الكبرى التى هى التحريم و بقى هنا ﴿ بحث ﴾ وهو أنه إذا فعل الجالس ذلك من تلقاء نفسه هل يدخله شىء من النهى أو ليس أما إن كان سالما من الشوائب فالظاهر أنه ليس فيه كراهية وإن دخله شىء من الشوائب مثل أن يفعله لخوف أو باشارة تهديد أوماهو فى معنى ذلك فيكون مثل أصحاب السبت لما نهوا عن الصيد فيه عملوا الحيلة للصيد فى يوم الجمعة وأخذوا يوم الأحد فكان من أمرهم ماأخبر الله عز وجل عنهم فى كتابه فكان حقيقة صيدهم يوم السبت لأن بتلك الحيلة أمكنهم أخذ الصيد يوم الأحد وما لايوصل إلى شىء إلا به فهو منه ، إن اختلف نوعهما وقد ذكر لى عن بعض أهل الفضل بجزيرة الأندلس وكان ممن فتح عليه فى دنياه أنه دعى إلى عقد نكاح فلما دخل المنزل لم يجد فيه أين يقعد فبقى واقفا خجلانا ولحقه الدهش لأن المجلس كان حفلا وكان ممن كان قاعدا فى المجلس شخص كان للداخل عليه دين مائة دينار فقام الذى كان عليه الدين من مجلسه وأجلس فيه ذلك السيد فلما انفض المجلس وجه ذلك السيد الذى كان دخل آخر الناس ولحقه الدهش لذلك الشخص الذى كان قام له من مجلسه وأجلسه فيه عقده الذى كان عليه بالمائة دينار ، وهو قد أشهد على نفسه بتبرئته منها مكافئة له على زوال خجلته فى ذلك المجلس ﴿ تنبيه ﴾ فى الحكاية إشارة إلى أن من تأخر عما دعى إليه يلحقه الخجل فاحذر مايخجلك يوم الوفد ولاتحيص وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولكن تفسحوا وتوسعوا ﴾ هل هما لفظان مترادفان لمعنى واحد أو لكل لفظ معنى حتمل الوجهين معا لكن الأولى أن يحمل كل واحد منهما على معنى فان ذلك أكبر فائدة فيكون معنى تفسحوا أى يوسعوا فى مابينهم للداخل أن يقعد ويكون معنى توسعوا أى توسعوا عنه بأن ينضم بعضكم إلى بعض حتى يبقى له فى المجلس أين يقعد فان السنة أن الداخل يجلس حيث انتهى به المجلس فلما لم يبق لهذا الداخل من المجلس أين يجلس أمرنا بأن ينضم بعضنا إلى بعض فيتوسع بذلك المجلس فيبقى فى آخره لهذا الداخل أين يجلس فيكون صلى الله عليه وسلم قد خير أهل المجلس أن يفعلوا مع الداخل أحد هذين الوجهين أيهما فعلوا فقد أصابوا السنة لكن بشرط أن يكون المجلس يحمل هذا بلا ضرر على الجلاس لأنه قد قال صلى الله عليه وسلم « لاضرر ولاضرار » مثال ذلك أن يدخل شخص والمجلس قد غص بأهله فيفسحوا له ويوسعوا ثم ثان كذلك ثم ثالث كذلك ثم رابع فاذا لم يطيقوا لكثرتهم وضيق المجلس أن يفسحوا أو يوسعوا إلا وعليهم ضرر فى ذلك فلا يلزمهم من ذلك شىء لكن من حسن المعاملة أن يعتذر له حتى ينصرف وهو طيب النفس لقوله تعالى (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم)

(٢٥٧) ﴿ حديث بيان كفارة من حلف بغير الله تعالى وكفارة من طلب المقامرة ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما أمره صلى الله عليه وسلم أن من قال فى حلفه باللات والعزى أن تكفير ذلك أن يقول لا إله إلا الله والثانى أن من قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق فذلك كفارته والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ هل أمره عليه السلام لمن حلف باللات والعزى أن يقول لا إله إلا الله هل هذا خاص بهـــذه اللفظة أو عام فى كل من حلف بصنم من الأصنام أو شىء من الطواغيت وما فى معناها وكذلك لمن قال لصاحبه تعال أقامرك هل الأمر بالصدقة لقائل هـذا اللفظ ليس إلا أو هذا هو الحكم فى كل ماهو فى معنى هذا وطريقه وهل هذا تعبد أو لحكمة فى ذلك معقولة المعنى وهل الأمر بهذين عام فيمن قالها معتقدا أو غضبانا أو خطأ على حد سواء أو بينهما فرق ﴿أما قولنا﴾ هل هذا خاص بمن ذكر فى يمينه اللات والعزى أو هو عام فى كل من حلف بشىء من الطواغيت أو ماهو فى معناها ظاهر اللفظ يقتضى أنه خاص به وما يفهم فى معناه وما جاء عنه عليه السلام فى غير هذا الحديث يقتضى تعدى الحكم إلى أنه من كان حلفه بشىء من الطواغيت أو الأصنام التى تعبد من دون الله أو ما فى معنى ذلك أن يقول صاحب هذا القول لا إله إلا الله فان ذلك كفارة لما قاله لأنه من جهة المعنى قد تلفظ بما يشبه الردة فان الحالف بشىء هو معظم له فهذا قد عظم شيئا سوى الله على نحو مايفعله الكفار بالله تعالى فينبغى له أن يظهر إبطال ماقاله ويحقر ما عظم أو يعلن بقول لا إله إلا الله فكأن إعلانه بها رجوعا إلى الاسلام وتوبة من ذلك الخلل الذى ظهر منه وما فى معناه كذلك ينبغى الحكم فيه وقد جاء ذلك نصا عنه صلى الله عليه وسلم وهو قوله صلى الله عليه وسلم « من قال هو يهودى أو نصرانى فليقل لا إله إلا الله » أو كما قال عليه السلام وكذلك يلزم فى كل من قال عن نفسه أنه على غير دين الاسلام الحكم كالحكم سواء مثل أن يقول هو مجوسى أو غير ذلك مما يشبهه لأنها ردة فى الظاهر فينبغى الرجوع عنها باظهار كلمة الاخلاص وكذلك البحث على قولنا هل أمره بالصدقة خاص بمن قال لصاحبه تعال أقامرك فأما ظاهر اللفظ فيقتضى أن هذا حكم هذا القائل وإن نظرنا إلى المعنى عدينا الحكم حيث وجدنا العلة لأن قول الشخص لصاحبه تعال أقامرك أى نأكل أموالنا بيننا بالباطل دلى وجه حرام فحيث ماوجدنا هذه العلة عدينا الحكم على المعروف من عادة الفقهاء فى ذلك ويقى ﴿بحث﴾ وهو هل هذا الأمر بالصدقة هنا على طريق الندب أو على طريق الوجوب أما على مذهب مالك ومن تبعه فان الصدقة هنا على طريق الندب لأن

قاعدة مذهبه أن كل أمر أمر به لم يكن معهودا بالكتاب والسنة فانه من باب الندب مثل الأمر بالمتعة لما أمر بها مولانا سبحانه في كتابه ولم يجدها ولا وجد في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لها حدا حملها مالك ومن تبعه على الندب وكذلك كل ما أمر به ولم يجد فيه شيء مثل هذه الصدقة وما في معناها ومذهب الشافعي ومن تبعه في ذلك حمله على الوجوب على قاعدة مذهبهم وكذلك قالوا في المتعة أنها على الوجوب ويجزىء فيها أقل الأشياء لأن ذلك قاعدة مذهبهم ﴿ وأما قولنا ﴾ هل الأمر عام فيمن قالها متعمدا أو حرجا أو غالطا فاللفظ يقتضي العموم لكن بينهم فرق أما من قالها متعمدا معتقدا لذلك فيجب عليه أن يدخل في الأسلام لخروجه منه بما جرى ويجدد التوبة من ذلك على ما قد بينا من حدود التوبة قبل في غير ما حديث فان كان غضبانا أو غالطا فينبغي له قول ما أمر به أو فعله هذا هو الظاهر ولا ينبغي تخصيص لفظ الحديث بغير مخصص ﴿ وفيه دليل ﴾ على الأخذ بسد الذريعة في غلق باب الشيء بالجملة الكافية حتى لا يقع من المؤمن شيء ينافي الايمان والاسلام لا بقول ولا بفعل ولا يسامح في ذلك بشيء ومما يؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم «لا تتشبهوا بأهل الكتاب» وقوله عليه السلام «ثلاثة يبغضهم الله وعد فيهم من استن في الاسلام سنة الجاهلية» أو كما قال عليه السلام وقوله عليه السلام «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الشر لا يبالي بها يهوي بها في النار سبعين خريفا» والأثر في ذلك كثير ومجموع ذلك يدل على حفظ المؤمن نفسه مما يخالف دينه وقع ذلك منه جدا أو هزلا ﴿ وفي هذا دليل ﴾ لأهل السلوك لأنهم منعوا أنفسهم من الأخذ في المباح وجعلوا ذلك حماية بينهم وبين المكروه قد اتهموا النفوس ما أعرفهم بها أكبر اهتمامهم بالدين وطرق النجاة وقد قيل نفسك فرضها وعلى الخير فاحملها ولا تغفل عن سياستها فالعذر من شأنها

(٢٥٨) ﴿ حديث سيد الاستغفار ﴾

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَيِّدُ الْاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ

ظاهر الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم أن هذه الألفاظ المذكورة في هذا الحديث هي أعلا أنواع طرق الاستغفار وأقربها إلى الله عز وجل والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل جعله صلى الله عليه وسلم هذه الألفاظ سيدة الاستغفار تعبد لا يعقل له معنى وهل تفهم الحكمة في ذلك وهل إن سبك معناه إذا في ألفاظ أخر بزيادة أو نقص والمعنى باق على حاله هل تبقى له تلك الرفعة والمنزلة أم لا وهل المستغفر بهذه الألفاظ يكون استغفاره أرفع ممن

استغفر بألفاظ غير هذه وكانت نيته أرفع من نية صاحب هذه الألفاظ أم لا وكذلك في الأوقات أيضا هل فضيلة الأوقات في الاستغفار تحصل هذه أو هذه تفضلها ﴿ أما قولنا ﴾ هل هذا تعبد أو الحكمة تفهم ﴿ فالجواب ﴾ أنه الحكمة ألا ترى حسن ألفاظه وما جمعت من بديع معاني الايمان فانه جمع فيه بين الاقرار لله بالالوهية وحده والاعتراف له عز وجل أنه خالقه واعترف على نفسه بالعبودية لله عز وجل واعترف بالعهد الذي أخذ عليه والرجا فيما وعده مولاه والاشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة بقوله ﴿ وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ﴾ فان الحكمة وهي الشريعة وما كلفتنا من التكاليف إنما يحصل إذا كان في ذلك للعبد العون بقدرة من القادر الذي تعبدنا وهي التي تمكني عنها بالحقيقة إذا أراد القادر الحكيم ضد ذلك ، هو ما قدر على العبد من القدر الحتم لم ينفعه في ذلك أثر الحكمة وغلبت الحقيقة العبد في نفسه حتى يجري عليه ما قدر عليه وقامت الحجة عليه بمقتضى الحكمة والعدل التي هي الشريعة ولم يبق له شيء يدفع به عن نفسه إلا إما عقاب بمقتضى العدل وظهور الحجة وإما عفو بمجرد الفضل من الله الرحمة وعنده أرفع الطرق كما تقدم والكلام على ذلك في غير ما موضع من الكتاب ويتبين ذلك بالكتاب والسنة ثم استعاذته بمولاه الجليل من شر ما جنى على نفسه وإضافة النعماء التي عليه إلى مولاه سبحانه وإضافة ذنبه إلى نفسه ورغبته في مغفرة ذنبه والاقرار أنه ليس يقدر أحد على مغفرة الذنوب إلا الله سبحانه فيحق أن يطلق عليه سيد الاستغفار ولأن صيغة الاستغفار المعلوم لغة وعادة هو أستغفر الله فانظر بكم وجه تفضل هذا الاستغفار المشار إليه هذه الصيغة المعروفة لغة وعادة تبين لك حقيقة الحكمة في ذلك عيانا ﴿ وأما قولنا ﴾ إذا سبك ذلك المعنى بألفاظ غير هذه ولا ينقص من المعنى شيء هل يبقى حقيقة هذا الاسم أم لا فاعلم وفقنا الله وإياك أن المعاني التي أخذت من ألفاظ الشارع صلى الله عليه وسلم أنها إذا أذيلت تلك الألفاظ المباركة عن تلك المعاني أن ذلك الخير لا يوجد له مثل لأن الله عز وجل قد جعل الخير فيه صلى الله عليه وسلم وعلى يديه الكريمتين وفي لفظه وإشارته وكل ما يكون عنه أو به لا يخلفه في ذلك غيره صلى الله عليه وسلم أما ترى إلى اختلاف العلماء في نقل كلامه عليه السلام هل ينقل بالمعنى بشرط أن لا يخل فيه بشيء أو لا ينقل إلا بالفاء والواو كما ينقل القرآن وعلى هذا هم جمهور العلماء لأنه كلمه عن الله وما بينهما إلا أن الكتاب بالوحي بواسطة الملك وهذا عن الله بطريق الالهام والارشاد قال عز وجل في حقه (وما ينطق عن الهوى) فكيف فيما جعلت فيه فضيلة فانما حصلت تلك الفضيلة لمجموع الأمرين وهما حسن المعنى وبركة لفظه عليه السلام فانه كذلك شأنها الحكمة والقدرة الربانية لا تبديل لحكم الله وهذا جار في هذا الحديث في كل ما جاء عنه عليه السلام بلفظ مخصوص فلا يبدل ذلك اللفظ بغيره أصلا ﴿ وأما قولنا ﴾

هل يكون المستغفر بهذا الاستغفار ونيته ليست بتلك الجودة سيدا على من استغفر بغير هذا الاستغفار ونيته صالحة مباركة على ما أريد منه من الحضور والأدب فاعلم وفقنا الله وإياك أن حسن النية فى الأعمال لايكون شىء خيرا منها لقوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» ولقوله عليه السلام «أوقع الله أجره على قدر نيته» وإنما قال سيدنا صلى الله عليه وسلم إن هذا سيد الاستغفار فى الذين تساوت نياتهم وأحوالهم فاذا تساوت النيات والأحوال ففى كل نوع منها الذى يستغفر بهذا الاستغفار فاستغفاره سيد نوعه وكذلك جميع التعبدات من فرض ونفل وغيره من التفضيل فى كل نوع منه وجهين إما بما وضع له من حده وإما بحسب نيات الفاعلين له وأحوالهم وبحسب اختلافهم فى ذلك ومن أجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم فى الصلاة المفروضة التى هى فى الدين بمنزلة الرأس من الجسد «أنه يكتب له نصفها ثلثها ربعها عشرها» وفى لفظ آخر «ومنهم من تطوى كالثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها وتقول له ضيعتنى ضيعك الله» أو كما قال عليه السلام فدخل المسكين فى الصلاة لأن يأتى بخير العبادات فانعكس عليه الأمر من أجل سوء حاله أين هذا (قل هو من عند أنفسكم) ﴿وأما قولنا﴾ هل المستغفر بهذا الاستغفار يفضل الذى يستغفر بغيره فى الأزمنة المرغب فى الاستغفار فيها أم لا ﴿فالجواب﴾ على هذا كالجواب على النية وحسنها لأن تلك الفضيلة التى جعلت فى الزمان لاتقاس بفضيلة الألفاظ والنيات وإنما هذا سيد الاستغفار إذا تساوت المراتب من كل الوجوه وإلا إذا كان هذا قد استغفر بغير هذا الاستغفار فى الأسحار مثلا فقد حصل له فضيلة السحر فى استغفاره لقول مولانا جل جلاله (وبالأسحار هم يستغفرون) واستغفر شخص آخر بهذا الاستغفار بالنهار حصل له سيد استغفار من استغفر بالنهار بمثل حاله وليس للعقل طريق بأن يحكم أيهما أفضل عند الله تعالى هل الذى استغفر فى السحر بغير هذا أو هذا الذى استغفر فى النهار بهذا الاستغفار لأن هذه التحديدات لاتؤخذ بالعقل ولا بالقياس وإنما طريقها ما يلقى فى ذلك من الشارع صلى الله عليه وسلم وهذا لم يأت عن الشارع صلى الله عليه وسلم فيه شىء فيرد الأمر فيه إلى الله لاغير ويترتب على النظر فى هذا الحديث وأشباهه أن الحكمة الربانية كما اقتضت التفضيل بين العباد وجميع الحيوان وكذلك سائر المخلوقات على ما هو متلقى من طريق الرسل عليهم السلام وأخبارهم فكذلك اقتضت الفضيلة بين أنواع العبادات وتضعيف الأجور فى ذلك من ﴿وجوه سبع﴾ فمنها بنوعها ومنها بحسن المعانى بين النوع الواحد فى أنواعه أيضا ومنها من طريق الألفاظ ومنها من جهة الأماكن ومنها من جهة الأزمنة ومنها من جهة النيات والمقاصد ومنها من جهة الأحوال والشيم وقال عز وجل فى كتابه حضا على طلب الأعلى فالأعلى من هذه تنبيها للمكلف عليها وحضا له على طلبها وتحصيلها أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم

الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وحضت السنة على ذلك بتبيين فضيلة كل قسم منها وتعيينه وبما للعامل فى ذلك بأتم بيان ثم أكد عليه السلام ذلك بلفظ جميل وهو قوله صلى الله عليه وسلم « كفى بالعبادة شغلا » لأنه من جعل همته أن يأخذ الأعلى فالأعلى من تلك السبعة وجوه لا يسعه مع ذلك شغل غيره لأنه ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وفيما نبهنا عليه حجة لأهل السلوك على طريق السنة والسنن لأنهم بهذا عمروا أوقاتهم وبالبحث عليه والاهتمام به شغلوا أنفسهم حتى أن بعضهم سئل عن الصباح والمساء فقال لا أعرفهما فدل عنهما غيرى لأنه رأى الأخذ فى هذا من قبيل اللغو وشغل الوقت بما لا يعنى من الله علينا بما به من علينا بكرمه وفضله

(٢٥٩) ﴿ حديث بيان خوف المؤمن من ذنوبه وعدم اهتمام الفاجر بها ﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما إخباره صلى الله عليه وسلم بحال المؤمن وكبر ذنوبه فى عينه حتى يراها مثل جبل واقع عليه والآخر إخباره صلى الله عليه وسلم بحال الفاجر واحتقاره لذنوبه حتى يراها كذباب مر على أنفه والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن فيه دليلا لأهل السنة لأنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب وردا على القدرية الذين يكفرون بالذنوب يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ إن المؤمن يرى ذنوبه ﴾ فسمى هذا المذنب باسم الايمان ولم يخرج بذنوبه من دائرة الايمان ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الفجور أمر قلبى مثل الايمان لأنه أمر قلبى أيضا يؤخذ ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم وصفه بالذنوب كما وصف المؤمن بالذنوب فجأت التفرقة بين المؤمن والفاجر بأمر قلبى وبيان ذلك من جهة النظر والعقل أنه لما كان المؤمن قلبه منور بالايمان ورأى من نفسه مايخالف ماتنور به قلبه وهو الايمان عظم الأمر عليه لأنه لاشىء أثقل على الأشياء من ضدها عقلا ونقلا قال تعالى (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) من أجل النسبة التى بينهم خفت عليهم وكذلك أهل التوفيق خفت عليهم الطاعات حتى صاروا يتنعمون بها ويجدون لها حلاوة حتى أنه روى عن جماعة من أهل هذا الشان أنهم يحسون بالحلاوة تنسكب على قلوبهم عند إستغراقهم فى الطاعات مثل مايجدون حلاوة الشهد على قلوبهم فى حين شربهم له بل أعطر وأرق وأحلى هذا موجود خلف عن سلف إلى هلم جرا ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة « أرحنا بها يا بلال » وقوله صلى الله عليه وسلم « وجعلت قرة

عينى فى الصلاة » لما كان يجد فيها فانه صلى الله عليه وسلم القدوة فى كل خير حالا ومقالا ولما كان الفاجر قلبه مظلما بما فيه من الفجور وضعف الايمان خفت عليه ذنوبه من أجل النسبة التى هنالك ولذلك قد كثر فى زماننا هذا إذا جئت تعظ بعض من قد ظهرت عليه علامات الفجور فى ذنب وقع فيه فيكون جوابه هذا قريب اشتهينا أن لا يكون إلا هذا فهذا قريب وعدم الاهتمام بذنبه ظاهر عليه أعاذنا الله من ذلك بمنه ﴿ ويترتب ﴾ على هذا الحديث أن الدليل على فجور الشخص قلة حزنه على ذنوبه وتهوينها عليه وخفتها وأن الدليل على إيمانه حزنه على ذنوبه وخوفه منها وإن قامت وبقدر قوة إيمانه تكون شدة حزنه وخوفه يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ما أصبح المؤمن فيها يعنى دار الدنيا إلا حزينا ولا أمسى إلا حزينا » أو كما قال عليه السلام لأنه من ذا الذى لم يقع منه قط مخالفة ولو صغيرة إنما ذلك مقام الانبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين ومن من الله عليهم من الصديقين وهم قليل فجاء إخباره صلى الله عليه وسلم على الغالب وعليه أثبتت الشريعة غالبا وقد يكون على عمومه فيكون حزن الرسل والصديقين من أجل الغير لما يروا منهم مما اقتحموا بأنفسهم من المهالك لكثرة ما أودع الله تعالى فى قلوبهم من الشفقة والرحمة كما قال مولانا جل جلاله لسيدنا صلى الله عليه وسلم (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فالعاقل يقيم هذا الميزان على نفسه حتى يتبين له من أى الفريقين هو (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ومما فى معناه ما يذكر عن بعض قضاة الخير ممن تقدم أنه كان له شاهدان عدلان وكان الذى له الأمرة فى وقته ظالما فجبر ذلك الظالم ذلك الشاهدين أن يأكلا على مائدته فأسقط القاضى شهادة أحدهما وأبقى الآخر على عدالته فقال له الذى أسقطه لم أسقطت شهادتى فقال له القاضى لأنك أكلت من مائدة الظالم فقال له وإن صاحبى أكل معى عليها فقال له إن صاحبك أكل وهو يبكى وأنت أكلت وأنت تضحك فلاحظ القاضى هذا المعنى الذى أشرنا إليه فدل تهاون الذى كان يضحك بما وقع فيه على فجوره وكان سببا إلى تجريحه وهنا ﴿ بحث ﴾ وهو أن يقال فى الجواب لم مثل عليه السلام خوف المؤمن من ذنوبه بالجبل يقع عليه وما الحكمة فى ذلك ولم يكن بغيره ﴿ والجواب ﴾ أن غير ذلك من المهلكات مثل الغرق أو الحرق أو القتل أو غير ذلك قد يتسبب بعض الناس فيما يحل بهم من ذلك وقد ينجوا منه بلطف من الله تعالى وقد وقع من ذلك ما روى عيانا فانه حكى عن بعض من لحقهم الغرق أنهم نجوا أو نجا منهم بعضهم وكذلك فى الحرق والهدم وكذلك فى القتل وجد فى بعضهم من فيه النفس فعولج زمانا حتى برىء وهذه الأشياء أعظم المهلكات بعد هذا الجبل ولولا التطويل لذكرنا منها حكايات جملة ووقوع الجبل ليس معه حياة أصلا فالهلاك فى ذلك مقطوع به فلذلك مثل به صلى الله عليه وسلم لأن المؤمن إذا رأى من نفسه ما يخالف الايمان خاف على نفسه أشد الأشياء وهو النفاق الذى الهلاك معه مقطوع به إن مات عليه

وخاف من قول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) فحزنوا من أجل كبر هذا المقت لأن ما كبره الله سبحانه فهو أمر عظيم لا يحمله أهل الايمان ويصعقون منه ولذلك لما علم مولانا سبحانه خوفهم من ذلك طمعهم ورجاهم بقوله تعالى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وهنا ﴿بحث آخر﴾ وهو أن يقال لم شبه ذنوب الفاجر بالذباب وما الحكمة فى ذلك ولم لم يكن مثل بالذر أو ماهو فى شبهه مثل الحشرات وغير ذلك ﴿والجواب عنه﴾ أنه لما كان الذباب أخف الطير وأقله ضررا وهو مما يعاين ويندفع بأقل الأشياء وإن عض فليس لعضته ضرر بخلاف الذر الذى هو أقل الحشرات لأن التحفظ منه عسير وفيه شدة وانفعاله بطىء وإذا عض فلعضته حرارة وفيها إذاية فى الأموال حتى إذا كثر يكون بسبب ضررهم جائحة كثيرة وليس ذلك فى الذباب فلذلك مثل صلى الله عليه وسلم به وفى تمثيله عليه السلام بالأنف من بين سائر الجوارح وإشارته عليه السلام بيده لدفع الذباب عنه وجهان من الفقه ﴿أحدهما﴾ المبالغة فى تخفيف ذنوبه عليه لأن الأنف قل ما ينزل الذباب عليه وإنما يقصد فى الغالب العينين وإزالته بيده تأكيد فى الخفة أيضا حتى لا يلحقه منه شىء من التشويش ﴿والوجه الآخر﴾ أن يستعمل فى التمثيل ماهو أقوى لأن إشارته عليه السلام هنا بيده أقوى من القول فكنى بالاشارة عن الكلام لقوتها فى الموضع ﴿وفى هذا دليل﴾ على ما أعطى صلى الله عليه وسلم من كثرة معرفته بالأشياء وإدراكه ذلك على البديهة متى شاء فان كان آدم عليه السلام علم الأسماء كلها فقد وهب سيدنا صلى الله عليه وسلم معرفة الأشياء كلها وفايدة معرفة الأشياء اكبر من معرفة أسمائها (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) ﴿وفيه دليل﴾ على جواز ضرب المثل بكل ماهو ممكن بحسب قدرة القادر وإن كان لا يقع وإن وقع فيكون بخرق العادة لا بجريانها المتعاهد يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه﴾ لأن هذا من جهة القدرة ممكن وما وقع هذا إلا لبنى إسرائيل حين رفع الله عليهم الجبل وهم يخافون أن يقع عليهم حتى امتثلوا ما أمروا به فجاء بخرق العادة لموسى عليه السلام ﴿وفائدة﴾ إخباره صلى الله عليه وسلم لنا بهذا الحديث إرشاد لنا إلى أن لا نغفل عن محاسبة نفوسنا وأن نختبر العلامات الدالة على بقاء نعمة الايمان علينا فانه قد جاء فى الصحيح «إن الرجل ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فيقبض أثر الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شىء ثم أخذ حصاة ودحرجها على رجله فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله

ومافى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان أركما ورد الوكت - سواد اللون والمجل مجلت يده إذا أصابها العمل والبرورم فى الجسد كله - جعلنا الله ممن أكمل نعمة الإيمان فى الدارين بمنه فانه منان كريم

(٢٦٠) ﴿ حديث شدة فرح الله تعالى بتوبة العبد إذا تاب ﴾

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَاشَاءَ اللهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ

ظاهر الحديث الاخبار بشدة فرح الله عز وجل بتوبة العبد إذا هو تاب والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى فرح الله سبحانه بتوبة العبد ﴿ فالجواب ﴾ أنه قد تقدم فى غير ماموضع من الكتاب أن هذه الأوصاف التى هى من صفات المحدثات مثل الفرح والحزن والحب وماأشبه ذلك أنها فى حق الله سبحانه وتعالى مستحيلة وإنما معناها ماتضمنته تلك الصفة بجرى العادة عندنا لأنا لانفهم مايراد منا إلا بالتمثيل بما نعلمه من عادتنا وأوصافنا فكنى صلى الله عليه وسلم عن كثرة إحسان الله سبحانه للتائب وكثرة تجاوزه عنه وعظيم الافضال عليه بقوة هذا الفرح الذى لاشىء عندنا فيما نعلمه من عوائدنا أعظم من هذا الفرح الذى لحق صاحب هذه الراحلة عند وجودها بعد ذلك الكرب العظيم الذى لحقه والمعلوم من عوائد الملوك الكرام إذا فرحوا بشىء إن صاحب ذلك الشىء الذى فرحوا به يحسنون إليه الاحسان الذى يخرق العقول ويرفعونه المنازل الرفيعة التى ليس فوقها منزلة وكذلك جاء عن مولانا سبحانه فى حق التائب بالنص فى ذلك من الكتاب ومن السنة فى غير ما موضع فمن الكتاب قوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) وقوله تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات) ومن السنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «التوبة تجب ماقبلها» وقوله عليه السلام «إذا تاب العبد يباهى الله به الملأ الأعلى ويوقد له سراج بين الأرض والسماء وينادى مناد من قبل الله عز وجل إن فلان بن فلان قد صالح مولاه» أو كما قال والآى والأحاديث فيه كثير فأجمل هنا صلى الله عليه وسلم بهذا المثل العجيب كما جاء مفسرا فى الكتاب والسنة فى مواضع عديدة ليكون أقرب للفهم وأحض على الرغبة فى التوبة وأيسر للحفظ ومما يبين ماأشرنا إليه حكاية معن (١) لأنه كان من الملوك الأول وكان قد اشتهر بكثرة الجود والكرم فكثرت عليه القصاد حتى احتجب عن الناس فأتاه أحد الأدباء فقيل له إنه احتجب منذ زمان وكان له بازاء قصره بستان يتفرج فيه فى بعض الأيام

(١) هو معن بن زائدة أحد الأمراء فى الدولتين الاموية والعباسية

فقال ذلك الأديب لأحد حجابه إن أنت أخبرتنى بيوم خروجه إلى البستان لك عندى جائزة كذا وبقى يواظب الباب حتى قال له ذلك الحاجب إنه اليوم فى البستان فكتب على خشبة :

أيا جود معن نادِ معنا بحاجتى * فمالى إلى معن سواك شفيع

وأتى خلف البستان ووضعها فى ماء كان يدخل البستان فبينما الملك قاعد على ذلك الماء أبصر الخشبة تعوم على وجه الماء فأمر بأخذها ونظر ما فيها فلما أخبر بالمكتب الذى عليها فرح به فرحا شديدا وسر به سرورا عظيما وخرج من حينه وأمر بحضور أرباب دولته وبحضور كاتب هذه فلما أبصره قال له أنت القائل هذا والخشبة بين يديه قال له نعم فأمر له بعطاء عظيم أبهت الحاضرين وجعل له منزلة عظيمة يكثر لها الحساد فلما كان من الغد خرج وأمر بحضور أرباب دولته وبحضور ذلك الشخص وأعطاه مثل ما أعطاه بالأمس وكذلك فى اليوم الثالث فلما كان فى اليوم الرابع خرج وأمر باحضاره وطلبه فلم يوجد فقال لأرباب دولته أما إنه لو قعد كنا ندفع له كل يوم لمثل ما دفعنا له أول يوم حتى لا يبقى لنا شىء نعطيه فانه يشفع لنا بما يقصر ملكنا عن مكافأته عليه فكثرة جوده أوجب كثرة عطائه هذا من ملك محصور يفنى وهو مثله ينفد ويفنى وخزائنه محصورة معدودة وجوده محدود وكل معدود محدود محصور يفنى فكيف بمن لا ينقضى أبده ولا ينحصر ملكه ولا تفنى خزائنه ولا يشبه كرمه كرما فاذا فعل العبد ما فيه موجب لاحسانه عز وجل من طريق المن والفضل لا من طريق الوجوب والالزام كيف يكون إحسانه لهذا العبد وكيف يكون ترفيعه له وتجاوزه عنه جعلنا الله من أهله لذلك بمنه واحتمل ﴿ وجها آخر ﴾ وهو مثل ما اختلف العلماء فى ذكره سبحانه وتعالى عن نفسه الوجه واليدين فمن أهل السنة من تأول الوجه بمعنى الذات لأن العرب تقول وجه الطريق بمعنى ذاته واليد بمعنى النعمة ومنهم من قال يمر اللفظ على ظاهره مع نفى الجارحة ونفى التحديد والتكييف ويجرى هذا الوجه فى هذا الحديث وما فى معناه من الحب والغضب والرضا والضحك وكلما جاء فى الأحاديث من هذا النوع مع نفى ما تضمن تلك الصفة منا مثل الفرح يقر اللفظ على حاله مع نفى المعنى الذى نحذره نحن من السرور به والميل إلى ذلك الشىء المفروح به والطرب به والبشاشة إليه وإثاره على غيره وكون ذلك كما يليق بجلاله سبحانه مع نفى الشبه والمثال وإبقاء ما ينالنا من تلك الصفة من الخير على جرى عادتنا فان من أجل ذلك ضرب لنا المثل وكذلك يمشى هذا الوجه فى الغضب والرضى والضحك لأن القاعدة قد تقررت بمدلول العقل والنص أنه جل جلاله) ليس كمثله شىء) وقد تقدم بيان ذلك بأدلته أول الكتاب فى حديث عبادة بن الصامت فأغنى عن إعادته هنا فلما تقعدت تلك القاعدة لم يضر إطلاق هذه الألفاظ ولا يقع بها على العقول فى معتقدها البأس ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز السفر منفردا يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه

وسلم ﴿ من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ﴾ فوصف بأنه كان فى تلك المهلكة وحده فانه عليه السلام لا يضرب مثلا بما لا يجوز فى شريعته ويعارضنا النهى منه عليه السلام أن يسافر الرجل وحده ويمكن الجمع بينها بأن يكون هذا الحديث دليلا على الجواز وذاك نهى كراهية وشفقة ومن أجل ما كان هذا فى تلك المهلكة وحده جرت عليه تلك الشدة لأنه لو كان معه رفيق ما حصل فى تلك الشدة حتى أبقى بالهلاك فانه لو ذهبت راحلته بقيت رواحل رفقائه فقد كانوا يقومون بضروراته فلم يكن يجد لذهاب راحلته ذلك الهم الكبير فبان بهذا الحديث وإن كان يدل على الجواز فائدة نهيه عليه السلام عن السفر منفردا ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز دخول موضع المهلك إذا كان مع داخلها ما يقى به نفسه من تلك المهلكة على ما جرت به العادة فى ذلك الوجه يؤخذ ذلك من دخول هذا تلك المهلكة ومعه ما يمنعه مما فيها من المهالك وهى راحلته عليها طعامه وشرابه ولو كان هذا غير جائز ما ضرب صلى الله عليه وسلم المثل به وسكت عن الاشارة إلى منعه كما فعل فى المجاهد حين وصفه أنه غرر بنفسه لأنه عليه السلام هو المشرع فلا يتكلم إلا بالشىء الجائز ومن تتبع كلامه صلى الله عليه وسلم يجده فى المواضع التى يكون فيها الاشكال ما قد تحرز من ذلك إما بقول أو باشارة أو ما كان فى معناهما ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه حيث يعدم الطعام والشراب يسمى مهلكة يؤخذ ذلك من أن صاحب الراحلة لم يكن له شىء يخافه فى تلك المهلكة إلا عدم الطعام والماء الذى كان على راحلته ولو كان له خوف مما سوى ذلك كان يذكره لأنه كان يكون زيادة فى قوة كربه فيكون فرحه براحلته أكثر ولا كان يمكنه نوم مع ذلك كما هو المعهود من الناس ذلك لأنه لو كان له خوف من سباع أو لصوص لم يمكنه النوم مع ذلك لأن الخوف من مثل هذا يذهب بالنوم على العوائد الجارية فى الناس ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه من ركن إلى ما سوى مولاه فانه يقطع به أحوج ما يكون إليه يؤخذ ذلك من نوم هذا فى تلك المهلكة لثقته براحلته التى عليها طعامه وشرابه الذى يظن أنه ينجيه من تلك المهلكة فأحوج ما كان إليها لم يجدها وهو عند استيقاظه من نومه أكثر اضطرارا لحاجته إذ ذاك بشرا به طعامه ولذلك قال بعض أهل التوفيق «من سره أنه لا يرى ما يؤلمه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا» أى من عول على غير من لا يحول ولا يزول فلا بد له من الاضطراب غالبا ومن كان عدته مولاه فلا يفقده حيث يحتاج إليه أبدا بل يجده به رؤفا رحيما قال عز وجل فى كتابه (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن هم البشرية وفرحها غالبا إنما هو على ما جرت به أثر الحكمة من العوائد المعتادة بينهم إلا أهل التحقيق وقليل ما هم يؤخذ ذلك من أن حزن هذا صاحب المهلكة على ذهاب راحلته إنما كان خوفه من الموت من أجل عدمه الطعام والشراب وفرحه بهما إنما كان من أجل وجوده الطعام والشراب الذى ينسبون الحياة إليه وقد يكون الأمر بالعكس أن تكون الحياة مع عدم الطعام

والشراب كما قال أبو حامد الغزالى رحمه الله إن الرزق الذى ضمنه الله عز وجل لعباده ليس من شرطه أن يكون محسوسا فقد يكون محسوسا وقد يكون غير محسوس وإنما ضمن لهم أن يرزقهم قوى لهذا الجسد بما يعبدونه فيجعله كيف شاء والذى يقع لى أن لهذا المعنى هى الاشارة بقول سيدنا صلى الله عليه وسلم « إنى لست كهيئتكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » أى إن إيمانى ويقينى ليسا مثل إيمانكم ويقينكم فانى أعلم أن الذى يقوينى بالطعام والشراب هو الذى يقوينى بلاطعام ولاشراب ولو كان يأكل أكلا حسيا لم يقع عليه إسم مواصل ، لا يمكنه أن يكون يواصل بهم ويكون هو عليه السلام يأكل ، يشرب وأصحابه يواصلون ولا يأكلون ولا يشربون ليس هذا من خلق غيره فكيف خلقه السنية التى لا يمكن أحد طوقها أبدا وقد يكون الموت بسبب أخذك الطعام والشراب وقد وجد هذا فى الأخبار المنقولة كثير ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الأحكام والأمثال إنما تستعمل على الغالب من أحوال الناس لأنه لما كان الغالب من الناس إنما فرحهم بالمحسوس وحزنهم على فقده ضرب صلى الله عليه وسلم المثل بهذا ﴿ وفيه دليل ﴾ على بركة الاستسلام لأمر الله عز وجل وسرعة النجح عند ذلك يؤخذ ذلك من أنه لما ترك صاحب الراحلة جده وطلبه وسلم لله أمره واستسلم له برجوعه إلى موضعه فأرسل الله خيرانه إرسال النوم عليه لأنه من علامات الرحمة عند الوقوع فى الشدائد وأرفق لمن وقعت به كما أخبر سبحانه عن الصحابة رضى الله عنهم فى كتابه بقوله (إذ يغشاكم النعاس أمنة منه) ولما أرسل الله عز وجل عليهم النعاس كما أخبر بقى المنافقون لم يرسل عليهم من النعاس شيئا وبقوا فى كرب عظيم ثم بعد ما استيقظ صاحب المهلكة من نعمة النوم وجد راحلته عنده قائمة فتمت النعمة عليه بوجودها ﴿ وفيه تنبيه ﴾ على أن يقدم العبد أثر الحكمة وهى عمل الأسباب على ما شرعت وبينت فاذا لم يرها تنجح له فى قصده يعمل على مقتضى التسليم للقدر رضاء وتسليما ويعلم أن ذلك هو المقصد منه فعند ذلك ييسر له مقصده بلا كلفة يؤخذ ذلك من كون صاحب الراحلة لما ذهبت أخذ فى نظرها والبحث عليها فلما لحقه فى ذلك ما لحقه من العطش وما شاء الله ورأى أن ذلك لا ينجح له مطلبا أخذ فى الاستسلام للقدر ورجع إلى موضعه وترك ما كان بسببه من أثر الحكمة فأتاه ما أمله من الخير وهو إتيان راحلته وفى رجوعه إلى الموضع الذى ذهبت منه راحلته إشارة إلى الثقة بعظيم قدرة القادر لعل من الباب الذى كان منه الكسر بالعدل يكون منه الجبر بالفضل حالة يعقوبية كما ذهب بصره بقميص يوسف عليه السلام فبالقميص كان رجوع بصره إليه ولذلك قال (إنى أعلم من الله ما لا تعلمون)

(٢٦١) ﴿ حديث مثل الذاكر لربه والغافل ﴾

عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت

ظاهر الحديث تمثيله ﷺ الذى يذكر ربه بالحى والذى لا يذكره بالميت والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى الذكر هنا هل الذكر باللسان أو الذكر بالأفعال وهو اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه لأن العلماء قد قالوا فى معنى قوله جل جلاله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) إنهم الذين إذا كان عليهم الحق أعطوه وإذا كان لهم الحق أخذوه كل ذلك على الحد الذى شرع بلا زيادة ولا نقصان وقال عمر رضى الله عنه « ذكر الله عند نهيه وأمره خير من ذكره باللسان » او كما قال رضى الله عنه وفى أى نسبة يكون الشبه فيما شبه به على أحد الوجهين وما يترتب على ذلك من الفائدة

﴿ أما قولنا ﴾ أى وجه عنى بالذكر احتمل الوجهين كل واحد على حدة واحتمل أنه عنى بذلك الوجهين معا فان كان عنى المجموع فهو للفائدة أتم وإن كان عنى أحد الوجهين فبين الذكر بالقول والذكر بالفعل فرق كبير لأن الذكر بالفعل مثل الطهارة الكبرى تندرج فيها الصغرى لأن الذى يمتثل الأوامر وينتهى عن النواهى فلا بد له من الذكر باللسان لامحالة فان حاله يحمله على ذلك جبرا وإن كان لا يقع ذلك منه فالذى فعل من امتثاله الأوامر أجزأه عن ذكر اللسان كالطهارة الكبرى تجزىء عن الصغرى والذى يذكر باللسان مثل الطهارة الصغرى لا تدخل تحتها الكبرى ولا تجزى عنها وهو مطلوب بها ﴿ وأما قولنا ﴾ من أى وجه يكون النسبة بين هذا وبين المثل أما إن كان الذكر بالفعل على ماتقدم بالنسبة بينهما ، من أجل عدم الفائدة بهذا التارك لما أمر به فى حياته فان فائدة الحياة فى هذه الدار إنما هى الكسب لتلك الدار الباقية فانما جعلت هذه مزرعة للعباد لأن يتزودوا منها للمعاد فاذا ماتوا انقطع من هذه المزرعة كسبهم فلما كانت حياة هذا فى هذه المزرعة بغير كسب لمعاده كان كالميت الذى لم يبق له فيها عمل وكانت حياته كأن لا حياة ، مما يوضح ذلك قوله عز وجل فى كتابه العزيز حكاية عن قول من ختم عليه بالشقاء (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وبالضرورة أنهم حين كانوا فى هذه الدار كانوا يسمعون ويعقلون فلما كان سمعهم وعقلهم لم يجدوا لهما منفعة فى تلك الدار نفوا ذلك عن أنفسهم بقولهم (لو كنا نسمع أو نعقل) وأما إن كان المعنى الذكر باللسان فالنسبة بينهما من أجل ما حرموا من ذكر مولاهم لهم لأنه قد جاء عنه جل جلاله « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم » ومن كان أعطى هذه الرحمة العظمى مع من حرمها كنسبة الحى من الميت لأن من ترك هذا الخير العظيم بأيسر الأشياء وهو تحريك اللسان أو إمرار ذلك بالقلب فقد عدم فائدة الحياة التى هى موضوعة لكسب هذه الخيرات وأشباهها وقد قال الله عز وجل فى شأن الذكر (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) فمن يحرم نفسه من هذا الخير العظيم كيف لا يوصف بالموت بل هو أحق بذلك وبل الموت له على خير خير من هذه الحياة المغبون صاحبها وإن كان

المعنى فى الحديث الوجهين معا فكان الأمر فى حق هذا المحبون أشد وأعظم أعاذنا الله من الحرمان بفضله ﴿ وأما قولنا ﴾ مايترتب على ذلك من الفائدة فغير واحدة منها الحض على امتثال الأوامر ومنها الحض على الذكر والعلم بما فيه من الخير ومنها تنبيه على أن الحياة الحقيقية إنما هى حياة الآخرة فيكون معظم الفائدة الحض على نبذ هذه الدار والاهتمام بتلك الدار لأن هناك هى الحياة الطيبة والعيش الرغد كما أخبر جل جلاله فى كتابه العزيز بقوله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل الصوفة المتبعين للسنة والسنن لأن طريقتهم الجد فى اتباع الأوامر واجتناب النواهى ودوام الذكر شأنهم وبه فرحهم فهم الذين فهموا ماإليه خلقوا حتى صار حالهم ومقالهم على حد سواء فهموا فسعدوا إذ علموا وعملوا بما علموا وغرسوا الشجرة فجنوا ثمرها أولئك موضع نظر الله من خلقه بهم يرحم العباد والبلاد أعاد الله علينا من بركاتهم فى الحياة والممات

(٣٦٣) ﴿ حديث فرح المؤمن عند موته للقاء ربه ﴾

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ فَقَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَكَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) أن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه (والثانى) إخباره صلى الله عليه وسلم أنه لاتنجح نفس من هذه الدار حتى تعرف مالها فى تلك الدار من خير أو ضده والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ الكلام على معنى أحب ومعنى كره والكلام على هذا المؤمن أى مؤمن هو فأما الكلام على معنى الحب ومعنى الكراهية فهو على نحو ماتقدم الكلام عليه فى الحديث قبله على أحد الوجهين المذكورين بعلتيهما ﴿ وأما قولنا ﴾ أى مؤمن هو فظاهره يعطى أن المراد به المؤمن الكامل الايمان الذى إيمانه بتوفية ما أمر به ونهى عنه لأنه جاء ذكره عليه السلام هنا للطرفين معا الطرف الواحد من جهة الايمان والطرف الآخر طرف الكفر والحرمان التام وبقى الكلام على المتوسطين ذلك وهو المؤمن الذى شاب إيمانه

بالمعاصى والآثام ﴿والجواب﴾ عليه مثل ماتقدم الجواب على المتوسط فى حديث فتنة القبر فيما تقدم من الكتاب حين أخبر صلى الله عليه وسلم إن الموقر هو الذى يجاوب بالحق ثلاثا ذلك الناجى وان المرتاب الذى لا يعرف دينه يقول «سمعت الناس يقولون شيئا فقلته» فذلك الهالك وبقى القسم المتوسط بين ذلك وتكلمنا عليه هناك والكلام عليه هناك مثله يكون شأن المتوسط هنا ﴿وفيه دليل﴾ على فضل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وعليهن أجمعين وفقههن يؤخذ ذلك من مراجعتهن للنبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الموطن بحسن الأدب بقولهن (إن الكره الموت) فانظر إلى اختصار هذا اللفظ وماتحته من الآداب والفوائد ويترتب عليه من الفقه جواز مراجعة العالم إذا بقى على السامع فى فهمه إشكال ويكون بأدب ﴿وفيه دليل﴾ على جواز إطلاق اللفظ المحتمل وإن كان الذى قصد المتكلم من محتملاته ليس هو المستعمل بجرى العادة يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه﴾ وظاهر المستعمل بين الناس والذى يسبق إلى الفهم هو الذى راجعت به هذه السيدة وكان قصد سيدنا صلى الله عليه وسلم بذلك وجها خاصا وهو ما أبداه صلى الله عليه وسلم وبينه عند مراجعة هذه السيدة ﴿وفيه دليل﴾ على جواز إلقاء العلم للنساء ولو واحدة منهن يؤخذ ذلك من إلقائه صلى الله عليه وسلم هذه القاعدة الشرعية لهذه السيدة وإلقاؤه ذلك إليها يدل على جواز أخذه منها لأن علم الشريعة لا يحل كتمه ويؤخذ منه جواز إلقاء المعلم المسألة المحتملة ليختبر بها أصحابه أو يسألوه عن بيانها يؤخذ ذلك من هذه اللفظة المتقدم ذكرها ﴿وفيه دليل﴾ على أنه لا يجوز لأحد أن يعمل على لفظ محتمل على أحد محتملاته حتى يدل الدليل عليه أنه هو المقصود يؤخذ ذلك من مراجعة هذه السيدة حتى زال الاحتمال وأقرها صلى الله عليه وسلم على ذلك ﴿وفيه دليل﴾ على تهوين الموت على المؤمن يؤخذ ذلك من فرحه بما أمامه مما بشر به من رضى مولاه عنه وإحسانه فانه من فرح بشىء هان عليه مالقى عليه أو دونه من الشدائد وهذا ندركه حسا فى أهل الدنيا فانهم ماحملوا فيها ماحملوا من المشاق والشدائد إلا لفرحهم بها وحبهم لها فكيف بالفرح الذى ليس مثله فرح جعلنا الله من أهله بفضله ﴿وفيه دليل﴾ على تشديد الموت على الكافر يؤخذ ذلك من همه وحزنه على ماأمامه فتضاعفت عليه الهموم والشدائد ومما فى معنى ماأشرنا إليه أن بعض الناس مر فى بعض طريقه بشخص نحيف البدن وهو يضرب بالسياط ضربا شديدا وهو مع ذلك لا يتكلم ولا يلتفت لها حتى إلى آخر سوط صاح واستغاث استغاثة شديدة فتعجب من كان حاضرا من شدة صبره أولا ثم تعجب منه آخرا مما ظهر منه فلما خلى عنه تبعه فقال له ناشدتك الله ماشأنك إنى تعجبت منك أول ضربك وحملك ذلك البلاء العظيم ثم تعجبت منك من كونك آخرا من سوط واحد ظهر منك ضد ما كنت عليه فقال له إن العين

التى كنت أعذب من أجلها كنت أشاهدها فلم أحس بتلك الأمور التى جرت على البدن مع ضعفه فلما احتجب عنى وجدت ألم الحجاب أشد من تلك الآلام فاجتمعت على المحن فلم أحملها فظهر ذلك الذى ظهر منى أعاذنا الله من المحن جميعا بمنه وكرمه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن عند بوادى أمور الآخرة يقع هناك التصديق للمؤمن والكافر بلاشك ولا ارتياب يؤخذ ذلك من فرح المؤمن بما يبشر به وحزن الكافر وكراهيته بما يبشر به فلولا أنهما فى التصديق على حد سواء ما حزن هذا وفرح هذا وبقى ﴿ بحث ﴾ وهو أن يقال متى يكون ذلك ﴿ فالجواب ﴾ إما من الحديث فلا يؤخذ تعيين الوقت لكن يؤخذ من حديث غير هذا وهو قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله يقبل توبة عبده المؤمن مالم يغرغر ﴾ أو كما قال وهو إذا كانت الروح فى الحلقوم وعاين مبادىء أمور الآخرة فهناك يكون وقت البشارة ولأنه لو كانت البشارة للكافر قبل ذلك الوقت الذى تقبل منه التوبة والاسلام وحصل له التصديق كان إذ ذاك يسلم الكافر ويتوب العاصى فلما كانت البشارة فى وقت لاينفع فيه التوبة ولا الاسلام حصل له التصديق فى وقت لاحيلة له فى الخلاص فاشتد لذلك الحزن عليه والله أعلم وقد أخبرنى من أثق به بما يقوى ما أشرنا إليه أنه كان له بعض من يقرب منه وكان مسرفا على نفسه فابتلى فى بدنه فتاب ورجع إلى الله وبقى معه الخوف مما تقدم فكان يقول لذلك الشخص مع مرور الأيام يافلان كيف يكون قدومى على الله وبماذا ألقاه ويحزن لذلك كثيرا فلما مرض مرض الموت واحتضر التفت إلى ذلك الشخص بعد ما نظر إلى السماء وتبسم وتهلل وجهه فرحا فقال يافلان أبشر فما ثم إلا خير وشهق شهقة طلعت منها روحه وفيه قيل :

للموت فاستعد إن كنت عاقلا ... وبالتقوى فتزود إن كنت راحلا

وإلى الله فارجع فانك عليه قادم عاجلا ... وفى البشارات إشارات بها السعيد حافلا

جعلنا الله ممن احتفل بها وبها سعد بمنه

(٢٦٤) ﴿ حديث مايتبع الميت إلى قبره ﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ

ظاهر الحديث أن الميت يتبعه الأهل والمال والعمل فلا يبقى معه إلا عمله ويرجع الباقى والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ الكلام على الاتباعية كيف هى وما الحكمة فى الاخبار وبهذه الثلاثة ونحن نعرف ذلك ونشاهده ﴿ أما قولنا ﴾ فى الاتباعية كيف هى فالتقسيم يقتضى أن يتكلم على كل واحدة من الثلاثة

على حدته فاتباع الأهل هو حملهم جنازته وصيغة اللفظ تقتضى أن يكون الماشون مع الجنازة خلفها والسنة أن يكون الماشون مع الجنازة أمامها وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب الناس بالدرة على المشى خلفها يقول إنما أنتم شفعاء لها والشفيع يكون أمام المشفوع له أو كما قال رضى الله عنه والجمع بين ذلك أن يقول إن الذى يخرج من أجل شخص حيا كان أو ميتا فانما هو تابع له وإن كان يمشى أمامه ألا ترى أنه ليس له اختيار أن يقصد موضعا إلا الموضع الذى يقصد الذى خرج معه فهو تابع له فلما كان خروج الميت ومشيه إلى قبره فمشى أهله معه إلى القبر إنما هو من أجله فانهم لا حاجة لهم فى القبر نفسه فهم فى مشيهم وإن كانوا أمامه تابعون له حيث كان قبره مشوا معه إليه فبان فى حقهم إسم التبعية له وتقدمهم أمامه اتباعا لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وأما اتباع المال ففيه ﴿ بحث ﴾ وهو أن الميت عند خروج نفسه رجع المال لغيره فكيف يصح أن تقول ماله تبعه وهو لغيره وماذا من المال يتبعه إلى قبره فمن كانت له دور أو بهائم أو عين كيف يتبعه إلى قبره ﴿ والجواب ﴾ إن ذلك الزمان الذى بين دفنه وخروج الروح المال فيه مضاف إليه لأن السنة أحكمت أن لا يقتسم ماله إلا بعد ما يخرج منه كفنه وما يحتاج إليه من جهازه إلى قبره ووصية ودين إن كان عليه وبعد ذلك إن فضل من المال فضل اقتسمته الورثة بمقتضى ما فرض لهم والسنة تعجيل دفن الميت كما قال صلى الله عليه وسلم « إنما هو خير تقدمونه إليه أو شر تضعونه عن رقابكم » أو كما قال عليه السلام فبان أن يقال له فان أمره فيه عامل . هو إليه فى الوقت مضاف من أجل أنه إنما يكنى عن المال فى الوقت تركه فلان الذى هو الميت ولم يحصل يد أحد ممن له فيه حق على شىء منه بعد ﴿ وأما قولنا ﴾ ماذا يتبعه من ماله فان العرب تسمى البعض باسم الكل والكل باسم البعض فيتبعه من ماله عبيد إن كان له وما يحمل عليه وما يحفر به قبره من الآلة وما يشبه ذلك فيصح أن يطلق عليه اسم ماله ومن جهة المعنى إذا رجعوا من دفنه إنما يأخذون فى تقسيم المال إلى من له حق فرجع الاسم معه إلى وقت وصولهم إلى منزله وتوزيعه على من له فيه شىء فعند ذلك رجع المال لمن حصل له بعد يصح أن يقال تبعه ماله من جهة الحس ومن جهة المعنى وأما اتباع عمله له ففيه (بحث) أيضا وهو أن عمله قد رفع وكتب وموته جاء بعد نفاذ عمله ورفعه فكيف يكون المتقدم تابعا للمتأخر ﴿ فالجواب ﴾ أنه لما كان العمل وإن كان قد رفع فصاحبه به مطلوب وبه مأخوذ لا يمنعه عنه مانع حيث كان فصح أن تقول عنه تابع وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فى غير هذا الحديث « إن كان صالحا لم يتأنس الا به وإن كان سيئا لم يستوحش إلا منه » أو كما قال عليه السلام وقد جاء « إن العمل إذا كان صالحا دخل على المرء فى قبره فى صورة شخص حسن الصورة طيب الرائحة نورى فيأنس به من وحشة القبر فيقول له من أنت الذى قد من الله على بك فيقول له أما تعرفنى فيقول له لا أعرفك فيقول

له أنا عملك الصالح فى دار الدنيا لا أفارقك وإن كان العمل سيئا دخل عليه فى صورة وحشة منتنة ذو ظلمة فيستوحش منه زيادة لوحشة القبر فيقول له من أنت الذى روعتنى فيقول له أما تعرفنى فيقول له لا أعرفك فيقول له أنا عملك السيء فى دار الدنيا لا أفارقك» أو كما ورد عافانا الله من سيء الأعمال بمنه ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى الاخبار بهذا ونحن نشاهده ونعرفه فالحكمة فى ذلك من وجوه ﴿ منها ﴾ أنه إنما يعاين من جهة الادراك بالحواس رجوع الأهل والمال إنما يعرف من طريق الايمان بما أخبرنا من ذلك فاعادته هنا بعد العلم به لأن ذلك من لازم الايمان فهو تأكيد فى الأخبار حتى يوضح أمر الغيب عندنا فى ذلك مثل نشاهده حسا من الأهل والمال ومنه التنبيه على الاهتمام بتحسين العمل وإيثار الاشتغال به إذ هو الذى يبقى معنا وغيره يرجع عنا فتقديم من يبقى معك على من يرجع عنك ضرورى إن عقلت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الويل كل الويل لمن ترك عائلته بخير وقدم على ربه بشر» أو كما قال عليه السلام ﴿ ومنها ﴾ التنبيه إلى الزهد فى دار أنت خارج منها على هذه الحالة لا محالة والاقبال على دار ليس لك فيها إلا ما قدمته من هذه الذاهبة عنك فاغتنم زمان المهلة قبل وقت الندم ولا ينفع وتطاب الرجوع لتجبر فيقال لك فى «الصيف ضيعت اللبن» ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز اتخاذ الأهل والمال ولا يضران إذا كان العمل صالحا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ يتبعه ماله وأهله ﴾ فلو لم يكن ذلك جائزا ما جعله من التابعين له ويترتب عليه من الفقه أن يذكر الانسان بالخير وإن كان يعلمه ويحذر من الشر وإن كان يعرفه فان الغفلة غالبة علينا ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا تلاقوا يقول بعضهم لبعض تعالوا نؤمن أى نتحدث فى الايمان وأنواع تكليفاته لأن يذكر بعضهم بعض فيقوى إيمانه فيكون ذلك من باب التعاون على البر والتقوى كما قال جل جلاله (وتعاونوا على البر والتقوى) وفى هذا دليل لأهل السلوك فان هذا شأنهم إذا اجتمع أحد منهم مع صاحبه لم يكن أخذهم إلا فى الايمان وأنواع الأعمال والأحوال فان افترقوا اشتغلوا بما به تحدثوا أولئك الذين فهموا معانى الكتاب والسنة جعلنا الله من التابعين لهم باحسان بفضله

(٢٦٥) ﴿ حديث النهى عن سب الأموات ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا

ظاهر الحديث النهى عن سب الأموات والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا النهى على عمومه فى المؤمن والكافر أو فى المؤمن خاصة ﴿ فالجواب ﴾ أن ظاهر اللفظ يعطى العموم ومايفهم من قواعد الشريعة يخصصه بالمؤمنين لأن الكافر لا حرمة له فى حياته فكيف بعد مماته والمؤمن لما كانت غيبته فى الحياة ممنوعة أمر الشارع صلى الله عليه وسلم

يستصحاب تلك الحرمة بعد الموت وزاد ذلك بيانا بتعليله عليه السلام النهى بقوله ﴿ فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا ﴾ وفى تعليل النهى الذى نهى عنه عليه السلام دليل على تبيين تعليل الأحكام لمن تلقى إليه ليكون فى أحكام الله عز وجل على بصيرة ﴿ وفيه دليل ﴾ على فضيلة الايمان وحرمة أهله يؤخذ ذلك من نهيه عليه السلام عن سب الميت من أهل الايمان وإن كان مجرما ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز ذكر الموتى بخير لأن النهى عن الشىء دليل على جواز ضده على أظهر الأقاويل ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه حين خروج الميت من هذه الدار يلقى عمله والمجازاة عليه خيرا كان أو ضده يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا ﴾ كما نبهنا عليه فى الحديث قبل ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن ليس للمرء فى تلك الدار إلا ماقدم من هذه كما أشرنا إليه فى الحديث قبل يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام « أفضوا إلى ماقدموا » ويشهد لذلك قوله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى) وفى قوله عليه السلام فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا تنبيه لمن بلغه هذا النهى أن ينظر فى عمله خيفة أن يكون سيئا فيقدم عليه ولا بد له من الجزاء عليه فيكون فيه اجتماع أمرين أمر بابقاء حرمة المسلم بعد موته وإن كان مسيئا يستحق السب وتنبيه للحى أن ينظر فى صلاح عمله بينما هو فى دار المهلة خيفة أن يكون فيه مايسوءه فيتفضل حتى يقدم عليه فلا يقدر لخلاص نفسه بحيلة من الحيل ومن تبصر انتفع وإلا فالأمر جد والحاكم عدل ولات حين مناص

(٢٦٦) ﴿ حديث صفة أرض المحشر ﴾

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ

ظاهر الحديث يدل على أن الأرض التى يحشر الناس عليها يوم القيامة غير هذه الأرض وأنها بيضاء مستوية مدورة لم يتقدم فيها لأحد ملك ولا تصرف والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ماالحكمة فى إخبارنا بهذا أوهل هذه الأرض خلقت أولم تخلق بعد وإنما يكون خلقها فى ذلك الوقت وهل نفهم ماالحكمة أيضا بأن لايكون الحساب على هذه الأرض أوليس لنا طريق لذلك وما الفائدة بأن نعت صلى الله عليه وسلم تلك الأرض بصفتين ومعناهما واحد لأن عفراء معناها بيضاء ﴿ أماقولنا ﴾ ماالحكمة فى أن أخبرنا بذلك فاعلم وفقنا الله وإياك أن ذلك لوجوه منها أن فيه دليلا على عظم القدرة وما فيه مما يدل على صفة من صفاته عز وجل يقوى بها الايمان وكل ما فيه زيادة ما فى الايمان فهو من أعظم الفوائد والقرب إليه عز وجل ومنها

الاعلام بجزئيات ذلك اليوم حتى يكون المؤمن فى أمره على بصيرة فيتأكد تصديقه بذلك اليوم حتى يرجع العلم به كأنه عين يقين حتى إذا كان ذلك الوقت لم يزده الأمر شيئا غير أنه انتقل من علم اليقين إلى معاينته ويكون أيضا علمه بجزئياته عونا له على نفسه وعلى عدوه فى القهر لهما وأخذ الأهبة لما يخلص به نفسه فانه يكون علمه على يقين وتحفظ وذلك أزكى فى الأعمال وأبرك ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه «لو كشف الغطا ما ازددت يقينا» لأنه قد حصل له من العلم بذلك اليوم وجزئياته مالا يزيده العيان فيه شيئا ومثل ذلك ماقاله المؤمنون يوم الأحزاب (هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) وكان غير المؤمنين كما أخبر الله عز وجل (أعينهم تدور كالذى يغشى عليه من الموت) فشبه الفريقين فى ذلك اليوم كشبههم يوم القيامة ومعرفة جزئيات الأمر قبل وقوعه فيه رياضة النفس على حملها على مافيه خلاصها هناك وتهوينا عليها أيضا فى ذلك بخلاف الأمر إذا جاء فجأة ولا علم لها به يعظم الأمر عليها أضعاف ماهو وفوائد عديدة إذ تتبعتها ووقفت عليها وجدتها ﴿وأما قولنا﴾ على هذه الأرض خلقت أو إنما تخلق فى ذلك الوقت الذى يحتاج إليها فليس فى الحديث ما يدل على واحد من ذلك والقدرة صالحة غير أنه قد جا إن لله سبحانه ثمانية عشر ألف عالم والأخبار تقتضى أن تلك الأرض أكبر من هذه بدليل أنه قد جاء أن كل ما فى هذه الأرض وما عليها يحشرون يوم القيامة وكل من فى الأرضين السبع وكم من فى السموات من الملائكة وغيرهم وأن هذه الأرض بنفسها تحشر أيضا بدليل أن بقاعها تشهد بما فعل عليها من خير وغيره ولا تشهد إلا وهى حاضرة يشهد لذلك قوله عز وجل (يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها) ونستفيد من الاخبار بأن لله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم فان كانت تلك الأرض مخلوقة فتكون واحدة من هذا العدد المذكور وإن لم تكن مخلوقة فليست من هذه العوالم وتخلق بعد والله أعلم بحقيقة ذلك ﴿وأما قولنا﴾ هل تفهم الحكمة فى أن الحساب لا يكون على هذه الأرض فنقول والله أعلم أنه لما شاء القادر أن يستنطق بقاع الأرض بما فعل عليها فتكون شاهدة بذلك والشاهد إنما يكون وظيفته الاشتغال بأداء الشهادة و﴿وجه ثان﴾ وهو أنه لما كان ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق فينبغى بمقتضى الحكمة أن يكون المحل الذى يكون فيه ظاهرا كما يليق بالحكم وهذه الأرض قد توسخت بالمعاصى والمظالم والتخاصم فيها فلا يليق أن تكون ظرفا لذلك الأمر الحق والخطب العظيم ولوجوه أخر وهو أنه لما كان الحكم فى ذلك اليوم لله وحده خالصا بلا واسطة فينبغى من طريق الاجلال والترفيع لجلاله عز وجل والحكم الحق أن يكون المحل الذى يكون فيه ذلك الحكم الخاص لله وحده لا يتقدم فيها دعوى ملك لأحد وهذه فيها الدعاوى كثيرة ومما روى فى ذلك أن رجلين تخاصما فى أرض فأنطق الله تلك الأرض وقالت فيما ذا تختصمون وقد ملكنى قبلكم ألف أعور دون الأصماء أو كما ورد فمن الخصام والتشاجر فيها على هذا القدر الذى لا يعلمه إلا الله

تعالى فكيف يكون عليها حكم أعدل العادلين فتبدلها بتلك الأرض النقية بمقتضى الحكمة واحتمل وجه آخر وهو أنه لما كان ذلك اليوم يوم يتجلى الله سبحانه لعباده المؤمنين، ينظرون إلى وجهه الكريم فلا يكون تجليه عز وجل لعباده إلا وهم على أرض تليق بالتجلي واحتمل مجموع التوجيهات كلها وهذا هو اللائق بالحكمة والتعظيم لحكم رب العالمين وتجليه عز وجل لعباده فسبحان الذى خلق كل شيء وأتقنه ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الفائدة بأن نعت صلى الله عليه وسلم الأرض بصفتين ومعناهما واحد فانما فعل عليه السلام ذلك لرفع الالتباس لأن العرب تقول أسود كالح وأحمر قان وأصفر فاقع فذلك تحقيق لتلك الأسماء من أجل الاشتراك الذى يلحقها فى اللغة مع غيرها إذا لم يؤكدها بزيادة تلك الصفة الرافعة للاشتراك العارض لها وهذا مثله ويترتب على هذا من الفقه أنه ينبغى المتكلم أن يجرد ألفاظه ويحرزها من الاحتمالات الممكنة فيها وقوله نقية أى ليس فيها جبال ولا عليها شجر ولا نبات ولا فيها خنادق إلا مستوية وقد جاء أنها تمتد مد الأديم فدل هذا على حسن استوائها وفى كونها بيضاء دليل على أن البياض هو خير الألوان لأن ما اختاره الله عز وجل لانفاذ حكمه وتجليه لعباده من الألوان هو خيرها وقد قال صلى الله عليه وسلم «خير لباسكم البياض» ومامنها وجه من الوجوه إلا وفيه دليل على عظم قدرته سبحانه وعظم سلطانه تبارك وتعالى علوا كبيرا

(٢٦٧) ﴿حديث صفة الناس فى الحشر يوم القيامة﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ

ظاهر الحديث يدل على أن الناس يحشرون يوم القيامة بلا ثوب يسترهم ولا شيء فى أرجلهم يقيهم من ذلك الهول العظيم وأنهم يكونون على الحالة التى خرجوا عليها من بطون أمهاتهم غير مختونين ولا مقصوصة أظفارهم على وضع الخلقة التى كانوا عليها عند تمام خلقهم وهم فى الأرحام والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ ما الفائدة فى الاخبار بهذا وما الحكمة فى ذلك وما معنى يحشرون هل الجنس أو النوع ﴿أما قولنا﴾ ما الفائدة فى الاخبار بذلك فلوجوه منها المعرفة بأحوالنا فى ذلك الوقت وذلك مما يزيد فى قوة الايمان ﴿وفيه دليل﴾ على عظم قدرة الله عز وجل وذلك مما يوجب زيادة تعظيم جلاله سبحانه فى القلوب وهو مما يقرب العبد إلى مولاه ﴿وفيه إشارة﴾ إلى أن الخروج إلى الدارين أولا الفاضل والمفضول فى ذلك الوقت على حد سواء وبعد ذلك يكون الترفيع بالتفضيل بحسب ماشاء

الحكيم فخرجنا إلى هذه الدار عراة حفاة غرلا وفى تلك كذلك وبعد وقوع الأمر يكون التفضيل وقد جاء أن أول من يكسى يوم القيامة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعده من شاء الله على ما جاءت به الآثار فسبحان من أبهرت حكمته العقول ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فيه فهى والله أعلم تصديق لقوله عز وجل (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) وهى أيضا من أعظم الأدلة على عظم قدرته جل جلاله ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل السنة الذين يقولون أن التقبيح والتحسين ليس للعقل فيه مدخل وإنما ذلك بحسب ما حد وشرع لأن هذه الدار كشف العورة فيها ممنوع محرم قبيح ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى يحشرون يعنى هل النوع أو الجنس احتمل الوجهين معا لكن آخر الحديث يبين أنه الجنس وهو جواب صلى الله عليه وسلم إليها بقوله ﴿ الأمر أشد من أن يهمهم ذاك ﴾ فدل أنه صلى الله عليه وسلم أراد جنس الآدميين وفى قولها رضى الله عنها ﴿ الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ﴾ دليل على أن استصحاب الحكم معلوم عندهم ولا يترك بالمحتمل حتى يأتى أمر لا احتمال فيه ويترتب عليه من الفقه أن ما يقعد فى الأحكام بالنص لا يزال بالمحتمل وإن كان ظاهرا ويؤخذ من مراجعتها جواز مراجعة المفضول للفاضل إذا بقى عليه فى كلامه احتمال لكن يكون ذلك بأدب كما هو ظاهر كلامها وفى قوله صلى الله عليه وسلم الأمر أشد من أن يهمهم ذلك فوائد منها ما ذكرناه آنفا من تحقيق ما أراد عليه السلام بقوله يحشرون ﴿ ومنها ﴾ التخويف والارهاب من ذلك اليوم العظيم ليكون ذلك سببا للاستعداد إليه ﴿ ومنها ﴾ أن معاينة الأهوال العظام تنقل الطباع عن عادتها المألوفة لها لأن عادة البشرية إذا نظر الرجل إلى النساء وهن باديات العورات أن ذلك يحرك عنده شهوة الاستمتاع لهن وكذلك النساء أيضا إذا رأين الرجال على تلك الحالة وفى ذلك اليوم من عظم ما يعاينون من الأهوال انتقلت الطباع عن عادتها المعلومة منها ويترتب عليه من الفقه إن الخوف ان كان حقيقيا يذهب باغواء النفس وخدعها المعلوم منها وينقل الطباع السوء إلى الحسن والتقويم ولهذه هى الاشارة بقوله تعالى (ذلك يخوف الله به عباده يا عبادى فاتقون) فلولا أن الخوف يحدث فى الطباع السوء شيئا حسنا ما جعله الله تعالى سببا إلى تقواه الذى هو أجل الأحوال السنية ولذلك قال أهل السلوك إن القلب إذا خلا من الخوف خرب وقد ذكر عن بعض الرجال أنه كان إذا آوى الى فراشه يتذكر النار وما فيها فينتفى عنه النوم فيقوم إلى محرابه وينادى ويقول « اللهم إنك تعلم أن خوف نارك منعنى الكرى فيتم ليله مصليا » أو كما قيل ومثل ذلك عنهم كثير وقلة الخوف أوجب لأهل الدنيا التنافس فيها والغفلة عن هذا الخطر العظيم جعلنا الله ممن خاف فازدجر وتذكر فاعتبر وعمل وادخر بمنه وأسعدنا بذلك لا رب سواه

(٢٦٨) ﴿حديث العرق الذى يلحق الناس يوم القيامة من شدة هول الوقف﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ

ظاهر الحديث الاخبار بشدة الأمر الذى يلحق الناس يوم القيامة حتى يعرقوا فيذهب عرقهم فى الأرض سبعين زراعا ثم يلجمهم حين يبلغ آذانهم والكلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال هل هذا الأمر للناس عامة أو اللفظ عام والمعنى فيه الخصوص وهل الذراع المذكور فيه من هذا الذراع المعروف عندنا أو غير هذا ﴿أما قولنا﴾ هل هو على العموم فى جمع الناس أم لا ظاهر اللفظ يعطى العموم وقد جاءت أحاديث تخصصه فمنها أنه قد جاء « أن من الناس من يبلغ عرقه إلى الكعبين ومنهم إلى الركبتين وإلى وسطه ومنهم من إلى الصدر ومنهم من إلى الثديين ومنهم من يسبح فى عرقه » أى يعوم فيه أو كما ورد وقد جاء أن هنالك من لا يحضر تلك المواطن مثل الشهداء لأنه قد جاء أنهم يقومون من قبورهم إلى قصورهم أو كما ورد وقد جاء أن الأنبياء والرسل عليهم السلام على كراسى فى ظل عرش الرحمن وأن العلماء دون الأنبياء بدرجة والصديقين دونهم أو كما ورد وهذه كلها أخبار والخبر لا يدخله نسخ ويسوغ الجمع بينها أن يقال هذا الحديث هو حال الأغلب من الناس وأن غيرهم ممن ذكرناهم قوم مستثنون ممن ذكروهم قلائل وبقى هذا على عمومه فيمن بقى لأن الأكثر من الناس يوم القيامة هم الكفار كما جاء أن الله عز وجل يقول يوم القيامة لآدم عليه السلام « أخرج بعث النار من بنيك فيقول يارب وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد إلى الجنة » أو كما ورد ثم أصحاب المعاصى بعدهم وهم الذين دون الكفار فى العرق بحسب معاصيهم والله أعلم والذين يسبحون فى عرقهم أشدهم وقد يكونون من جبابرة الكفار ورؤسائهم فى الضلالة وهم بالنسبة إلى غيرهم قلائل لأنهم هم « الأريسيون » والله أعلم لأن بهذا التوجيه تستعمل جميع الأخبار وهو الأصلح عند أهل الحديث لأن الوجه الذى يمكن فيه جميع الأحاديث هو الأحسن عندهم إذا لم تكن أخبارا فاذا كانت أخبارا فمن باب أحرى فان الأخبار لا يمكن إسقاط أحدها لعدم النسخ فيه ﴿وأما قولنا﴾ هل الذراع هو هذا الذراع المعلوم عندنا فهذا هو الظاهر والله أعلم وإن كان بعض العلماء قد قال أنه بالذراع الملكى الذى هو ضعفان من هذا وهذا يحتاج إلى توقيف من الشارع صلى الله عليه وسلم والأظهر أنا لا نخاطب إلا بما هو معروف عندنا وإذا كان الخطاب بخلاف ذلك بين لنا بوجه نعرفه أو نعرف نسبته بتقريب ما هذا هو المتعاهد فى الشريعة غالبا وأما قوله صلى الله عليه وسلم ﴿يلجمهم﴾ أى يبلغ موضع اللجام وهو

أفواههم ﴿ وهنا إشارة ﴾ إذا نظرناها يزيد المرء بها تهويلا وتعظيما وهو أنه قد أخبر ﷺ « أن النار تدور بالمحشر كالخاتم بالأصبع وأن الشمس تقلب وجهها إلى الناس وتدنوا من رؤسهم حتى يكون بينها وبينهم قدر الميل » وهو المرود الذى يكحل به العين فانظر كيف يكون حرارة تلك الأرض التى يكون الناس عليها وماعسى أن يرونها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعا ثم بعد ذلك يلجمهم وكيف تكون حرارته فسبحان الذى حبس أرواحهم مع هذا البلاء العظيم أعاذنا الله منه بجاه نبيه محمد الكريم صلى الله عليه وسلم « تنبيه » إذا نظرت إليه تبين لك من عظم قدرة الله تعالى مايبهر العقول أنظر إلى إخباره عليه السلام بحالة هؤلاء فى عرقهم وتنويعهم على ماذكرناه بحسب الأخبار الواردة فى ذلك ومع هذا قد جاء « أن الناس يحشرون مثل السهام فى الجعبة قدم الرجل على قدم المرأة وقدم المرأة على قدم الرجل ولا يعرف أحدهم الآخر » فتأمل كيف يكون هذا القدر من اجتماع وتلاصق وهم متفاوتون فى العرق ومتفاضلون فى الآلام هذا مايبهر العقول ويدل على عظم قدرة الله تعالى وإن أمور الآخرة ليس للعقل فيها مجال وإنما تؤخذ بالقبول والتصديق الذى لاشك يدخله ولاريب ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولاعادة جارية ولا حكمة ولا بشىء من الأشياء ومن وقع له شىء من ذلك فهو دليل على حرمانه وخسرانه إلا أن يتداركه الله بالتوبة قبل الممات وفائدة الاخبار بهذا الحديث وأشباهه أن يتنبه السامع لها لنفسه ويأخذ فى الأمور التى تخلصه من هذه الأهوال على نحو ماشرع له ويلجأ إلى المولى الكريم بالصدق والضراعة الدائمة عساه يمن عليه بالعون على ذلك وينجيه من تلك الأهوال وإلا كانت الفائدة عليه معكوسة وظهرت إقامة الحجة عليه ببيان الأمر الذى هو سائر إليه وتبيين الطرق المنجية له من ذلك يشهد لذلك قوله جل جلاله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لأن الرسل عليهم السلام بينوا ماذكرناه فمن لم يفعل قامت الحجة عليه بالهلاك ولادافع له ولاواق منه أعاذنا الله من ذلك بمنه وفضله

(٩٦٢) ﴿ حديث الحث على الصدقة وأنها ترفع حر النار يوم القيامة ﴾

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما إخباره صلى الله عليه وسلم بأن مامنا من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان أى أنه يشافهه بذاته الجليلة بلاواسطة بينهما والآخر أشار له صلى الله عليه وسلم إلى أن يتقى النار بالصدقة ولو بما قل منها ولوشق تمرة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن فيه دليلا على أن احتجابه جل جلاله عن عباده بغير حائل حسى بل بقدرته عز وجل لا غير يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ ثم ينظر فلا يرى شيئا قدامه ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار ﴾ فلو كان الحجاب بشيء محسوس لكان الناظر يبصره وكذلك حجابه جل جلاله فى هذه الدار أيضا بالقدرة والعز والجبروت لا بالمحسوسات وما جاء فى ذكر الحجاب فى الحديث فتعظيم لملكة الملك الذى ليس كمثله شيء ومن ليس كمثله شيء فلا يحجبه شيء ومن هذا يستدل على أن المولى سبحانه ليس بمتحيز ولا فى جهة من الجهات فان كل من هو متحيز أو فى جهة من الجهات بحائل محسوس مرئى ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن رؤيته سبحانه أو كلامه أو ما كان من صفاته عز وجل إذا تجلى لعبده بذاته أو بصفة من صفاته لا يقدر أن يرى معه أو مع صفة من صفاته شيئا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ لا ينظر ﴾ وذلك بعد فراغه من سمع الكلام فدل على أن عند ما يتجلى عز وجل لعبده بصفة من صفاته وهى الكلام لم يمكنه مع ذلك أن ينظر إلى شيء ومما يقوى ذلك ويوضحه ما جاء فى الذين أكرمهم الله تعالى فى دار كرامته بدوام النظر إلى وجهه الكريم لأنهم لا يقدرون معه أن يلتفتوا إلى الجنة ولا إلى نعيمها ولا إلى الحور والولدان ولا لشيء من ذلك حتى يشكوا الحور والولدان إلى الله تعالى كثرة غيبتهم عنهم فيقول جل جلاله « إن الحور والولدان أن قد شكوا طول الغيبة فيقع الحجاب بينهم وبينه » فيرجعون إلى الحور والولدان ثم يستغيثون إلى الله سبحانه من الحجاب فيمن الله جل جلاله عليهم برفعه هكذا دأبهم أو كما ورد ﴿ فيه تنبيه ﴾ صوفى يدل على أن المحجوب هو الذى ينظر ويلتفت يؤخذ ذلك من أن هذا لم ينظر حتى حجب ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل الصوفة المتحققين المتبعين للسنة لأنهم يقولون الملتفت هالك يؤخذ ذلك من أن هذا لما نظر أمامه وبين يديه وهذه صورة الالتفات استقبله الهلاك وهو النار أعاذنا الله منها بمنه ﴿ وفيه دليل ﴾ على قرب النار من أهل المحشر يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام « ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار » فمن استقبله الشيء بين يديه فهو أقرب الأشياء إليه ﴿ وفيه دليل ﴾ على فضل الصدقة يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم أخبر أنها الواقية من النار بقوله عليه السلام ﴿ اتقوا النار ولو بشق تمرة ﴾ فاذا كانت هى الواقية من ذلك الأمر الخطر فدل ذلك على عظم فضلها وفى هذا دليل لأهل الصوفة المتحققين لأنهم بنوا طريقهم على كثرة البذل والايثار وقد قال صلى الله عليه وسلم عن الصدقة فى هذه الدار وفضلها فيها أيضا « ادفعوا البلاء بالصدقة » وجعله مطلقا من أى نوع كان أعنى دفع البلاء وقال عليه السلام « استعينوا على قضاء حوائجكم بالصدقة » أو كما قال عليه السلام فأخبر عليه السلام عنها بأنها فى الدارين دافعة لبلائهما بحسب ما ذكرناه آنفا وقد قال الله سبحانه فى كتابه العزيز ما يشهد لهذا (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما

عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) ﴿ وفيه دليل ﴾ على قبول الخير من العبد وإن قل يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام « ولو بشق تمرة » وبقى هنا إشارة وهى لمن هذا الخير هل لكل متصدق وبكل صدقة كانت من أى نوع كان كسب المتصدق بها أم لا ﴿ فالجواب ﴾ أنه ليس المراد ذلك بل ذلك للذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم على أوامر ربهم يحافظون بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « إن أول من ينظر فيه من عمل العبد الصلاة فان قبلت منه نظر فى سائر عمله وإلا لم ينظر فيه » أو كما قال عليه السلام فمن لم تقبل صلاته ولا نظر فى باقى عمله فأى شىء يقيه من النار وقد استوجب دخولها وكذلك كل فرض لم يفعله لم تغنه النوافل عنه واستحق بتركه دخول النار والعقاب على ذلك بقدر جرمه فكذلك إذا كانت الصدقة من مال غير طيب لم تقبله لقوله صلى الله عليه وسلم « ان الله لا يقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » وكذلك ان كان فيها شائبة لغير الله تعالى لا تقبل أيضا لقوله تعالى يوم القيامة لمن خلط فى عمله لغير الله شيئا « أنا أغنى الشركاء اذهب فاطلب الأجر من غيرى » فليتنبه المرء لنفسه وعمله ويصلحهما على حسب ما بينته الشريعة وأوضحته وإلا دخل تحت قوله عز وجل (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وبقى ﴿ بحث ﴾ فى قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ منكم ﴾ هل يعود ذلك على جنس بنى آدم أو هو لجنس المؤمنين ظاهر اللفظ محتمل وما جاء فى الكتاب العزيز يخصصه وهو قوله تعالى فى حق الكفار (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فبهذا يتخصص هذا اللفظ ويبقى الكلام للمؤمنين خاصة صالحهم وغيره وبهذا فرح أهل الصوفة وتنعموا لما أيقنوا بسمع كلامه جل جلاله بلا واسطة وتجليه سبحانه لعباده المؤمنين بلا حجاب حتى أنه قد روى عن رابعة العدوية أنها قالت أ ليس يوبخنى ويقول لى يا أمة السوء فعلت كذا وكذا أو كما قالت فهذا كان عندها من أكبر النعيم أن تسمع كلام الجليل بلا واسطة وإن كان بالتوبيخ فكيف به أن يكون بالعطف والتأنيس كما أخبر عز وجل فى كتابه بالقول لهم (وكان سعيكم مشكورا) يالله من فرح وسرور حارت لديه العقول جعلنا الله من أهله بمنه وفضله

(٠٧٢) ﴿ حديث خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود أهل النار فيها إلى الأبد ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ وَلِأَهْلِ النَّارِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما الاعلام بدوام خلود أهل الجنة وتأبيدهم فيها دواما لا انقضاء له دون موت يلحقهم فيها يشهد لذلك من الكتاب العزيز قوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم) والحكم الثانى الاخبار بدوام خلود أهل النار فى النار خلودا لا انقضاء له ولا موت يلحقهم فيها يشهد لذلك من الكتاب العزيز قوله تعالى

(خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما الحكمة فى أن أخبرنا بالخلود وما الحكمة فى أن أخبر بوصفين وكل واحد منهما يدل عليه الآخر لأن الخلود يدل على عدم الموت وعدم الموت يدل على الخلود ﴿ والجواب ﴾ أن فى الاخبار لأهل النعيم بدوامه زيادة فى نعيمهم ورفعا لتشويش يمكن وقوعه من خوف سلب ماهم فيه فيضاعف بتحقيق ذلك السرور عليهم ومثل ذلك أهل الشقاوة والعذاب تضاعفت الأحزان عليهم واشتد ألم العذاب عليهم لعلمهم بدوامه تضاعفت الحسرات والآلام ﴿ والجواب ﴾ عن الثانى هو أن فيه لأهل السرور تأكيدا فى الاخبار حتى لايبقى فيه احتمال بوجه من الوجوه ويحصل لهم بذلك أكبر النعيم وهو القطع بدوام نعم المنعم عليهم بلا تعب يلحقهم ولا ألم بوجه من الوجوه المحتملة بحسب ماعهدوا فى هذه الدار لأن نعيمها وإن دام لأحد فالموت يقطعه فأخبروا أن ذلك النعيم بخلاف هذا لأن دوامه لاينقضى ولا لهم فيها موت يقطعه ومثل ذلك فى ضده أهل دار الشقاء لأن يحصل لهم العلم أن عذاب تلك الدار دائم وأنه ليس كعذاب هذه الدار لأن عذابها وإن دام فالموت قاطعه كما قال السحرة لفرعون « إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » وهى منقطعة فلا نبالى بعذابك إفعل مابدا لك هذا بلسان الحال الذى هو أبلغ من لسان المقال وأنه ليس هنا موت يقطع لكم ما أنتم فيه فأيقنوا بدوام عقاب الله لهم ونقمه ثم مع هذا القدر من التحقيق فى الاخبار لم يكفهم ذلك حتى زيدوا أن يؤتى بالموت فى مثل كبش وينادى لأهل الدارين جميعا « هل تعرفون هذا فكلهم يقرون أنهم يعرفونه فيذبح عند ذلك بين الجنة والنار » وكل من أهل الدارين يعاينونه حتى يرجع لهم العلم بما قيل لهم من الخلود وعدم الموت عين يقين فينقطع إذ ذاك رجاء أهل النار من رحمة أرحم الراحمين ويرجع لأهل الجنة بدوام نعم الله عليهم ورحمته لهم عين يقين وفى هذا الحديث تضمن الاخبار الحث على الأعمال الموجبة لدار الخير والاحسان والنهى والتحذير عن الأعمال التى توجب الحيرة والهوان وهو حقيقة فقه الحديث وفائدته العظمى لمن فهم وإلا كان حجة عليه لاله (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) جعلنا الله ممن ذكر فوعى وسبقت له الرحمة بدار الرضى لارب سواه وهو الولى الحميد

(١٧٢) ﴿ حديث توبيخ الكافر يوم القيامة على عدم إيمانه بالله تعالى ﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَىْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِى بِهِ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِى صُلْبِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِى شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تُشْرِكَ بِى

ظاهر الحديث التوبيخ لأهل النار يقول الله جل جلاله لأقلهم عذابا ﴿ لو أن لك مافى الأرض من شيء أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقول أردت منك ماهو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لاتشرك بى شيئا فأبيت أن لا تشرك بى ﴾ والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال من هو المتكلم مع هذا وما معنى أردت منك وما الحكمة فى أن يكون الكلام مع أقلهم عذابا وما الفائدة لنا فى الاخبار بهذا ﴿ أما قولنا ﴾ من هو المتكلم مع هذا هل الحق سبحانه أوغيره عنه من شاء من ملائكته أوغيرهم احتمل الوجهين لأن العرب تقول كلمنى زيد عمرا وما كلمه إلا غلامه أو رسوله فاذا أرادوا الحقيقة فى أنه كلمه بنفسه قالوا كلمه بنفسه وقد يطلقون المجاز على الحقيقة فيقولون كلمه كلمه و بدون بنفسه فاذا لم يؤكد الكلام بالمصدر احتمل الحقيقة والمجاز وإذا أكدوه بالمصدر كان حقيقة ولا يمكن فيه المجاز والكلام هنا غير مؤكد فهو محتمل للوجهين معا والقدرة صالحة لذلك ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى أردت فهل بها الارادة حقيقة أى بمعنى ثان الارادة هنا ولا تكون إلا بمعنى الأمر لأنه سبحانه إذا أراد شيئا كان لاراد لأمره إذ الملك له سبحانه وتعالى لا يكون فى ملكه مالا يريد ولو أراد الله سبحانه وتعالى إسلام الكافر لكان سلما لكن لم يرد عز وجل ذلك منه مع أمره له به فالفرق بين الأمر والارادة ظاهر بين وقد يعبر بالارادة عن الأمر وذلك موجود فى لسان العرب وعلى هذا تأولوا قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) أى لآمرهم وأنهاهم وإلا فلو كان خلقهم لارادة العبادة منهم لكانوا عن آخرهم وكذلك لأنه لا يقع فى الوجود غير مايريد سبحانه وتعالى والله الموفق ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل السنة الذين يقولون بأن العبد له إرادة ولولا ذلك ما اقتضت الحكمة تكليفه لكن هى متعلقة بارادة الله عز وجل وحكمته فى عباده ويشهد لذلك قوله عز وجل (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) فأثبت عز وجل بهذا لعبده مشيئة ثم أعقب ذلك بقوله تعالى (وما تشاؤن إلا أن يشاء الله) فعلق عز وجل مشيئة عبده بمشيئته سبحانه فصح بمداول الآيتين التكليف بمقتضى الحكمة ونفوذ حكمه عز وجل فى عباده بالحق الواجب وتصرفه جل جلاله فيهم بالقدرة القاهرة التى لا يبقى لأحد حجة بل لله الحجة جميعا فيامعشر المبطالين والملحدين (أنفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) فى سكوت هذا المعذب المخاطب الذى كذبت دعواه دليل على ظهور حجة الله عز وجل على عباده فى الآخرة ولا مخالف منهم فى ذلك يؤخذ ذلك من أنه من يكون يبلغ به شدة العذاب أن لو كان له مافى الأرض جميعا افتدى به فسكت إذ ذاك ولم يدع حجة فلو كانت له حجة يقدر أن يدفع بها عن نفسه ماسكت عنها لا يشك فى ذلك من له عقل ولذلك جاء أنه لا يدخل أحد النار إلا وهو راض عن الله عز وجل لما يرى من ثبوت الحق عليه وأنه مستحق بما يفعل به ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى الكلام مع من هو أقل عذابا منهم فهو إعلام لنا بتهويل الأمر

وعظمه فانه إذا كان هذا حال من هو أقلهم عذابا فما بالك بالذى هو أشدهم عذابا لايجد مايفتدى به أن لو قيل فلا شيء يعدل ماهو فيه وقد يمكن أنه لايقدر أن يتكلم للهول الذى هو فيه ومايوافق هذا الحديث من الكتاب قوله عز وجل (لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم) ﴿ وأما قولنا ﴾ ماالفائدة بأن أخبرنا بذلك فلوجوه منها الاشارة إلى حقارة الدنيا وجميع مافيها من متاعها لأنه إذا كانت هى وجميع ماذكر لايؤخذ فداء عن أقل أهل النار عذابا فأى شيء خطرها وقد جاء مايوضح ذلك ويزيده بيانا وهو أنه « إذا كان يوم القيامة تقول الدنيا يارب اعطنى لبعض أوليائك فيقول لها جل جلاله اذهبى يالاشيء » أوكما ورد وقد قال صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء » أوكما قال عليه السلام ومنها التحذير عن هذا الأمر الخطر الذى لايؤخذ فيه فداء ولايخلص منه شيء ولا يقدر عليه وفيه حض على الوفاء بالعهد الذى قد ألزمناه أنفسنا وإن هذا عاقبة من نكثه وفيه الاعلام بعظم قدر الايمان بالله تعالى وأنه هو الذى ينجى من ذلك الأمر العظيم لابغيره ولو كان ماعسى أن يكون قال الله عز وجل فى كتابه (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وفيه أيضا الاخبار بتيسر الايمان على من وقف لأنه ليس هو الاعتقاد بالقلب وهذا شيء لاتعب فيه ولولا ذلك ما كان الله عز وجل يقول (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما) ﴿ وفيه دليل ﴾ على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذ ذلك من هذا الخبر العظيم القدر الخفيف الحمل لايقدر عليه من حرمه الله منه ويجده عليه أثقل من الجبال الرواسخ فسبحان من خص بالسعادة من شاء بفضله وقضى على من شاء بالشقاوة بعدله ﴿ وفيه إشارة ﴾ إلى أهل الايمان الذين من الله عليهم به بفضله إلى أن يشكروه على نعمة الايمان لعلها تبقى عليهم ويزدادون منها لأن الله عز وجل يقول (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن القدرة طبعت البشرية على طلب راحة نفوسها يؤخذ ذلك من أن هذا المعذب لو وجد ماعسى أن يجد كان ببذله فى راحة نفسه وهذا المطلب هو الذى أشقى أهل الدنيا لأنهم أرادوا ماطبعت عليه النفوس من طلب راحتها فلم يحسنوا طلب ذلك وأرادوا استعجال الراحة فى غير موضعها فلحقهم التعب فى الدارين معا وجاء أهل السلوك والتوفيق فأبصروا مواطن الراحة وكيف الطريق إليها فعملوا على ذلك فنالوا الراحة فى الدنيا والآخر حتى إنه قيل لبعض المتعبدين ألك كثير ماتتعب نفسك فقال لهم راحتها أريد وقال الامام أبو حامد الغزالى رحمه الله مساكين أهل الدنيا طلبوا الراحة فأخطوا الطريق فاستقبلهم العذاب بين ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن والرغبة فى الدنيا يكثر الهم والحزن » أوكما قال عليه

السلام جعلنا الله ممن رزقه راحة الدنيا والآخرة بمنه

(٢٧٢) ﴿ حديث النهى عن النذر وفيه خمسة أحكام ﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّذْرِ وَقَالَ إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْأً وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ مَالِ الْبَخِيلِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما النهى عن النذر والآخر إخباره صلى الله عليه وسلم أن النذر لا يرد شيأ من القدر وإنما يستخرج به من البخيل والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل النهى على الوجوب أو الكراهية وقوله هذا على عموم النذر أو من النذر المعين وما معنى يستخرج به من مال البخيل ومن المستخرج له ومن هو البخيل وأى شيء العلامة التى نعرفه بها وما معنى لا يرد شيأ وما الشيء الذى لا يرد ﴿ أما قولنا ﴾ هل النهى على التحريم أو الكراهية اللفظ يحتمل لكن ما جاء فى الشرع من الزام النذر لمن نذره والوفاء به يدل على أن ذلك ليس بحرام لأنه لو كان حراما ما ألزم صاحبه الوفاء به لأن الله عز وجل يقول فى كتابه « يوفون بالنذر » فمدحهم بالوفاء بالنذر ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا على العموم فى جميع وجوه النذر أو هو على الخصوص فى وجه من وجوهه فاعلم أن النذر على خمسة وجوه منه حرام لا يجوز وما لا يجوز فعله لا يجوز نذره ولا الوفاء به وقد جاء « لا نذر فى معصية » ومن نذره هل يلزمه كفارة يمين أم لا قولان للفقهاء ومنه نذر لا يلزم الوفاء به ولا على قائله شيء وهو نذر ما لا يملكه لقوله صلى الله عليه وسلم « لا نذر فيما لا يملك » أو كما قال عليه السلام ومنه نذر مباح إن شئت فعلت وإن شئت لم تفعل ولا شيء عليك وهو ما نذرت من الأفعال المباحات من أن تنذر أن تمشي اليوم للسوق أو تلبس الثوب الفلانى أو ما فى معناه ومنه نذر مستحب وهو أن تنذر لله طاعة ولا تعلقها بشيء تطلبه من الله تعالى بفعله لك فيلزم الوفاء به والدليل على لزوم ما كان منه طاعة بغير عوض تطلبه وترك ما هو غير طاعة لله ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم « أنه مر على ناس مجتمعين على شخص قائم فى الشمس فقال ما بال هذا فقالوا إنه نذر أن لا يتكلم ولا يستظل ولا يجلس ويصوم فقال مروه فليتكلم وليستظل وليجلس وليتم صومه » أو كما قال عليه السلام وكل ما كان من طريق المباح وكان عليه فيه مشقة لم يلزمه منه شيء والذى كان لله فيه طاعة وهو الصوم أمره باتمامه وأما المكروه منه فهو الذى الاشارة إليه فى هذا الحديث وهو الذى ينذر النذر وهو يعتقد أنه يرد عنه شيئا يخافه أو يجلب إليه شيئا يحبه ويعتقد أن ذلك يؤثر على زعمه فهذا لا يرد عنه شيئا يكرهه ولا يقرب إليه شيئا يحبه فأما إن كان نذره ذلك على طريق الشكر لله وهو أن يقول إن قدر لى بكذا وكذا الشيء يحبه أو يدفع عنى لشيء يكرهه فلله على شكر هذه النعمة كذا وكذا لشيء

يسميه من أنواع البر فذلك من قبيل الحسن وقد فعله علي وفاطمة رضي الله عنهما فانه مرض الحسن والحسين فقالا إن شفاهما الله تعالى نصوم شكرا لله تعالى ثلاثة أيام فلما شفاهما الله وأخذوا في صوم نذرهما فعند فطرهما جاء مسكين إلى الباب فأخرجا له جملة طعامهما وطويا ليلتهما وأصبحا صائمين فعند فطرهما أيضا جاءهما يتيم فأخرجا له جميع طعامهما وطويا الليلة الثانية فأصبحا صائمين فعند فطرهما جاءهما أسير فاعطياه أيضا جميع طعامهما وطويا الليلة الثالثة فأنزل الله عز وجل في حقهما (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) ﴿ وأما قولنا ﴾ مامعنى يستخرج به من البخيل ومن المستخرج له ومن هو البخيل وما علامته فأما البخيل شرعا فهو الذي يبخل بزكاة ماله ومافرض عليه هذا قول فقهاء الدين وأئمته وأما من المستخرج له فالقدر المحتوم عليه بوساطة الشيطان وتسويله لأن الله عز وجل جعله واسطة لكل شر مقدور كما جعل الرسل عليهم الصلاة والسلام الوسائط إلى كل خير مقدور وكذلك متبعوهم باحسان إلى يوم الدين ﴿ وأما قولنا ﴾ مامعنى استخراجه فهو ذهابه عن يده ﴿ وهنا إشارة ﴾ إلى أنه من كان على السنن المباركة والطريقة المرضية فلا يخرج ماله إلا فيما يرضى ربه ويعود عليه نفعه في الدارين ومن كان غير ممتثل لأمر ربه يخرج ماله إما فيما لا يرضى ربه أو فيما لا ينفعه حتى تكون النفقة بحسب الحال (الخبيثات للخبيثين) الآية بكمالها يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم « من جمع مالا من تهاوش أذهبه الله في نهابير » أو كما قال عليه السلام ﴿ وأما قولنا ﴾ لا يرد شيئا ما معناه فهو بمعنى أنه لا يرد عنه شيئا قدر عليه وكما لا يرد عنه شيئا قدر عليه كذلك لا يوصل إليه شيئا لم يقدر عليه بخلاف الصدقة لأنه قال صلى الله عليه وسلم « ادفعوا البلاء بالصدقة واستعينوا على قضاء حوائجكم بالصدقة » وهنا ﴿ بحث ﴾ هذه الصدقة تدفع البلاء وتأتي بالحوائج والنذر صدقة أيضا ولا يرد شيئا من البلاء ولا يأتي بشيء من الخير لأن تيسير الحوائج من أعلا وجوه الخير ﴿ والجواب ﴾ من وجهين (أحدهما) أن الأحكام لله سبحانه يحكم ما يشاء كيف يشاء وليس ذلك لغيره فمن جعل لشيء حكما من الأحكام من تلقاء نفسه أو رأيه لم يصح من ذلك شيئا فشاء الحكيم أن جعل للصدقة هذه المنزلة المباركة ولا يلوم إليها إلا من سبقت له سابقة خير ولم يجعل للنذر الذي هو من قبيل المكروه كما تقدم في الفائدة شيئا غير الاستخراج من البخيل (والوجه الثاني) من طريق النظر وكيف يجب أن يكون أدب العبودية مع الربوبية وهو أنه لما أمر الله عز وجل بالصدقة وأخبر أنها ترد البلاء فجاد هذا العبد بماله الذي هو معلق بقلبه تصديقا لوعد مولاه ورجاء في فضله في دفع ما يخافه أو تيسير ما يرجوه فجاد الله تعالى عليه بما أمله من ذلك

بفضله وجاء صاحب النذر المكروه وأساء الأدب مع مولاه وقال إن أنت دفعت عنى ما أخافه من كذا أوبلغتنى ماأريده من كذا لشيء يسميه فانى أعطيك من مالك الذى خولتنى وقد حبست منه الحقوق التى أمرتنى بها كذافلسوء أدبه لم ينفعه نذره شيئا وأخرج ماله عن يده ولم يبلغ به ماأمله عقابا على سوء أدبه وتعديه فى منع ماأمره به ويترتب على هذا من الفائدة أنه لاينال ماعند الله إلا بما أمر به ونهى عنه وحد وشرع من الواجبات والمندوبات والمستحبات لا بغير ذلك جعلنا الله ممن هدى إلى مابه أمر وجنبنا البدع والآثام بمنه

(٢٧٣) ﴿حديث الأمر باتمام الصيام لمن أكل ناسيا﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَكَلَ نَاسِيًا وَهُوَ صَائِمٌ فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ

ظاهر الحديث يدل على أن الأكل ناسيا وهو صائم أنه لاشيء عليه فى ذلك ويمسك بقية يومه وصومه مجزىء عنه والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذا على العموم فى الفرض والنفل أوفى النفل فقط وهل يقصر ذلك على الآكل وحده أو يتعدى إلى غيره من مفسدات الصوم إذا فعلها ناسيا وهل يكون ذلك فى المرة الواحدة فى اليوم الواحد وإن تكرر الفعل منه مرارا فى اليوم الواحد ينتقل الحكم إلى حكم ثان أوالحكم واحد وأن يكون ذلك منه مرارا فى اليوم الواحد وهل هذا أيضا لمن يندر منه النسيان ولمن هو مستنكح بالنسيان على حد واحد وهل هذا خاص لمن يندر منه النسيان لاغير ﴿أماقولنا﴾ هل ذلك على العموم فى صوم الفرض والنافلة أولا فقد اختلف العلماء فى ذلك فمذهب الشافعى ومن تبعه أن ذلك على العموم فى الفرض والنفل ومذهب مالك ومن تبعه أن ذلك فى النفل لاغير وتعليله فى ذلك والله أعلم الأخذ فى الجمع بين الآية والحديث فأما الآية فقوله عز وجل (فمن كان منكم مريضا أوعلى سفر فعدة من أيام أخر) فأوجب الله عز وجل القضاء على المريض والمسافر والناسى فى معنى المريض لأن النسيان من جملة الأمراض إذ أنه عاهة تلحق الذهن الذى هو المقصود من الشخص حتى ينسى ماهو مشروع له ومكلف به فتقع منه المخالفة فى ذلك والنسيان من جملة ماامتحن به بنوا آدم وقد قال الله عز وجل فى حقه (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) قال أهل العلم فى ذلك سلط عليه النوم والنسيان فكانا عاهة تلحقه فى حسن خلقته لحكمة اقتضتها حكمة من لايشبهه شيء وأما الحديث فهو الاحتمال الذى يتطرق للحديث الذى نحن بسبيله عند قوله عليه السلام ﴿فليتم صومه فانما أطعمه الله وسقاه﴾ فز هذا الاتمام لايكون معه إعادة لعدم قصده

الأكل والشرب أوهذا الأمر من أجل حرمة الصوم لا يستبيح الأكل لكونه قد أكل ناسيا وانقطع عليه صومه فيتم اليوم مستصحبا للأكل والشرب فأمره عليه السلام باستصحاب الامساك وإن كان قد أكل لحرمة الصوم ولعدم قصده الأكل ويبقى الأمر بالقضاء لذلك اليوم بالقاعدة المتقدمة ، أصل مذهبه « سد الذريعة » وهى الأخذ بالأحوط فى النوازل وهو أبرأ للذمة واستعمل الحديث على ظاهره فى النافلة فوقع له الجمع بين الآية والحديث ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يقصر ذلك على الأكل وحده أو يتعدى إلى غيره من مفسدات الصوم إذا فعلت نسيانا فالكلام على هذا يحتاج إلى تقسيم المفسدات للصوم ، المتفق فيها والمختلف فيها فاعلم أن مفسدات الصوم ثلاثة الأكل وما فى معناه من الشرب أوما يجرى مجراهما وهذا قد يقع بالقصد وقد يقع بالنسيان وأما الجماع فهو يفسد الصوم بذاته وهل يقع ذلك على طريق النسيان أم لا قولان وذلك للخلاف فى أسبابه هل حكمها حكم الجماع نفسه أم لا قولان والثالث الغيبة وهذا مختلف فيه فالجمهور على أنها ليست تفطر الصائم بل هى من جملة الكبائر وهى فى حق الصائم أشد ومن العلماء من يقول أنها مفسدة للصوم وإن كانت من المفسدات للصوم فليس الواقع فيها معذورا بالنسيان فلا يدخل تحت ما نحن بسبيله وبقى الكلام على الأكل والجماع لا غير فمن يقول إن الجماع يقع بالنسيان كما يقع بالأكل والشرب فيلزمه تعدى الحكم وهو مذهب مالك رحمه الله ومن تبعه فانه يجعل فى عمده وعمد الأكل والشرب القضاء والكفارة وفى نسيانه ونسيان الأكل والشرب القضاء لا غير ومن قال إن النسيان لا يمكن فى الجماع وهو مذهب الشافعى رحمه الله ومن تبعه فلا يجرى فيه هذا الحكم ويكون حكمه كله عنده حكم العمد فيلزمه القضاء والكفارة ﴿ وأما قولنا ﴾ هل ذلك لمن وقع منه فى اليوم الواحد مرارا أوليس إلا لمن وقع ذلك منه مرة واحدة فى اليوم الواحد اللفظ يقتضى العموم مهما وقع ذلك منه على وجه النسيان حقيقة فالعلة بعينها موجودة فالحكم كالحكم على حد واحد ﴿ وأما قولنا ﴾ هل ذلك على العموم أيضا يتناول كل إنسان النسيان يندر منه أو كان مستنكحا به ظاهر اللفظ يقتضى العموم وما يعرف من قواعد الشرع من الأحكام خلاف ذلك لأن الأحكام لم تأت إلا على الغالب من أحوال الناس وعاداتهم الجارية والعادة من الناس فى أمر النسيان إنما يندر من الشخص مرات يسيرة وأما الذى هو مستنكح به فنادر فينبغى أن يحتاط لذلك لأن ذلك علة بنفسها ﴿ ولوجه آخر ﴾ وهو مما عرف من فعله صلى الله عليه وسلم أنه لما سحر وكان يظن أنه فعل الشىء ولم يكن فعله جعل يسأل أهله هل فعلت كذا أم لا فيعمل بحسب ما يقولون له فى ذلك فدل بهذا أن هذا هو حكم الذى يستنكحه السهو فبين عليه السلام بما فعله هنا هذا الحكم كما بين عليه السلام بقوله فى الذى يندر منه السهو ولذلك قال الفقهاء فى الذى لا يمكن أن يعقل من طهارته أو صلاته شيئا بنى عليه لكثرة استيلاء السهو عليه أنه يجعل شاهدين عند تلبسه

بالعبادة ويعمل على حسب مايقولانه له ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا على وجوه الندب أو الوجوب فهذا موضع بحث والخلاف فيه محتمل ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المتكلم ينبغى له مراعات من يفهم ومن فهمه بطىء ليجتمع للكل الفائدة المقصودة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام أول الحديث ﴿ من أكل وهو صائم ﴾ ثم قال فى أخره ﴿ فانما أطعمه الله وسقاه ﴾ واللفظ بحكم الأكل والشرب حكم الشرب كله أكل ومما يبين ذلك ماروى فى الحديث أنه كان صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاما وفرغ منه حمد الله وقال «اللهم أبدلنا خيرا منه» وإذا أكل لبنا وفرغ منه قال «اللهم زدنا منه» واللبن مما يشرب فسمى شربه أكلا لكن لما كان الأكل يحمل على ظاهره فيما يؤكل دون مايشرب أتى فى الحديث بقوله «فانما أطعمه الله وسقاه» ولهذا وقع الخلاف بين العلماء فى الحديث الذى ذكر فيه أنه أتى صلى الله عليه وسلم بصبى لم يأكل الطعام فبال على ثوبه فقال بعضهم لم يكن شرب من لبن أمه شيئا وأتى به ليكون أول مايدخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم معنى لم يأكل الطعام أنه كان يرضع اللبن ولم يأكل الطعام الذى هو خلاف اللبن فأزال عليه السلام بقوله فانما أطعمه الله وسقاه الخلاف فى ذلك حتى اجتمعوا فى فهم الفائدة جميعا فسبحان من أيده بالفصاحة والبلاغة ﴿ وهنا إشارة ﴾ فى النظر فى هذا الحديث وما هو فى معناه وفى المعارض له وما يترتب على ذلك من الفائدة لمن له فهم وعقل راجع النظر كيف عذرنا بالنسيان فى هذه العبادة العظمى وأبقى لنا حكمها ومافيها من الخير والأجر مع وقوع المخالفة منا بالفعل لذلك وكذلك إذا تتبعت قواعد الشريعة تجدنا بفضل الله قد عذرنا فى النسيان وما عليه استكرهنا بمثل قوله صلى الله عليه وسلم «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وماستكرهوا عليه» أوكما قال عليه السلام وقال الله سبحانه فى شأن الايمان الذى هو أصل الدين (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) وهذا كله تجده فى الأمور التى بين العبد وبين مولاه وأما المعارض لهذا فهو ماجاء فى عدم العذر بالنسيان فى الأمور التى بين العبيد فتجدنا قد أخذنا فيها بالنسيان والخطأ يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الخطأ والعمد فى أموال الناس سواء» وما جعل فى قتل الخطأ من غرم العاقلة دية المقتول وما جعل فى جرح الخطأ من عدم أرشه بدلا من القصاص فيه وما جعل فى الغيبة من الاثم فى الخطأ والعمد سواء فلم يسامح فى الحقوق التى بيننا كما سومحنا فى الحقوق التى بيننا وبين مولانا جل جلاله على مافسرنا قبل ويترتب على ذلك من الفائدة المحافظة على حقوق الغير لأن تبقى ذمته منها خلية فيكون القصاص أهون عليه فان وافق مع ذلك لتوفية حقوق مولاه فتلك الدرجة العليا وإن نقصه منها شىء على طريق النسيان أو ماغلب عليه بالاستكراه فالعذر له عند مولاه قائم وإن كان ذلك بالقصد فالخروج منه يسير بفضل الله وهو وقوع التوبة ولو عند آخر نفس بخلاف حقوق الغير فان الخلاص منها إذا ترتبت فى الذمة عسير جدا أعاذنا الله من ذلك

بمنه ولهذا كان أهم ما عند أهل السلوك التحفظ على براءة الذمة وحينئذ يأخذون فى العبادة والترقى وإلا عسر عليهم الأمر من هذا الباب وفيما ذكرناه دليل على استغناء الله عز وجل عن عبادة العابدين وتنزيهه عن الضرر بمعصية العاصين لأنه لو كان محتاجا لشىء من ذلك أو يتضرر بشىء منه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا لكان الأمر بالعكس فيكون الذى بين العبد وربه الحكم فيه أشد من الذى بين العباد بعضهم مع بعض فسبحان من بذاته تنزه عن الغير وبها جل وتعالى

(٢٧٤) ﴿ حديث حكم جلد الميتة بعد دبغه ومذهب العلماء فيه ﴾

عَنْ سَوْدَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ مَاتَتْ لَنَا شَاةٌ فَدَبَغْنَا مَسْكَهَا ثُمَّ مَازِلْنَا نَنْبِذُ فِيهِ حَتَّى صَارَ شَنًّا

ظاهر الحديث يدل على أن الدباغ يطهر جلد الميتة ويجوز إستعماله والانتفاع به والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا التطهير عام أو فى وجوه مخصوصة وهل الانتفاع به عام أيضا أو خاص ﴿ أما قولنا ﴾ هل الطهارة فيه عامة أو خاصة ففيه خلاف بين العلماء وإن كان اللفظ محتملا لذلك فمذهب مالك ومن تبعه أنها خاصة ومذهب الشافعى ومن تبعه أنها عامة ويقوى مذهبه فى ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث غيره « أيما إهاب دبغ فقد طهر » ﴿ وأما قولنا ﴾ هل الانتفاع عام فى كل الوجوه أو خاص فى ذلك خلاف فمذهب الشافعى ومن تبعه أن الانتفاع به عام فى كل الوجوه وبيعه جائز ومذهب مالك ومن تبعه أن الانتفاع به خاص فى اليابسات ولا يستعمل فى المائعات إلا فى الماء وحده ومن أجل هذا الحديث جعل قولها فننبذ فيه مبينا ومخصصا للوجه الذى يستعمل فيه وعند الشافعى كونهم استعملوه لأن ينبذوا فيه حكم الوفاق وأن ذلك لا يعتبر ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن تملك المال واقتناء الماشية لا يخرج عن الزهد لأن سيدنا صلى الله عليه وسلم قدوتهم وقد كانت الشاة عندهم حتى ماتت حتف أنفها وفيه رد على من يزعم أن الزهد إنما هو بالخروج عن جميع ما يتملك وهذا يحكم بغير دليل وقد بين صلى الله عليه وسلم هذا أتم بيان بقوله « ليس الزهد بتحريم الحلال وإنما الزهد بأن تقطع إياسك مما فى أيدى الناس وأن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك » أو كما قال عليه السلام فحقيقة الزهد أمر قلبى والاشارة فى ذلك حتى لا يكون فى القلب ميل إلى الدنيا ولا إلى حطامها وإن كان فى يدك منها شىء كما قيل فى وصف القوم استوى عندهم بذرها وذهبها وفضتها وجميع متاعها أى أنهم لا يبالون بشىء من ذلك وإن تصرفوا فيها فبحسب امتثال الأمر كما ذكر عن بعض السادة أنه كان له غنم وبقر فسمع بعض الناس عنه فأتى لزيارته فدخل عليه والغنم التى كانت له والبقر قد خرج بها الرعاة وهو مشمر يجعل العجاجيل فى بيت ويغلق عليها ومحال الغنم فى بيت ويغلق عليها وهو يرمى بدجاج كانت عنده علفها فقال

الشخص فى نفسه هذا الذى يوصف بالزهد وهو يحرص على الدنيا بمثل هذا الحرص فرفع إليه رأسه وقال يابنى ليس هذا هو الحرص وإنما أنا أرفق بهؤلاء الضعاف فان أمهاتهم قد خرجوا وهم لايطيقون المشى معهم وهؤلاء أعطيهم قوتهم فانى عنهم مسئول وأخبره بأشياء كانت فى خاطره فاستحى ذلك الشخص وحصل له حال مبارك وإنما هرب من هرب من رؤية حطامها وتملكه لأنه رأى نفسه أنه لايقدر أن يعرض عما فى يده فتركه من أجل تلك العلة هذا حال غير المتمكنين وأما من تركه وهو يظن أن ذلك عين الزهد فليس الكلام عليه وقد أقمنا عليه الحجة قبل ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن من السنة تنمية المال يؤخذ ذلك من أخذهم جلد الشاة ودبغه ولم يتنزهوا عنه مع كثرة كرمهم صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين وقد جاء هذا نصا منه صلى الله عليه وسلم بقوله « إن الله نهاكم عن إضاعة المال وكثرة السؤال والقيل والقال » أو كما قال عليه السلام ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن من السنة استعمال أثر الحكمة إذا قدر عليها يؤخذ ذلك من قولها ﴿ ننبذ فيه ﴾ فان ذلك مما يوافق هواهم فهذا استعمل أثر الحكمة وقد كان صلى الله عليه وسلم فى وقت غير هذا يقعد الشهر والشهرين وليس لهم طعام إلا الأسودين التمر والماء ويترتب على هذه الآثار المختلفة عنه عليه الصلاة السلام فى تطوير أحواله المباركة أن السنة إذا وجد العبد بما يفعل به أثر الحكمة أن يستعمل من الأطعمة والأشربة مايصلح به مزاجه لأن يكون ذلك عونا له على عبادة الله لأن ذلك الأقرب إلى الله عز وجل وهو فى ذلك متبع للسنة وإذا لم يجد على ذلك قدرة لايشغل نفسه بطلب ذلك والاهتمام به إلا أنه يرضى بما تيسر له فى الوقت من رخاء وشدة ويوافق فى ذلك القدر بالتسليم والرضا ويعلم أن القدرة قد تبلغه بغير أثر الحكمة أكثر مما يبلغ به أثر الحكمة فى ذلك النوع بحسب ماجرت به العادة له أو مثل ذلك أو أقل لاتتوقف قدرة القادر عن شىء عجزا ولا بخلا ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لأهل السلوك فى اقتدائهم العجيب الذى لايقدر أحد أن يضاهيهم فيه ومما يحكى فى ذلك أن بعضهم مرض من إنزال الدم فعجز عن محاولة أمر نفسه وكان له أخ فى الله مبارك وكان قادرا على وقته فوقع له أن يمر إليه ويكون مرضه عنده فلما دخل عليه فرح به فأول طعام قدم له لحما بخل فقال فى نفسه وكيف يوافق هذا المثل هذه الشكاية من طريق أثر الحكمة ثم قال لنفسه القدرة صالحة لما شاءت وأنت قد أتيت إليه من أجل الله فلا ترد عليه ولا تمتنع عما يسوق لك فهو أبصر فأكل ذلك الطعام وبقى أياما متواليات لايأتيه إلا بذلك الطعام أو مثله مما هو مخالف لشكايته وشكايته كل يوم تنقص حتى برئت فى أقرب زمان وحينئذ رفع عنه أكل طعام الخل ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز دوام أكل الطيب من الطعام إذا وجد وليس بمناف للزهد ولا للعبادة يؤخذ ذلك من قولها ﴿ مازلنا ننبذ فيه ﴾ فدل ذلك على دوامهم للانتباذ وهو من أطيب شرابهم بحسب أهوية بلادهم وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه

كان يأكل الطيب من الطعام فى وقته والغليظ منه ولم يذم قط طعاما ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز تخصيص بعض الأوانى ببعض الأطعمة إذا رأى صاحبها فى ذلك مصلحة يؤخذ ذلك من قولها مازلنا ننبذ فيه حتى صار شنا أى باليا فدل ذلك على اتخاذهم ذلك الجلد للانتباذ وتخصيصه به ودوام ذلك حتى صار باليا ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز إضافة الشىء إلى الشخص بأدنى ملابسة مايؤخذ ذلك من قولها ﴿ شاة لنا ﴾ ومازلنا ننبذ فيه بصيغة الجمع والشاة إنما كانت لصاحب البيت أولها فلما كان كل مايكون فى البيت وإن كان الذى يملكه واحد لكن تعود المنفعة فيه على الكل حصل فيه بلازم جرى العادة اشتراك ما فجاز أن يضيفه الشخص إلى نفسه مع الذى هو مالك له ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المصائب تصيب الرفيع والوضيع فى المال والنفس يؤخذ ذلك من موت هذه الشاة وهى فى ملك سيد الأولين والآخرين فان ذلك إصابة فى المال وقد كان صلى الله عليه وسلم يصاب فى بدنه باعتراض الأمراض وهذا ترفيع له فى الدرجات وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله يبغض العفريت الذى لم يرزأ فى بدنه وماله » أو كما قال عليه السلام وقد قال الله عز وجل فى كتابه (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) وقال عز وجل (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه رجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فقد بانت فائدة الامتحان فى الأموال والأبدان بالكتاب والسنة والحكمة فى ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب وقد كان بعض الرجال يقول نحب المرض لتكفير سيآتى ونحب الموت من أجل لقاء ربى فانقبه إلى حال القوم كيف هى من حال الغير يبين لك الخير ويتضح جعلنا الله ممن هداه فى سرائه وضرائه إلى الطريق المبلغ إلى رضاه بمنه وكرمه لارب سواه

(٢٧٥) ﴿ حديث ابن أخت القوم منهم ﴾

عَنْ أَنَسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ

ظاهر الحديث يدل على أن ابن أخت القوم منهم وأنه يضاف إليهم والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال ما معنى منهم هل ذلك على العموم فى كل من انقطع عن نسب أبيه أو ذلك فى وجه خاص وما الحكمة فى أن أتى بصيغة القوم وما أراد بها هل القبيلة أو غير ذلك من الرجال دون النساء وهل لهذه النسبة أمر لايعقل معناه فيكون تعبدا أو لحكمة تعرف ﴿ أما قولنا ﴾ ما معنى منهم وهل ذلك على العموم أو فى أمر خاص اللفظ محتمل وتخصيصه يؤخذ من غير هذا الحديث ويتبين أيضا تخصيصه من قواعد الشريعة فاما تخصيصه من جهة قواعد الشريعة فقد قال صلى الله عليه وسلم « من انتسب إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » أو كما قال عليه السلام فلا يكون على عمومه حتى يقطع الابن من أبيه ونسبه وأما تخصيصه من غير هذا الحديث فقد قال

صلى الله عليه وسلم « الخال أحد الأبوين » معناه فيما يجب من بره وتوقيره لا أنه اشترك هو والأبوان فى الصبى ولا له معهما فى ميراثه نصيب فكذلك ابن الأخت من القوم أى مثل بنيهم لأنه ما يكون من القوم إلا بنيهم فهو كبنيهم فى الشفقة عليه ولذلك قدم فى الحضانة الأم وأهلها من بعدها على الأب وأهله ويلزم الصبى من البر لهم والاكرام مثل ما يلزم من جهة الأب وقد قال بعض العلماء إذا أردت النصرة فأت العمومة والقبيلة فهم أشد فى الحماية لك وإن أردت الأكل والحاجة من جهة بذل المال أو ما فى معناه فأت الخؤولة فهم أحن عليك وأشفق ومما يبين ماذكرناه أنه صلى الله عليه وسلم دخل على عائشة رضى الله عنها وهى تبكى فقال لها ما يبكيك فقالت ليس لى بما أكنى وعادة العرب يكنون بالأكبر من بنيهم فقال لها « تكنى بابن أختك عبد الله » فجعل ابن أختها مثل ابنها ﴿ وأما قولنا ﴾ ماذا أراد بقوله القوم هل الرجال دون النساء أو الجميع ﴿ فالجواب ﴾ أنه لما كان الحكم فى هذا للرجال والنساء سواء وعادة العرب إذا كان مذكر ومؤنث وأرادوا جمعهما غلبوا المذكر وإن كان هو الأقل وجمعوهما جمع المذكر فلذلك جمع هنا صلى الله عليه وسلم بصيغة جمع المذكر ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا تعبد أو لحكمة تعرف فالحكمة والله أعلم ظاهرة لأن العرب كانوا لا يلتفتون لجهة النساء ولا يعنون بهن وكانوا يقولون فى ابن البنت الذى هو أقرب منه أعنى من ابن الأخت

أبناء أبنائنا أبناؤنا وأبناء بناتنا أبناء الناس الأباعد

فأراد ﷺ بهذا الحديث رد ما فى معناه فى نسخ أحكام الجاهلية والألفة بين الأهل والأقارب والله أعلم ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز المخاطبة باللفظ العام والمراد منه الخصوص إذا علمت من فهم المخاطب أنه فهم ما ألقى إليه يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام « ابن أخت القوم منهم » والمقصود بقوله منهم ما أشرنا إليه باللفظ الخاص ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لمالك حيث يقول بالمعانى أستعبدنا لا بالألفاظ إشارة منه إلى هذا المعنى فلا نشاحح فى الألفاظ ﴿ وفى هذا دليل ﴾ على فضل الصحابة رضى الله عنهم وتحريهم فى النقل يؤخذ ذلك من قول الراوى ﴿ منهم أو من أنفسهم ﴾ وهذا دأبهم فى النقل ﴿ وفيه دليل ﴾ لمن يقول إن الحديث إنما ينقل مثل القرآن بالواو والفاء يؤخذ ذلك من قوله « منهم أو من أنفسهم » لأن المعنى فى اللفظين سواء فلو لم يكن الأمر عندهم أنه ينقل بالفاء والواو ما فعل هذا ﴿ وفيه دليل ﴾ لمن يقول إن للعالم أن يعلم قبل أن يسأل يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم أخبرهم بهذا الحديث من غير سؤال تقدم ولو تقدمه سؤال لذكره الراوى فان هذا هو المعروف من عادتهم رضى الله عنهم ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن لسيدنا صلى الله عليه وسلم أن يقرر من الأحكام ما شاء بغير وحى فى ذلك يؤخذ ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بهذا الحديث ولم يذكر بأنه بوحى وبأى طريق أمرنا من هذين الوجهين يلزمنا العمل بذلك لقول الله عز وجل فى كتابه ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ وإن كانت المسئلة مختلف فيها لكن هذا هو الظاهر والذى عليه الجمهور وهو المستقر أيضا من أحكام الشريعة لمن تتبعها غالبا

(٢٧٦) ﴿ حديث يحرم على المرء أن ينتسب إلى غير أبيه ﴾

عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعَتْ أُذُنَايَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ

ظاهر الحديث المنع من أن ينتسب المرء إلى غير أبيه وهو يعلم ذلك وإن من فعل ذلك لا يدخل الجنة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هو ممن يخلد فى النار أو كيف حاله وهل يلحق به الناسى والمكره أولا وهل الذى يفعله غير مجدهل يلحق به أم لا وهل هذا تعبد أو لحكمة تعرف وهل يتعدى الحكم إلى غير هذا أم لا ﴿ أما قولنا ﴾ هل يخلد فى النار مع الكفار أم كيف يكون حاله أما إن مات على الايمان فلا يخلد فى النار ويكون معنى الحديث مثل ماقيل فى معنى قوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) قال علماء السنة معناه فجزاؤه إن جازاه فيكون هذا كذلك لأنه من حرمت عليه الجنة فالنار مأواه لأنه ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ويكون حكم هذا بمقتضى الشريعة التخليد فى النار فيكون من الذين يخرجهم الله تعالى بشفاعته الجليلة كما جاء فى الحديث إن الله عز وجل يقول بعد ما يشفع سيد نا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرجع إلى النار عن ثلاث مرات يقال له فى أول مرة « أخرج من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان » وفى الثانية « أدنى ذرة من الايمان » وفى الثالثة « أدنى أدنى ذرة من الايمان فلا يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن فيقول الله جل جلاله شفعت الأنبياء والرسل وشفعت الملائكة وبقيت شفاعة أرحم الراحمين فيقبض الله قبضة من أهل النار ممن حبسهم القرآن فيخرجهم بشفاعته الجليلة ويسمون عتقاء الله من النار » والذين حبسهم القرآن فى النار هم على نوعين كفار وغير كفار فغير الكفار مثل صاحب هذا الذنب الذى فى هذا الحديث ومثل الذى فى الآية وهو القاتل المؤمن عمدا ومثل المتلاقيين بسيفيهما وما فى معناهم مما نص الكتاب أو السنة على تخليدهم فى النار فيكون الجمع بين ذلك بأن تقول إن الكفار لا يخرجون من النار أبدا و ذلك بنص الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين فتكون الشفاعة التى هى من قبل الله عز وجل لهذا القسم الثانى ويصدق عليهم أنهم « ممن حبسهم القرآن » حقيقة لأنه ما أخبرت السنة به فالكتاب مخبر به لأنه صلى الله عليه وسلم « ماينطق عن الهوى » وقد تقدم أول الكتاب فى هذا بيانا شافيا وما أعدنا منه هذا إلا لضرورة الموضع ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يلحق بالعامد فى هذا الحكم الناسى والمكره أما بنص الحديث فيحتمل وأما ماتقرر فى الشريعة بقوله صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » أو كما قال عليه السلام وذلك يعطى أن لا يلحقوا به فى وقوع الاثم والله أعلم ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يلحق بهذا الذى نفعله غير مجد لفظ

الحديث يعطى العموم ويزيد ذلك تأكيدا فى حق اللاهى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل يتكلم بالكلمة من الشر يلهى بها أهله لا يبالى بها يهوى بها فى النار سبعين خريفا » أو كما قال عليه السلام ولوجه آخر من جهة الفقه لأنه يلعب بدين الله ويهزأ بقول الشارع عليه السلام وهـــذا أعظم الذنوب ﴿ وأما قولنا ﴾ هل الذى يفعل ذلك مع غيره أى ينسب إلى غير أبيه فهذا لا يدخل تحت هذا الحكم وهو من باب القذف وحكم القاذف قد تقرر بحسب ما علم من الشريعة ، وهو بحيث لا يجهل فلا يحتاج إلى بيان ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذا تعبد لا يعقل له معنى أو لحكمة نعرفها فان قلنا تعبد فلا بحث وإن قلنا لحكمة فما هى فنقول والله الموفق للصواب لما خالف هذا حكمة الله سبحانه وتعالى فى عبيده ويترتب على ما فعله تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله ويترتب عليه هذا الوعيد العظيم ولو اعتقد أن ذلك جائز لكان كافرا بيان ذلك أن الله عز وجل يقول (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) « وحلل من النسب وحرم منه ماشاء » أعنى فى التناكح بينهم حسب ما يعرف ذلك من أحكام الشريعة وقد تقرر الحكم به فلا يحتاج إلى ذكره فاذا انتسب هذا إلى غير أبيه فقد أحرم هذا النظام البديع وحرم على نفسه وعلى غيره نكاح من قد أحله الله له ولغيره وحلل لنفسه ما قد حرمه الله عليه وعلى غيره فانه يتزوج بتلك النسبة التى انتسبها ذوى محارمه الحقيقين وهم عليه حرام ويحرم على نفسه أو على غير محارمه الزوريين بحسب انتسابه فيكون حرم من ذلك ما أحله الله تعالى ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يتعدى الحكم إلى غير هذا أم لا فحيث وجدنا من خالف حكم الله تعالى مثل ما فعل هذا قلنا له الحكم فيه كالحكم فى هذا سواء لأنه بواحدة مما فعل هذا يكون الخلود فى النار أعنى من الاعتقاد لقول الله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) وباجماع الأمة أن من أحل واحدة مما حرمه الله سبحانه أو حرم واحدة مما أحله الله عامدا لذلك مستبيحا لذلك أنه كافر يستتاب فان تاب وإلا قتل كفرا وفيه معنى آخر وهو سوء أدب العبودية مع الموالية لأن حكم العبودية اتباع كل ما أمرت به الموالية فالعبد إذا خالف حكم مولاه وجب أدبه ولذلك قال بعض أهل التوفيق أعظم الكرامات الاتصاف بأوصاف العبودية وامتثال أمر الربوبية جعلنا الله من أهلها بمنه

(٢٧٧) ﴿ حديث إخباره ﷺ بانقطاع النبوات ولم يبق إلا الرؤيا الصالحة ﴾

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ

ظاهر الحديث يدل على انقطاع النبـــوة ولم يبق منها إلا المبشرات وهى الرؤيا الصالحة والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال كيف نفهم قوله ﴿ لم يبق ﴾ وكيف نفهم ما معنى ﴿ الصالحة ﴾ وهل الذى ما بين هذه الرؤيا والنبوة من تضعيف الأجر أو النسبة هل نأخذه تعبدا أو لنا طريق لمعرفة ذلك والتى ليست بصالحة إن كانت حقا فهل تكون من النبوة أم لا وهل هذه المبشرات على عمومها كان الذى يراها كيف كان تقيا أو غير ذلك وما الحكمة فى أن قال ﴿ من النبوة ﴾ ولم يقل من الرسالة ﴿ أما قولنا ﴾ كيف نفهم قوله عليه السلام ﴿ لم يبق ﴾ وهذا إنما يستعمل فى الماضى إعلم أن العرب تأتى بالماضى وتريد به المستقبل إذا كان فى الكلام ما يدل عليه كقول الله تبارك وتعالى (وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس) وهذا إنما يكون يوم القيامة وقد بين صلى الله عليه وسلم هذا فى حديث غيره فقال « لم يبق بعد من النبوة إلا المبشرات » أو كما قال عليه السلام ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى « الصالحة » فمعناها الحسنة كما قال عز وجل فى قصة موسى مع شعيب عليهما السلام (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) ولم يرد شعيب عليه السلام مدح نفسه بالخير وإنما أراد به معنى الخير والاحسان لموسى عليه السلام فما فيه خير لك يسوغ فيه أن يقال هذا صالح لك أو يصلح به أمرك أو شأنك ﴿ وأما قولنا ﴾ كيف النسبة بينهما وبين النبوة ومن أين يكون الجمع بينهما وبين النبوة فاعلم أن النسبة بينهما وطريق الجمع من وجهين الواحد من طريق أن النبوة حق لاشك فيها فهذه كذلك حق لاشك فيها وقد نبه صلى الله عليه وسلم على ذلك فى الحديث بعد هذا بقوله « وما كان من النبوة لا يكذب » (والوجه الآخر) هو أنه لما كانت بداية نبوته عليه السلام قبل أن يأتيه الوحى « بالرؤيا الصالحة » كما هو مذكور أول الكتاب « فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » فما كان بدؤها أولا هو الذى يبقى منها آخرا (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا) ﴿ وأما قولنا ﴾ هل التى ليست بصالحة إن كانت حقا تكون من النبوة أم لا فان فهمنا من قوله صالحة الخير الذى فيه سرور للنفس وفرح به لا غير فلا نحكم لها بأنها من النبوة فعلى هذا فتنقسم الرؤيا على ثلاثة أقسام فما كان منها يسر فمن النبوة وما كان حلما فهو من الشيطان وما كان منها بين ذلك وهو الذى ليس بحكم ويكره فهو محتمل أن يكون حقا فتلحق بالنبوة لأنه حق فجاءت النسبة ويحتمل أن تكون باطلا فتلحق بالذى هو من الشيطان وهى الأضغاث والأحلام لكن هذا لا يعلم الحق منه من الباطل إلا بحسب ما تستقر به العاقبة وإن قلنا إن معنى صالحة ما يصلح به حالك فان مما يصلح به الحال أن يبين للمرء ما يصلح به حاله من خير يبشره أو شر يحذر عنه فان بهذا أتت النبوة معلمة بطريق الخير ومحرضة عليها ومبينة لطريق الشر ومحذرة عنها فتكون الرؤيا على هذا على نوعين ما يكون منها حق بحسب دليل التعبير فى ذلك فهى من النبوة وما كان مخوفا ولا يعلم له معنى من طريق أدلة العبادة فهى من الشيطان ومما يبين ذلك ما ذكر أنه أتى شخص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى رأيت فى المنام كان رأسه قطع والرأس يتدحرج وهو

يجرى خلفه فزجره وقال له « هذه مر... الشيطان أحد يقطع رأسه ويبقى حيا يمشى » أو كما قال عليه السلام والوجه الأول أظهر والله أعلم وما ذكرناه من التقسيم والتفسير بين الحسن وضده يحتاج ذلك إلى معرفة علم العبادة على مقتضى الكتاب والسنة وحينئذ نعرف الفرق بينهما وإن لم يكن لنا بذلك علم فلا يحل لنا أن نتكلم فى شىء من ذلك بغير علم فهو من باب الهزل بآثار النبوة وهذا ممنوع ﴿ وأما قولنا ﴾ هل هذه المبشرات على عمومها كان الذى يراها كيف كان تقيا أو غير ذلك أما هذا الحديث فلا يفهم منه من ذلك شىء وقد جاء هذا عنه صلى الله عليه وسلم فى حديث غيره بقوله عليه السلام « يراها الرجل الصالح أو ترى له » لأن الغالب من غير الصالح إما أن يكون من شياطين الانس فكفى بها أو يكون مستغرقا فى دنياه فالغالب عليه حديث النفس وشهواتها فلم يبق مع هؤلاء فى هذا الباب كلام هذا هو الغالب وعليه تحمل الأحكام وما يندر من ذلك فالنادر لا حكم له وإذا ندر يعلل بوجوده بحسب الحال والوقت وإن كنا قد نبهنا على هذا فيما تقدم من الكتاب ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أنه قال صلى الله عليه وسلم « من النبوة » ولم يقل « من الرسالة » فاعلم أن هذا من أكبر الدلائل على ما خصه الله عز وجل به من حسن البلاغة وسرعة الادراك لغوامض الفوائد على البديهة وذلك أن الأنبياء عليهم السلام منهم من هو مرسل للغير ومنهم من تنبأ وليس بمرسل فلما كانت المرائى منها ما يكون فيما يخص المرء فى نفسه ومنها ما يراها لغيره كما ذكرنا عنه عليه السلام آنفا بقوله عليه السلام « يراها الرجل الصالح أو ترى له » فلهذه النسبة ذكر عليه السلام « النبوة » ولم يذكر « الرسالة » وإنما هى حق مثل ما هى النبوة وبقى فيها احتمال هل تخص أو تعم كما أن النبوة قد يكون معها الارسال فتكون عامة أو لا يكون معها إرسال فتكون خاصة ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز مراجعة العالم إذا لم يفهم كلامه يؤخذ ذلك من قولهم ﴿ وما المبشرات ﴾ ويترتب على هذا من الفقه التثبت فى العلوم الشرعية حتى تعلم على تحقيق ويقين والبحث عن ذلك مع الرفيع والوضيع على حد سواء بالأدب لأن ذلك هو الطريق اللائق بالعلم وإلا فصاحبه يدعى زائغ عن العلم وسيرة السلف الصالح من الصحابة رضى الله عنهم وأتباعهم باحسان إلى يوم الدين جعلنا الله من المتبعين لهم بمنه ﴿ وفيه دليل ﴾ على كثرة رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته يؤخذ ذلك من إدخاله عليه السلام السرور عليهم بتحقيق الرؤيا التى هى خير بوجه لا يبقى فيه شك وهو كونه عليه السلام جعلها من النبوة فندخل بذلك المسرة عليهم إلى يوم القيامة ونفى عنهم ما يهتمون به ويتخوفون من الحلم فجعله من الشيطان الذى ليس له قدرة غير التخويف أو التهويل وعلمهم المخرج من ذلك حسب ما تقدم ذكره فى الكتاب وبحسب ما يذكر فى الحديث بعد وترك لهم التى تدل على الشر وليست بحلم من قبيل المحتمل وما هو من قبيل المحتمل فليس يكون عند ذلك له خطر وإذا تتبعت النظر رأيت عظيم الرحمة من المولى الكريم

الذى من علينا بهذا النبى الكريم بهذه الشفقة علينا والرحمة لنا وقد شهد الحق عز وجل له بذلك بقوله تعالى (لقد جاكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم) ربنا تممها نعمة علينا واجعلنا لها من الشاكرين ﴿ ويترتب ﴾ عليه من الفائدة أن إدخال السرور على المؤمنين من السنة ولأهل السلوك فى هذا أقوى دليل لأنهم بنوا طريقهم على جبر القلوب وإدخال السرور على المؤمنين عامة وفيما تقدم آنفا من استشهادنا بقوله صلى الله عليه وسلم « يراها الرجل الصالح أو ترى له » تنبيه على أن الخير فى هذه المبشرات إنما هو للصالحين وكذلك فى كل وجوه الخير فى الدارين هم المقصودون به وقد قال تعالى (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فياعبد شهوته وأخا غفلته بعت كل خير بصفقة بخس فهلا حكمت حاكم العقل فحل الك عقدة بيعك البخس قبل تصرف يد المنايا فى جميع بضائع حسك ومعناك فلا تجد للحل محلا ولا وقتا

(٢٧٨) ﴿ حديث من رأى المصطفى ﷺ فى النوم يراه فى اليقظة ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما أنه من رآه صلى الله عليه وسلم فى النوم فسيراه فى اليقظة والثانى الاخبار بأن الشيطان لا يتمثل به عليه السلام والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال هل هذا على عمومه فى حياته عليه السلام وبعد مماته أو هذا كان فى حياته عليه السلام ليس إلا وهل يتمثل بغيره من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين أو هذا من الأمور الخاصة به عليه السلام وهل ذلك لكل من رآه مطلقا أو خاصا لمن فيه الأهلية والاتباع لسنته عليه السلام ﴿ أما قولنا ﴾ هل هذا على العموم فى حياته عليه السلام وفى مماته أى فى حياته لا غير اللفظ يعطى العموم ومن يدعى الخصوص فيه بغير مخصص منه صلى الله عليه وسلم فمتعسف وقد وقع من بعض الناس عدم التصديق بعمومه وقال على ما أعطاه عقله وكيف يكون من هو فى دار البقاء يرى فى دار الفناء وفى هذا القول من المحذور وجهان خطران (أحدهما) أنه قد يقع فى عدم التصديق لعموم قول الصادق عليه السلام الذى لا ينطق عن الهوى (والثانى) الجهل بقدرة القادر وتعجيزها كأنه لم يسمع فى سورة البقرة قصة البقرة وكيف قال الله عز وجل (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى) فضرب قبر الميت أو هو نفسه ببعض البقرة فقام حيا سويا وأخبرهم بقاتله وذلك بعد أربعين سنة على ما ذكره أهل العلم لأن بنى إسرائيل تأخر أمرهم فى طلب البقرة على الصفة التي نعتت لهم أربعين سنة وحينئذ وجدوها وكما أخبر أيضا فى السورة نفسها فى قصة العزير

وقصة إبراهيم عليه السلام فى الأربع من الطير وكيف قص علينا فى شأنهما فالذى جعل ضرب الميت ببعض البقرة سببا لحياته وجعل دعاء إبراهيم عليه السلام سببا لاحياء الطيور وجعل تعجب العزير سببا لاحيائه وإحياء حماره بعد بقائه مائة سنة ميتا قادر على أن يجعل رؤيته صلى الله عليه وسلم فى النوم سببا لرؤيته فى اليقظة وقد ذكر بعض الصحابة وأظنه ابن عباس رضى الله عنهما أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فتذكر هذا الحديث وبقى متفكرا فيه ثم دخل على بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأظنها ميمونة فقص عليها قصته فقامت وأخرجت له جبة ومرآة وقالت له هذه جبته وهذه مرآته صلى الله عليه وسلم قال رضى الله عنه فنظرت فى المرآة فرأيت صورة النبى صلى الله عليه وسلم ولم أر لنفسى صورة وقد ذكر عن السلف والخلف إلى هلم جرا عن جماعة من كانوا رأوه صلى الله عليه وسلم فى النوم وكانوا ممن يحملون هذا الحديث على ظاهره فرأوه بعد ذ ك فى اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين فأخبرهم بتفريجها ونص لهم على الوجوه التى منها يكون فرجها فجاء الأمر كذلك بلا زيادة ولا نقص والمنكر لهذا لا يخلو أن يصدق بكرامات الأولياء أو يكذب بها فان كان ممن يكذب بها فقد سقط البحث معه فانه يكذب ما أثبتته السنة بالدلائل الواضحة وقد تكلمنا على هذا أول الكتاب وبيناه بما فيه كفاية بفضل الله تعالى وإن كان مصدقا بها فهذه من ذلك القبيل لأن الأولياء تكشف لهم بخرق العادة عن أشياء فى العالمين العلوى والسفلى عديدة فلا تنكر هذا مع التصديق بذلك ﴿ وأما قولنا ﴾ هل جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام مثله عليه السلام فى ذلك لا يتمثل الشيطان على صورهم أو هذا خاص به صلوات الله وسلامه عليه عليهم أجمعين فليس فى الحديث ما يدل على الخصوص قطعا ولا على العموم قطعا ولا هذه الأمور مما تؤخذ بالقياس ولا بالعقل وما يعلم من علو مكانتهم عند الله تعالى يشعر أن العناية تعمهم فانهم صلوات الله عليهم أجمعين أتوا إلى إزالة الشيطان وخزيه فأشعر ذلك أن الشيطان لا يتمثل بصورهم المباركة كما أخبر عليه السلام فى كرامته وكرامتهم « أن لحومهم على الأرض حرام » حتى تخرجهم كما جعلوا فيها كذلك تساويهم فى هذه الكرامة والله أعلم ﴿ وأما قولنا ﴾ هل ذلك على عمومه لكل من رآه عليه السلام أو خاص فاعلم أن الخير كله المقطوع به والمنصوص عليه والمشار إليه بأدلة الشرع قواعد إنما هو لأهل التوفيق ويبقى فى غيرهم على طريق الرجاء للجهل بعاقبتهم فلعلهم ممن قد سبقت لهم سعادة فى الأزل فلا يقطع عليهم باليأس من الخير لا سيما مع قوله عليه السلام « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لم يبق بينه وبين الجنة إلا شبر أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لم يبق بينه وبين النار إلا شبر أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » لكن كيف يراه من لا يصدق بقوله هذا من طريق الأدلة فبعيد وأما من

فيه مخالفة لسنته عليه السلام فاختلف العلماء فى رؤياه له ﷺ إذا ادعى أنه رآه هل هى حق أم لا وقد تقدم البحث على هذا فى الكتاب فكيف تكون الرؤية فى اليقظة مع عدم التسليم فى رؤيا النوم هذا فيه مافيه وفى هذا الحديث ﴿ إشارة ﴾ وهى أنه لما أخبر صلى الله عليه وسلم أن فى فى آخر الزمان من أمته من يود أنه خرج عن أهله وماله بأن يكون رآه أبقى لهم هذا التأنيس العظيم بأنه من رآه فى النوم فسيراه فى اليقظة فطمعت لذلك نفوس المحبين الصادقين غير المصدقين فرأوا مابه أخبروا كما أخبروا لكن صاحب الشك لا يثبت له فى خير قدم وإذا تتبعت أحوال الذين روى عنهم أنهم رأوه صلى الله عليه وسلم تجدهم مع التصديق بهذا الحديث محبين فيه صلى الله عليه وسلم حبا يزيدون فيه على غيرهم وقد صح عندى عن بعض الأشخاص الذين ذكرتهم قبل فى أول الكلام على الحديث أنه صح عنده من طريق لاشك فيه أنه لما رآه فى بعض مرائيه أقبل عليه صلى الله عليه وسلم إقبالا عجيبا فقال له يارسول الله بما استوجبت أنا هذا فقال له صلى الله عليه وسلم « بحبك » فى فلم يجعل له سببا إلى رفع منزلته غير حبه له ﴿ وهنا إشارة ﴾ لو عرفها المنكر ماأنكر وذلك أن المحب فيمن أحبه فان قد أخرجه اشتغال بمن أحب عن هذه الدار وأهلها فلما كان معدودا فى الفانيين لحق بأهل دار البقاء برؤية أهلها والتنعم بمشاهدتهم وكانت جثته فى هذه الدار كظاهر القبر فى الدنيا وباطنه فى الآخرة لأنه أول منزل من منازل الآخرة وقد تلوح مرارا على ظاهر القبر علامات مما هو داخله من خير أو غيره وهذا من الشهرة بين الناس خلف عن سلف من حيث لايحتاج أن يذكر له حكاية ولا خبر ﴿ وفيه دليل ﴾ على عظم قدرة الله تعالى كيف جعل للشيطان القدرة على أن يتصور فى أى صورة شاء ويتشبه بمن شاء يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ ولا يتمثل الشيطان بى ﴾ فدل على أنه يتمثل بغيره ومثل ذلك جاء عن الملائكة عليهم السلام أن الله عز وجل أعطاهم التطوير يتمثلون على أى صورة شاؤا فانظر إلى حالة ما بين الملائكة وحالة الشيطان وقد أعطيا معا هذه الحالة العجيبة فمن أجل هذا لم يلتفت أهل التوفيق إلى الكرامات بخرق العادة وطلبوا التوفيق لما به أمروا ولطف الله بهم فى الدنيا والآخرة لأن خرق العادة قد يكون للصديق والزنديق وهى للزنديق من طريق الاملاء والاغواء وإنما نقع التفرقة بينهما ماهو منها كرامة أو بلاء وإغواء بالاتباع للكتاب والسنة وقد تقدم من الكلام فى هذا الكتاب مافيه شفاء والحمد لله

(٢٧٩) ﴿ حديث رؤيا النبي ﷺ وإن الشيطان لا يتشمل به ﴾

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ رَآنِى فِى الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِى فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَخَيَّلُ بِى وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) أنه من رآه عليه الصلاة السلام فى النوم فقد رآه حقا فان الشيطان لا يتمثل به صلى الله عليه وسلم (والثانى) أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعنى ﴿جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة﴾ وما الحكمة فى أن قال فى الحديث قبل «ولا يتمثل الشيطان بى» وقال هنا ﴿ولا يتخيل بى﴾ أى على احدى الروايتين ﴿أما قولنا﴾ مامعنى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة فقد قال بعض الناس فيه انه اختلف فى كم سنة أوحى إليه صلى الله عليه وسلم فقيل عشرين سنة وقيل ثلاثة وعشرين سنة فعلى القول بأنه أوحى إليه ثلاثا وعشرين فيجىء الجزء منها نصف سنة لان ثلاثا وعشرين إذا قسمت كل سنة منها على جزأين جاءت ستة وأربعين وهذا عندى ماله تلك الفائدة ولا على هذا المعنى تكلم صلوات الله عليه وسلامه الذى أيده الله بالفصاحة والبلاغة وإنما المتكلم بهذا أراد أن يجعل بين الرؤيا والنبوة نسبة ما بحسب ذلك المثال كانت له فائدة أم لا وهذا التوجيه الذى رأى لا يجرى على الاطلاق فى جميع الأحاديث التى جاءت فى هذا النوع حتى أنه روى عن بعض القائلين بهذا أنه جاء «أنها جزء من اثنين وسبعين» وقد جاء أنها «جزء من خمسة وأربعين» وجاء «أنها جزء من أربع وأربعين» وجاء أنها جزء من إثنين وأربعين وجاء أنها جزء من أربعين وجاء: أنها جزء من سبع وعشرين: وجاء: أنها جزء من خمس وعشرين: وقد قال بعض الناس إن هذا الاختلاف الذى جاء فى هذه الأجزاء إنما هو بحسب الرائى لها وهذا نوع منه آخر وقد ذكرت فيها أقاويل كلها متقاربة فى النوع الذى أشرنا إليه والذى يظهر لى والله الموفق للصواب أن النسبة التى بينها وبين النبوة من وجهين أحدهما أن النبوة كلها جاءت بالأمور البينة الواضحة ومن الأمور ما يكون بعضها مجملا ثم بينتها النبوة بعد حتى لم يبق فى الشريعة شىء فيه إشكال كما أشرنا إليه فى أول حديث من الكتاب والمرائى منها ماهو نص لا يحتاج فيه إلى شىء ومنها أشياء مجملة فتلك الأشياء المجملة ما يفهم منها الذى له معرفة بطريق [العبارة من الحق الذى يخرج منها إلا كما جاءت الأجزاء منها وذلك الجزء الذى فهمه وهو الحق جزء من النبوة فمرة يكثر ذلك الجزء ومرة يقل فيكون قرب الجزء من النبوة أو بعده بحسب فهم المعبر عنها فأعلاه يكون بينه وبين النبوة خمسا وعشرين جزء وأقلهم فيهما يكون بينه وبين النبوة إثنين وسبعين جزء وما بين هذين الحديثين يتفاوت فيه فهوم الناس ومما يبين هذا الوجه أن شخصا أتى النبى صلى الله عليه وسلم وقص عليه رؤيا رآها وأبو بكر قاعد عنده فقال له دعنى يا رسول الله أعبرها فقال له «إفعل فلما عبرها قال يارسول الله أصبت فيما قلت فقال له صلى الله عليه وسلم أصبت بعضا وأخطأت بعضا فقال أبو بكر أقسمت عليك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا تقسم» رواه الترمذى وقد قال أهل العلم بالتعبير

لا يطرأ لأحد أو على أحد شيء في هذه الدار إلا وهو يرادفي نومه عليه من علمه وجهله من جهله فبهذا يقوى ما وجهناه بفضل الله تعالى ﴿ والوجه الآخر ﴾ هو أن النبوة لها وجوه من الترفيعات والفوائد دنيوية وأخروية فيما يخص ويعم منها ما نعرفه ومنها ما لا نعرفه والرؤيا ما بينها وبين النبوة نسبة إلا في كونها حق فهي وما دلت عليه حق كما أن ما دلت عليه النبوة وأخبرت به حق وبقي لمام النبوة التفضيل بينها وبين الرؤيا بتلك الأجزاء المذكورة في الحديث ليعلم فضل النبوة إذ الجزء من ستة وأربعين منها يخبر بالحق في الأمور الحاضرة والغائبة لأن الرؤيا منها ما يدل على ذلك الذي أنت فيه ومنها ما يدل على ما قد مضى ومنها ما يدل على ما يكون وفي كل الوجوه يدل على الحق ويخبر عنه على ما هو عليه إن كان أو يكون فدل هذا على تعظيم مقام النبوة وأنه ليس لقولنا قوة إلى الوصول لذلك فيقوى بذلك إيماننا ويعظم به أجرنا لأنه كلما زاد في النفوس للأنبياء عليهم السلام تعظيما زاد العبد بذلك لله عز وجل قربة لأن الله عز وجل يقول في كتابه (ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) وأي شعيرة أرفع من تعظيم مقام أنبياء الله عز وجل ويكون الفرق بين الأحاديث التي ذكرنا في اختلاف الأجزاء التي هي من خمسة وعشرين جزءا إلى إثنين وسبعين جزءا بحسب ترفيع درجات الأنبياء عليهم السلام بعضهم على بعض لأن الأنبياء عليهم السلام منهم مرسلون وغير مرسلين وليس درجة من هو نبي غير مرسل مثل من هو نبي مرسل والمرسلين منهم صلوات الله عليهم أجمعين بعضهم أعلى من بعض وهذا بحث لا خفاء فيه وكفى فيه قول الله عز وجل (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) فنسبتها من أعلا الأنبياء المرسلين لنسبة إثنين وسبعين ونسبتها من أقل النبيين غير المرسلين نسبة خمسة وعشرين جزء وما بقي بين هذين الحديثين بحسب تفاوت الأنبياء والرسل عليهم الصلاة السلام في الدرجات بينهم ولذلك ذكر صلى الله عليه وسلم النبوة على العموم ولم يذكر واحدا منهم ولا ذكر نفسه المباركة ولا أشار إليها واحتمل الوجهين وزيادة لمن زاده الله في ذلك فهما لأنه لا يكون كلامه صلوات الله عليه وسلامه إلا وتحته من الفوائد ما يكثر تعدادها وقد تعجز الفهوم عن إحصائها فأقل مراتب الايمان أن يكون هذا اعتقاد الناظر في كلامه صلى الله عليه وسلم وما فتح له فيه من الفهم يقول إلى هذا وصل فهمي ولا يقول هذا هو المعنى الذي يدل عليه هذا لا غير ويمنع الزيادة على ذلك لمن فتح الله عليه في شيء من ذلك بفضله ومنه ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة في أن قال في هذا الحديث على إحدى الروايتين ﴿ فان الشيطان لا يتخيل بي ﴾ وفي الذي قبله ﴿ ولا يتمثل الشيطان بي ﴾ فنقول والله الموفق للصواب وذلك أن مقتضى الحديثين يدل على أن الشيطان له مع الذي يترآى له في النوم حالتان إحداهما أنه يتصور ويتطور ويتمثل بنفسه للذي يترآى له على الصورة التي يريد ما عدا صورة سيدنا محمد صلى

الله عليه وسلم وأنه مرة أخرى توهم للذى يترآى له على أنه على صورة ما وهو فى ذاته على صورته التى هو عليها لم يتغير عنها ومثل هذا يشاهده الناس من الذين يشتغلون بالسحر فى هذا العالم يرى الناظرون أشياء على خلاف ماهى عليه والشىء فى نفسه على ماهو عليه لم يتغير مثل ماروى عن سحرة فرعون مع موسى عليه السلام أنهم أتو بوقر ثلاثمائة جمل حبالا وعصيا فلما ألقوا حبالهم وعصيهم ظهرت فى عين موسى عليه السلام وجميع الناظرين أن الأرض قد ملئت ثعابين وقال الله عز وجل فى حقهم (وجاءوا بسحر عظيم) وتلك الحبال والعصى باقية على حالها لم تتغير أعيانها كما كانت عليه يشهد لهذا ماذكرناه فى الحديث قبل فى الذى أتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له إنه رآى فى النوم كأن رأسه قطع وهو يتدحرج وهو يجرى خلفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا من الشيطان لا يقطع رأس أحد ويبقى يجرى خلفه » أو كما قال عليه السلام فالشيطان لا يتمثل له فى هذه الرؤيا بنفسه على هذه الصورة التى لا تقبلها العقول وإنما خيل له ذلك لكى يقرعه والحديث الذى نحن بسبيله يدل على هذه التخيلات ﴿ وفيه دليل ﴾ على ماذكرناه فى الأحاديث قبل حتى أوردنا من السؤال هل تلحق بذلك تشكله عليه السلام فى خواطر المباركين وأصحاب القلوب والخواطر أم لا فهذا يدل على أنه كما يتمثل على صورته عليه السلام كذلك لا يتخيل بها لا فى كلام ولا فى خاطر ولا فى نوع من الأنواع لأنك إذا نظرت تجد ما تخيل به إلا قسمين إما بالذات أو بما يدل على الذات من كلام أو إشارة أو حديث فى السر أو خاطر فى القلب فدل بالحديث الذى قبل هذا على منعه فى التمثل بصورته عليه السلام المباركة وأنه يتصور على صورة غيره ودل بهذا الحديث على أنه لا يتخيل بشىء مما يدل عليه من جهة ما من صفة من الصفات أو لمحة من اللمحات أو خطرة من الخطرات أو إشارة من الاشارات وأن الله عز وجل قد منعه من هذا كله وأنه فى غير جهة سيدنا صلى الله عليه وسلم يعمل من ذلك كله مايشاء وأن الله عز وجل قد أعطاه ذلك وهذه بشارة عظيمة والبحث فى هذا التخيل فى حق غير سيدنا صلى الله عليه وسلم من الأنبياء عليهم السلام كالبحث فى الحديث قبله وهذا كله بشرط يشترط فيه وهو ماقد منا ذكره فيما تقدم عن العلماء فى أن كل مايقع من الأمر والنهى والزجر والمخاطبة وغير ذلك كله فانه يعرض على سنته عليه السلام فما وافقها مما سمعه الرائى فهو حق وماخالفها فالخلل فى سمع الرائى فانه صلى الله عليه وسلم ماينطق عن الهوى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فيكون رؤيا الذات المباركة حقا ويكون الخلل وقع فى سمع الرائى وهو الحق الذى لا شك فيه فكذلك فيما نحن بسبيله من تشكله عليه السلام للمباركين فى أسرارهم ورؤيته عليه السلام فى اليقظة ومخاطبته عليه السلام والخواطر تمر بهم ممن قبله ومايقع من هواجس النفوس من قبله عليه السلام ومايقع

من للتخيل والتمثيل عنه عليه السلام فكل ذلك يعرض على كتاب الله وسنته عليه السلام كما تقدم والله الموفق للصواب ﴿ وفيه دليل ﴾ على عظم قدرة القادر سبحانه مثل ما تقدم قبل ﴿ وفيه بشارة ﴾ للمحبين فيه عليه السلام المتبعين له فانه إذا كانت رؤياه عليه السلام حقا فكل ما يكون من إشارة أو خطرة هو عليه السلام فيها أو منه أتت فانها حق على الشرط المذكور فزادهم بهذا فرحا إلى فرح جعلنا الله منهم بمنه فى الدارين فى عافية لا رب سواه

(٢٨٠) ﴿ حديث فضل عمر رضى الله عنه فى العلم ﴾

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي يَعْنِي عُمَرَ قَالُوا فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ الْعِلْمَ

ظاهر الحديث يدل على فضل عمر رضى الله عنه وما خصه الله به من العلم والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما معنى هذا العلم الذى خص به عمر رضى الله عنه وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها وأنا مدينة العلم وعلى بابها » فهل بين هذين الحديثين تعارض وهل لهما وجه يجتمعان به فاعلم وفقنا الله وإياك أن هذين الحديثين ليس بينهما تعارض وأن أحدهما يقوى الآخر وذلك أن العلم فى الشريعة علمان أحدهما العلم بقواعد الشريعة وفروعها وأحكامها واستنباط ذلك من الكتاب والسنة وفهم ذلك بالنور الذى يهبه الله من يشاء من خلقه وهؤلاء هم ورثة الأنبياء عليهم السلام وهذا هو العلم الذى خص على رضى الله عنه بالزيادة فيه على غيره من الخلفاء بحسب ما شهد له به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك كان عمر رضى الله عنه يقول « أعوذ بالله من معضلة لا يحضرها على » وإن كان الكل رضى الله عنهم بذلك علماء لكن خص على رضى الله عنه بالزيادة فيه والعلم الثانى هو العلم بالله وعظم قدرته وجلاله والعلم بأنه الغالب على أمره وهذا العلم لا يعلم حقيقة حتى يكون للعالم به العلم به حالا وهم القليل من الناس كما أخبر الله عز وجل فى كتابه حيث يقول (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وإن كان الصحابة والخلفاء لعمر رضى الله عنهم أجمعين يعلمون ذلك حقيقة لكن أعطى الله عز وجل لعمر رضى الله عنهم فى ذلك زيادة وتلك الزيادة هى التى أوجبت له الشجاعة فى الدين حتى شهد له بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها » ولم يعن صلى الله عليه وسلم الشجاعة التى هى فى القتال فى مقارعة الأبطال فانما خص الله عز وجل بها سيدنا صلى الله عليه وسلم فى هذا لا يقدر أحد أن يكون لها بابا كما روى عنه عليه السلام فى ذلك حتى قال على رضى الله تعالى عنه « كنا إذا اشتد القتال

اتقينا برسول الله ﷺ » وتلك الزيادة التي أوجبت له الشجاعة هي التي أوجبت له أن يسمى فاروقا لأن يوم إسلامه فرق الله فيه بين الحق والباطل وعبد الله جهرا وأعلى الله به كلمة الحق ومناره كما هو الحديث المأثور في ذلك فظاهر مما أبديناه كيفية اجتماع الحديثين وتقوية أحدهما الآخر ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أن يقال ماهي الحكمة بأن تأول سيدنا صلى الله عليه وسلم اللبن بالعلم الذي أشرنا إليه قبل ﴿ والجواب ﴾ أنه إنما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم اعتبارا بالذي بين له أول الأمر فأخذ اللبن حين أتى بقدحين قدح خمر وقدح لبن فخير أن يأخذ أيهما شاء فأخذ اللبن فقال له جبريل عليه السلام اخترت الفطرة لو أخذت الخمر لغوت أمتك يعني بالفطرة فطرة الاسلام يعني « فطرة الله التي فطر الناس عليها » وحقيقة الفطرة تقتضي المعرفة بحقيقة الربوبية وجلالها وكمالها وأنها الغالبة على أمرها ومانقص من نقص ذلك إلا بالمجاورة للغير كما قال الصادق صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز بث الرؤيا لمن هو أقل علما من الرائي يؤخذ ذلك من ذكر سيدنا صلى الله عليه وسلم رؤياه للصحابة رضي الله عنهم ويترتب على ذلك من الفقه إلقاء العالم المسائل وسؤاله فيها لمن هو دونه في المرتبة ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن من الأدب في علم العبارة إذا قص الرؤيا من هو أعلم بها على من دونه أن يرد الأمر في ذلك إليه ويسأل عن معناها فانه يغلب على الظن إنما كان ذكره ذلك لمن دونه إلا أن يسألوه فيعلمهم يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضي الله عنهم لما قص سيدنا صلى الله عليه وسلم الرؤيا لأنه عليه السلام ما أراد منهم أن يعلموه تأويلها وإنما كان قصده أن يسألوه فيعلمهم فلحسن أدبهم فهموا عنه فعملوا على ما يقتضيه الأدب فاستفادوا وأفادوا وكذلك ينبغي الأدب في جميع العلوم فان من سنة العلم الأدب فيه ومع أهله إذا كان لله ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن علم سيدنا صلى الله عليه وسلم بالله عز وجل وجلاله لا يبلغه فيه غيره يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام شرب كما أخبر حتى رأى الري يخرج من أظفاره ثم أعطى فضله عمر فانظر بنظرك إلى الذي شرب فضله عليه السلام كيف كان قوة علمه الذي لم يقدر أحد من الخلفاء بمائله فيه فكيف بغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم وكيف بمن بعد الصحابة ثم انظر كيف يكون من شرب حتى رأى الري يخرج من أظماره لا يمكن أن يبلغ أحد ذلك المقام فجاء شربه صلى الله عليه وسلم وشرب عمر كما مثل صلى الله عليه وسلم بقوله أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها فان نسبة ماشرب عليه السلام من ذلك اللبن والذي شربه عمر كنسبة المدينة وسعتها من الباب وقدر مساحته وقدر سعته فما أحسن عباراته عليه السلام وما أحلى إشاراته وفي تمثيله عليه السلام في اليقظة بالمدينة وبابها وما مثل له في النوم بالشرب على ماهو مذكور في الحديث وكيف ظهرت النسبة بينهما على حد سواء ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن كلامه عليه السلام كله بالله وعن

الله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ﴿وفيه دليل﴾ على ما قدمناه فى الحديث قبل أن من الرؤيا ما يكون يدل على الحال وعلى الماضى فان هذا الذى رآى سيدنا صلى الله عليه وسلم هو تمثيل بأمر قد وقع فان الذى أعطى عليه السلام من العلم بالله قد كان وكذلك عمر فكانت فائدة الرؤيا أن عرف بقدر النسبة التى بين ما أعطى عليه السلام من العلم وما أعطى منه عمر وإن كان عليه السلام السبب فيه لعمر رضى الله عنه وعلى يديه الكريمتين كان ذلك الخير ولأن يعرف به الغير حتى يقدر لكل أحد قدره بحسب مافتح الله عليه من الخير ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «نزلوا الناس منازلهم» أى بقدر ماجعل الله لهم، ولا تبخسوا ولا تثقالوا وأقيموا الوزن بالقسط وكونوا عبيدا ولا تكونوا موالى، أوكما قال عليه السلام

(٢٨١) ﴿حديث فضل عمر رضى الله عنه وعلوه فى الدين﴾

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَىَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِىَّ وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ وَمَرَّ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ قَالُوا مَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ الدِّينَ

ظاهر الحديث يدل على فضل عمر رضى الله عنه فى الدين وعلو منزلته فيه والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال ما معنى الناس المعرضون هل على العموم أو على الخصوص وما معنى الدين هنا ﴿أما قولنا﴾ هل يعنى بالناس العموم أو الخصوص فالظاهر أن المراد به الخصوص لأنه لا يمكن أن يكون المراد العموم لأنه إذا كان ذلك دخل تحته الكفار ولا يمكن ذلك لأن كل من رآه كانت عليهم قمص منها ما يبلغ الثدى وهو أقلهم حتى إلى الذى يجر قميصه وهو أعلاهم ثم تأول عليه السلام ذلك بالدين والكفار لا يدخلون فى هذا لأنه ليس لهم من الدين مايبلغ لا الثدى ولا لغيره فهو لفظ عام والمعنى به الخصوص وهم أهل الإيمان والاسلام وبقى الاحتمال هل المراد بذلك جنس المؤمنين من أمته عليه السلام وغيرهم أو المراد بذلك أمته صلى الله عليه وسلم أو المراد بذلك ناس من أمته عليه السلام لاجميع الأمة محتمل لكل ذلك والآخر هو الأظهر والله أعلم ﴿وأما قولنا﴾ مامعنى هنا بالدين فهو ماأخبر الله عز وجل فى كتابه بقوله تعالى (إن الدين عند الله الأسلام) الذى هو اتباع الأمر واجتناب النهى وكان عمر رضى الله عنه فى ذلك كما هو المشهور عنه فى عليه وزهده وفضله ﴿وفى هذا دليل﴾ على ماذكرناه فى كثير من الأحاديث قبل أن الطريق إلى الله عز وجل باتباع أمره واجتناب نهيه وبه يكون طريق السلوك ورفعة الأحوال لأهل الأحوال وغير ذلك لا شىء وإن ظهر لصاحبه شىء من خرق العادات فذلك من طريق الاملاء له والاستدراج

﴿ وفيه دليل ﴾ لما يقوله أهل علم العبارة « أن الرؤيا أقلب تجد » يعنون أن الأمور التي تكون مكروهة في اليقظة إذا رأيت في النوم هي حسنة يعني في بعض الناس وبعض الأحوال يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم في قميص عمر الذي رآه يجره أنه تأول فيه حسن دينه وهذه الحالة في اليقظة محرمة لقوله صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى نصف ساقه فان زاد فالى الكعبين وما تحت ذلك ففي النار » ويترتب على تأويل سيدنا صلى الله عليه وسلم بأن جعل القميص يدل على الدين أنه كلما يرى في النوم من حسن أو ضده في القميص يكون ذلك في دين لابسه فهذه قاعدة في علم العبارة وكذلك كلما جاء عنه عليه السلام من تفسير رؤيا من الرائي إن ذلك قاعدة من قواعد علم العبارة لأنه صلى الله عليه وسلم دليل الخير كله ﴿ وفيه بحث ﴾ وهو أن يقال ما معنى الحكمة في أن جعل القميص دالا على الدين هل ذلك تعبد أو لحكمة فتكون الفائدة بها أكثر فنقول والله الموفق للصواب اعلم أن كل من اتصف بصفة ما إما بملازمته الشيء أو بدعوى فيه فكأنه ألبس نفسه تلك الصفة وهو بصدد أن يخرج عنها أو يتصف بغيرها وحواسه وذاته باقية على حالها فلهذا أشبهه عليه السلام بالقميص فانك إذا لبست القميص فأنت بالخيار في أن تبقيه على نفسك أو تنزيله عنك ولتلك النسبة قال صلى الله عليه وسلم لعثمان رضي الله عنه « أنهم يطلبون منك أن تخلع ثوبا كساكه الله فلا تفعل » إشارة منه عليه السلام إلى ماطلبوا من عثمان رضي الله عنه من أن يتخلع من الخلافة التي أعطاها الله له وكان أهلا لها وذلك عند قتله رضي الله عنه فلما كان المسلمون ادعوا الاسلام وقد ألبسوا أنفسهم هذه الحالة وجب عليهم بحسب دعواهم أن يكلموا تلك الصفة التي ادعوها فمن كملها جاء ثوبه كاملا ومن أخل بشيء جاء ثوبه ناقصا وكان نقص الثوب بحسب مانقص مما ادعاه من الايمان والدخول فيه ﴿ وهنا إشارة ﴾ لأهل المرقعة وهي إنه ماحسنت تلك المرقعة على عمر رضي الله عنه الذي كانت في ثوبه إلا لحسن ذلك الثوب الذي كان تحتها حتى كان يجره بحسن مافضل من طول ذلك الثوب المبارك فعاد بهاؤه وجماله على المرقعة فجاءت كلها حسنة ومما حكي في هذا النوع أن أحد الملوك بنى بيتا وأراد أن يجلب له من الدهانين من له المعرفة الجيدة لأن يصوروا فيه من التصاوير أبدع ما يكون فلما حضروا بين يديه افترقوا على فرقتين كل فرقة تدعي أنها أعرف من الأخرى فقال لهم تأخذ الفرقة الواحدة جانبا من البيت تنفرد به لا تدخل الأخرى معها والفرقة الأخرى الجانب الثاني على هذا الشرط فقالت الفرقة الواحدة بشرط أن تجعل بيننا حجاب حتى لا يروا منا أحدا ولا نرى منهم أحدا فاذا فرغنا ينظر الملك من هو قائل الحق منا فيما ادعاه فأمر بذلك فكانت الفرقة الواحدة تطلب من أنواع الأدهان أشياء عديدة ولا تبالي بمن يدخل عليها لأنه يرى مايظهر من صفتها وكانت الأخرى لا تطلب من الأدهان ولا أنواع مايصنع به شيء

ولا تترك أحدا يدخل عليها واشتغلت بصقالة الحيطان ودلكها فلما فرغ أهل الدهان قيل للآخرين وأنتم فرغتم قالوا نعم قيل لهم فأزيلوا الستر بينكم فقالوا لانزيله إلا بحضرة الملك كما اشترطنا أولا فلما حضر الملك ونظر إلى حسن مافعله أهل الدهان والصبغ أعجبه فأزالوا الستر الذى كان بينهم فاحسن صقل الحيطان وبياضها وكثر صقالتها انعكست تلك الصورة التى فعلت فى الجانب الثانى وتمثلت فى هذا الجانب الآخر فأعجب ذلك الملك ومن كان معه واستحسنوا فسألهم عن فعلهم ذلك فأشاروا إليه بأن قالوا إنما نحن مع النقا والصفا فاذا كان هذا فى الجهاد فكيف يكون فى الغير لكن بشرط أن يكون أهل المرقعة على طريقته رضى الله عنه حالا لادعوى ومن هذا الباب وقع الفرق بين الناس واللبيب فطن ﴿ تنبيه ﴾ ياهذا ثوب دينك فأجده وثيابك فاخلعها ولا تعكس الأمر فتنعكس فما للغرور فائدة إلا زيادة فى التوبيخ والخمول

(٢٨٢) ﴿ حديث صدق رؤيا المؤمن عند قرب قيام الساعة ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ وَمَا كَانَ مِنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثه أحكام أحدهما أنها إذا اقترب الزمان لم تكد رؤية المؤمن تكذب والثانى أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة والثالث أنه ما كان من النبوة فانه لايكذب وإن قلت نسبته وضعفت والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى اقتراب الزمان وأى زمان هو وقوله ﴿ لم يكد يكذب ﴾ هل قبل اقتراب الزمان يكون فى رؤيا المؤمن ما يكذب وليس بحق وكيف يجتمع ذلك مع قوله عليه السلام آخر الحديث ﴿ وما كان من النبوة فانه لا يكذب ﴾ وكيف نسبة هذه الستة والأربعين من رؤيا المؤمن من أى وجه هى وما الفائدة فى تكرار هذه الأحاديث فى معنى نسبها من النبوة ﴿ أما قولنا ﴾ هو مامعنى اقتراب الزمان وأى زمان هو فأما اقتراب الزمان فهو قربه لقول الله تبارك وتعالى (اقتربت الساعة) أى قربت ولذلك عرفه بالألف واللام لقوله تعالى (اقترب للناس حسابهم) أى زمان وقت حسابهم وفى الساعة ﴿ وأما قولنا ﴾ هل يدل قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لم تكذب رؤيا المؤمن ﴾ على أنها قبل اقتراب الزمان فيها ما يكذب المسألة فيها خلاف بين أهل الفقه على المفهوم حجة أم لا فان لم نقل بالمفهوم فلا بحث وإن قلنا بالمفهوم فعلى هذا يكون البحث فى كيفية جمع أول الحديث أوله مع آخره فقد قدمناه فى الحديث الذى قبل هذا بحديثين أن الرؤيا فيها ما هو بين لايخفى على أحد من أهل

العلم بعبارة الرؤيا وغيرهم . منها مالا يفهمه إلا أهل العلم بعبارة الرؤيا بالرؤيا والذى يفهم منه فقليل فبقلة فهمهم لمعنى تلك الاشارات والأمور المجملة لاتخرج لهم من ذلك التعبير الذى يعبرونه بحسب فهومهم إلا القليل فيصدق لغة أن يقال كذبت رؤيا فلان وإن كانت فى نفسها حقا لأنه ماهو من النبوة فليس يكذب بل هو حق لاشك فيه وإنما جاء الكذب من المعبر لها يشهد لهذا قول الله سبحانه فى حق كتابه العزيز (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) والكتاب كله فى نفسه حق وهدى لكن يسوقهم الضال الذى نظر فيه بغير هدى جاءه الضلال فنسب ضلاله إلى الكتاب لافترائه على الكتاب بتأويله الفاسد والعرب تضيف الشىء إلى الشىء بادنى ملاسة ما أو شبهة ما فاذا قربت الساعة لم يكن رؤيا المؤمن إلا بالأمور البينة والاشارات الواضحة حتى لايبقى فيها ولا فى تعبيرها على أحد وجه من وجوه الاشكالات فلا يقع تشبيها لأحد من تكلم فيها إشكال ولا كذب فيصدق عليها أنها لا تكذب فبهذا الوجه يصح الجمع بين أول الحديث وآخره ﴿ وما قولنا ﴾ كيف نسبة رؤيا المؤمن من النبوة أى وجه يكون ﴿ فالجواب ﴾ على هذا قد تقدم فى الحديث الذى قبل هذا بحديثين حيث ذكرنا الأحاديث التى وردت فى تنويع عدد الأجزاء التى أتت فيها بين رؤيا المؤمن والنبوة ومايترتب على ذلك من التأويل لجميعها بحسب ماهو مذكور هناك وبقى هذا الحديث الذى نحن بسبيله لم نذكره هناك وحديث آخر وهو قوله صلى الله عليه وسلم فى « الرؤيا أنها من النبوة » ولم تذكر فيه جزء من الأجزاء قليلا ولا كثيرا فالجواب على الحديث الذى لم يذكر فيه جزء من الأجزاء وجاء أن أهل الحديث من عادتهم إذا أتى حديث عام وآخر مقيد جعلوا المقيد مفسرا للمجمل فكيف إذا كانت المقيدات كثيرة والمجمل واحد فمن باب أحرى لكن زدنا هنا لتلك التوجيهات التى وجهناها هناك وجها آخر بمقتضى هذا الحديث وهو أن ذكره صلى الله عليه وسلم اختلاف تلك الأجزاء من خمسة وعشرين جزء إلى اثنين وسبعين جزء وقد جاء أثر آخر على مايغلب على ظنى ولا أقطع به فى الوقت بخمس وسبعين جزء أن اختلاف تلك الأجزاء تكون بحسب صلاح الزمان وفساده فعند صلاح الزمان وقوة إيمان أهله مثل الصحابة والذين من بعدهم وهم خير القرون كما أخبر صلى الله عليه وسلم تكون نسبة الرؤيا من النبوة بعيدة مثل اثنين وسبعين أو خمس وسبعين إن صح لأنهم عاملون على ماجاءت به النبوة لايلتفتون إلى شىء كما ذكر عن سحنون رحمه الله أنه أتاه بعض إخوانه مكروبا من رؤيا رآها فقال له « الشيطان أراد أن يحزنك ثم أنه وجه وراء قسيس من قسس النصارى فقال له هل رأى البارحة منكم أحد رؤيا تسره فقال له نعم فلان منا وهو كبير فى دينه رأى رؤيا سرته فقال له ألم أقل لك أنها من الشيطان ذهب إليك ليحزنك وذهب لهذا ليثبته على ضلاله أو كما قيل فانظر إلى قوة إيمانه لايعرجون على شىء بل هم مصدقون لما قيل لهم عاملون على ذلك بلا شىء

يعارضهم وإن عارضهم لم يلتفتوا إليه ولا يعرجوا وإذا كان آخر الزمان عند اقتراب الساعة وضعف الايمان وقلة أهله قويت النسبة بين رؤيا المؤمن وبين النبوة بسبعة وعشرين جزء وخمسة وعشرين جزء لأن المؤمن فى ذلك الوقت غريب كما قال صلى الله عليه وسلم « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء » رواه مسلم فلا يكون للمؤمن فى ذلك الوقت أنيس ولا معين إلا من طريق الرؤيا غالبا وما بين ذينك الحديثين تفاوتت أحوال الناس فيما بين الزمانين على الترتيب ﴿ وهذا بحث ﴾ وهو ما الحكمة فى هذا التأويل بحسب ما شهد له قول الصادق صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى نحن بسبيله بقوله ﴿ لم تكد تكذب رؤيا المؤمن ﴾ فاعلم وفقنا الله وإياك أنه مما قد علم من حكمة الله تعالى أن الله سبحانه ما كان يبعث الرسل إلا بعد الفترات التى كانت تأتى بعد الرسل عليهم السلام بلما كان سيدنا صلى الله عليه وسلم آخر الرسل ولا نبى بعده وأن بين موته وقيام الساعة زمان أطول من الفترات التى تقدمته بين الرسل عليهم السلام وعلم الحق عز وجل من عباده أنه مع طول المدى بلا رسول بينهم يهديهم أن الايمان ينقص وأهله يقلون وأراد بفضله «أن تبقى من هذه الأمة عصابة على الحق إلى يوم القيامة لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة » وصح بنقل الرسل صلوات الله عليهم عنه جل جلاله كثرة لطفه بعباده المؤمنين ورحمته بهم ورفقه بهم فجعل لهم من أثر النبوة شيئا يتأنسون به ويتقوى إيمانهم به ويجدون فيه شفاء لبرء حالهم وعونا على مخالفهم وهى الرؤيا الحسنة التى بدىء نبيهم صلى الله عليه وسلم بها كما جاء فى أول حديث من الكتاب « كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » فبالذى بدىء به هذا الخير به ختم (كما بدأنا أول خلق نعيده) ﴿ وفى هذا دليل ﴾ على فضيلة سيدنا صلى الله عليه وسلم وهو أن أبقى لأمته من الخير الذى أعطى أثرا يهتدون به ويستريحون إليه حتى لا تخل بركته ولا أثره الجليل عن أمته ، يبقى هديه عليه السلام لهم فى عالم الحس والمعنى ففى عالم الحس بالثقلين وهما الكتاب والسنة وفى عالم المعنى بالرؤيا الحسنة وكل واحد منهما يصدق صاحبه (فضلا من الله ونعمة) ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى تكراره صلى الله عليه وسلم هذه الأحاديث العديدة فى شأن نسبة رؤيا المؤمن من النبوة فذلك لوجوه منها أن يحصل لها قوة ولو كان ذلك كله فى حديث واحد لم يكن كذلك ولا يظهر بكثرة ذكره عليه السلام لذلك لأمته كثرة اعتنائه عليه السلام بالرؤيا والبحث عنها لكونها من النبوة لأنه كان من سنته عليه السلام إذا اهتم بالأمر يكرره مرارا ﴿ وفيه من الحكمة ﴾ أن الحكم إذا كان لا يظهر حقيقة إلا بجميع الآثار التى وردت فيه فلا يعلم ذلك إلا القليل لأنه لا يعلم جميع تلك الأحاديث كثير من الناس حتى يكون الأمر على ما ذكره عليه السلام أول الكتاب بقوله « إنما أنا قاسم والله يعطى » ﴿ وفيه من الحكمة ﴾ أن من ظهر له فى أحدهما شىء لا يقدر أن يجريه فى باقيها فذلك

دال على ضعفه وإن كان يمكن جريه فى جميعها كان ذلك دالا على صلاحه وحسنه لأن كلامه صلى الله عليه وسلم كله لا يوجد فيه خلاف ولا تناقض إلا من قلة فهم الناظر فيه ولو لا تكراره وكل واحد منها لا بد أن يوجد فيه معنى زائد على الآخر ماظهر بتوفيق الله تلك التوجيهات التى وجهناها من الفهم فى جميع الأحاديث التى وردت فاذا تأملتها تجد ها جملة عديدة ولوجوه من الحكمة عديدة لمن وفق وتأملها جعلنا الله من أسعده بما وهبه بفضله

(٢٨٣) ﴿ حديث تحريم الكذب فى الرؤيا والتجسس والتصوير ﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِى أُذُنَيْهِ الْآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا وَلَيْسَ بِنَافِخٍ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام (أحدها) أنه من قال أنه رأى رؤيا وهو فى ذلك كاذب ﴿ كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ﴾ ومعناه أنه يعذب طول الزمان الذى لا يقدر أن يعقد بينهما وهو لا يعقد فعذابه دائم (والثانى) أنه ﴿ من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة ﴾ وهو الرصاص المذاب (والثالث) أنه ﴿ من صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ ﴾ ومعناه أنه يعذب طول الزمان الذى لا يقدر أن ينفخ فيها وهو ليس بنافخ وقد جاء من طريق آخر « وليس بنافخ أبدا » فدل على دوام عذابه مثل الأول والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما الحكمة فى أن سماه عليه السلام ﴿ حلما ﴾ وما معنى ﴿ يعقد ﴾ فى هذا الموضع وما نسبة هذا مما فعله بمقتضى الحكمة لأن فى الحديث يدل على أن عذاب كل واحد مناسب لذنبه ولم جعل هذا من أعظم الذنوب لأن من طال مقامه فى النار فهو دال على عظم ذنبه وكيف استماع الحديث الذى يترتب عليه هذا العذاب المؤلم هل هو كيف ما سمعه أو هو على وجه خاص وكيف يكلف أن يعلم كراهيتهم لسمعه هل يطلب بذلك بحسب قرينة الحال أو بعلم قطعى وقوله ﴿ صورة ﴾ هل هى على العموم أو الخصوص ﴿ أما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أن سماه عليه السلام حلما ولم يسمه رؤيا فلأنه لما كان هذا الرائى ادعى أنه رآها ولم ير شيئا فكانت كذبا والكذب إنما هو من الشيطان وقد قال صلى الله عليه وسلم فى غير هذا الحديث « إن الحلم من الشيطان » وهو غير حق فعبر عنه بحقيقة معناه لأنه غير حق ولأنه من الشيطان ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لما قلناه فى الحديث قبله إن كلامه كله صلى الله عليه وسلم ليس فيه تناقض وأنه يصدق بعضه بعضا ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى يعقد بين شعيرتين فمعناه يصل إحداهما بالأخرى وهذا لا يقدر عليه أحد ﴿ وأما قولنا ﴾ ما نسبة ما كلف بما فعل

بمقتضى الحكمة وذلك أنه لما كذب على الله فى خلقه لأن الرؤيا خلق من خلق الله فأدخل فى الوجود صورة معنوية لم تقع كما فعل الذى صور الصورة الحسية لأنه أدخل فى الوجود فى عالم الحس صورة ليست بحقيقة لأن حقيقة الصورة المقصود منها ما جعل فيها من الروح والحياة فكلف صاحب الصورة الكثيفة أن يتم ما خلقه بنفخ الروح فيها وكلف صاحب الحلم الذى أتى بالصورة اللطيفة أمرا لطيفا وهو أن يعقد بين شعيرتين ﴿ وفى هذا دليل ﴾ على أن كل ما هنا من الأمور المعنويات يكون الأمر فيها فى الآخرة حسيا غير أنه يكون بينهما مناسبة ما كما جاء فى الحسنات والسيئات ومنها ما هو معنى وكلها تكون فى الآخرة حسيات لأنها توزن فى الميزان ولا يوزن فى الميزان المحسوس إلا حسى لكن يبقى بينهما نسبة ما وهى من وجهين الخفة والثقل بحسب قدرها يكون فى عالم الحس هناك قدرها أيضا واللون أيضا كذلك فجنس الحسنات نورى وجنس السيئات سواد وظلمة فلما ادى هنا معنى لم يخلقه الله وهو تلك الرؤيا التى زعم قيل له كما فعلت هناك أمرا لطيفا لم يخلقه الله فافعل هنا أمرا لطيفا لم يشأه الله فان الله عز وجل قد شاء أن تكون هاتان الشعيرتان منفصلتين فاخلق أنت بينهما اتصالا حتى يرجعا واحدة وهذا أمر لطيف ومهما لم تقدر على هذا مع لطافته تعذب ولن تقدر على ذلك الأمر مع وقته ولطافته أبدا ﴿ وفى هذا دليل ﴾ لأهل السنة الذين يقولون إن الخلق كله لله فلو لم يكن كذلك لكان هذا يصل بين تينك الشعيرتين وقد تقدم فى الكتاب فى هذا ما فيه كفاية فأغنى عن بسطه هنا ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة بأن جعل هذا من أعظم الذنوب فلأنه نازع الحق جل جلاله فى قدرته وخلقه أما قدرته فلأنه ادعى بلسان حاله أنه خالق ومنازعته لله فى ادعائه أنه خلق خلقا يشبه خلق الله وليس الأمر حقا فى ذاته فامتحن بأن يخلق أهون الأشياء وهو العقد بين شعيرتين

كل من ادعى ماليس فيه كذبته شواهد الامتحان

والوجه الثانى فلأنه كذب على النبوة لأن الرؤيا جزء من النبوة وقد قال صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » فلجمعه بين هذين الأمرين العظيمين عظم ذنبه وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ﴾ هل هذا الاستماع على العموم على أى وجه كان أو على الخصوص الظاهر أنه على الخصوص لأنه لو كان على العموم لكان الأكثر منه من تكليف مالا يطاق ومولانا سبحانه قد من علينا ولم يكلفنا هذا الأمر فى العلم بكراهية للسامع لو كنا نطالب بالعلم بحقيقة ذلك كان أيضا بعضه من تكليف مالا يطاق وإنما كلفنا فى العلم بذلك بحسب قرائن الحال التى تدل على كراهيتهم بسمعنا إلى حديثهم فالاستماع على وجه خاص وليس على عمومه وذلك مثل قوم يتحدثون فى منزلهم فان استمعت إلى حديثهم فقد دخلت تحت هذا الحد لأنهم بقرينة حالهم

وهو كونهم فى منزلهم وقد أغلقو دونك بابهم فدل ذلك على أنهم إنما أرادوا أن ينفردوا بحديثهم دونك ودون غيرك ممن خلف بابهم وكذلك إذا تسارر شخص مع آخر ومع جماعة دونك فقد كرهوا أن يسمعوك حديثهم فان استمعت إليهم دخلت تحت هذا الحد ولذلك نهى صلى الله عليه وسلم «أن يتناجى إثنان دون واحد» لما كان الواحد ممنوعا أن يسمع إلى حديثهما منعا أيضا أن يتناجيا دونه فيقع عنده منهما توهم ويظن بهما فمنعا من ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم «لا يتناجى إثنان دون واحد» وأما إن كانوا يتحدثوا أمامك جهرا وإن كان فى قلوبهم كراهية منك أن تسمع كلامهم فهذا لا يلزمك منه شىء ولا أنت مطلوب بأن تعلم كراهيتهم لاستماعك حديثهم وفيما مثلنا به كفاية فى الجواب عن المسألتين وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿من صور صورة﴾ هل هو على العموم فى كل صورة من الصور أو على الخصوص اللفظ محتمل وقرينة الحال التى بعد تقتضى الخصوص وهى قوله صلى الله عليه وسلم ﴿كلف أن ينفخ فيها﴾ فانه لا ينفخ فى صورة من الصور إلا صورة لها روح فتخصص بهذه القرينة أنها كل صورة لها روح من أى أنواع المخلوقات كانت وقد جاء معنى هذا أظنه عن عبدالله بن عباس حين سأله شخص كان يتعانا هذا فقال له «صور كل ماشئت مما ليس له روح مثل الشجر والفواكه وشبههما» أو كما قال رضى الله عنه وإذا كان الأمر كذلك فهذه التصاوير التى تعمل من الخبز والحلواء وغيرها فلا يجوز بيعها ولا شراؤها والمشترى أعظم فى المنع لأنه معين للبائع على التصوير والوقوع فى المخالفة لاسيما وإن كان ممن له بال فى دين أو دنيا الأمر عليه أشد لاقتداء الناس به فيكون عليه إثم كل من اتبعه فيدخل فى «الأريسيين» وقد تقدم ويجوز الانتفاع بها بعد كسرها وتهشيمها والتغير على فاعلها بما أمكن من ضرب أو غيره بحسب حاله حتى تعلم توبته وفى الحديث بتضمنه ﴿إشارة لطيفة﴾ وهى أنه من خرج عن وصف العبودية وجب عقابه ويكون عقابه بقدر جرمه ﴿وفيه تنبيه﴾ على أن الجاهل لا يعذر بجهله يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام أخبر عن أصحاب هذه الذنوب كيف عذابهم ولم يفرق فيه بين من يعلم تحريم ذلك وبين من لا يعلمه فالكل مؤاخذون بذنوبهم جهلوها أو علموها ﴿وفيه تنبيه﴾ على أن الذى يعمل على تأويل ليس على الوجه المأمور به أنه لا يعذر بذلك التأويل وإن كانت المسألة فيها خلاف بين العلماء ﴿وفيه تنبيه﴾ على أنه من سئل فى مسألة فأفتى فيها بغير علم وعمل عليه أنه ليس له فى ذلك عند الله عذر وأنه يعذب على المخالفة التى وقعت منه يؤخذ ذلك من عموم الاخبار من الصادق صلى الله عليه وسلم بعذاب هؤلاء ولم يستثنى فيه نوعا من هذه الأنواع ولا إشارة إليه وقد جاء النص منه عليه السلام على هذه الاشارة التى أشرنا إليها بقوله عليه السلام «اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» ﴿وفى مجموع هذه دليل﴾ على طلب علم الكتاب والسنة لأنه لا تعلم

هذه وأمثالها إلا من هذا العلم المبارك الذى جعله الله عز وجل طريقا إلى معرفته ومعرفة أحكامه وغيره ضلال أو بطالة كما قال صلى الله عليه وسلم فى علم الأنساب «علم لاينفع وجهالة لاتضر» وفقنا الله إلى علم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وجعلنا ممن سعد به لارب سواه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

(٢٨٤) ﴿حديث الأمر بأن لاتحدث رؤيا الخير إلا من تحب ولا تحدث بالذى تكره﴾

عَنْ أَبِى قَتَادَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ اللهِ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَلْيَتْفُلْ ثَلَاثًا وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ

ظاهر الحديث يدل على أربعة أحكام (أحدها) إخباره صلى الله عليه وسلم بان الرؤيا الحسنة من الله (الثانى) الأمر منه صلى الله عليه وسلم أنه ﴿إذا رأى أحد مايحب فلايحدث به إلا من يحب﴾ (ثالث) أمره صلى الله عليه وسلم لمن رأى مايكره ﴿أن يتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان ويتفل ثلاثا ولايحدث بها أحدا﴾ (والرابع) إعلامه صلى الله عليه وسلم أنه من امتثل أمره عليه السلام فى الرؤيا التى يكرهها فانها لاتضره والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعنى الحسنة وما الحكمة فى نسبتها إلى الله سبحانه وما الحكمة أيضا فى أن لايحدث بالحسنة إلا من يحب وكيفية التعوذ وصفة التفل وما الحكمة أيضا فى أن لايحدث بالمكروهة أحداً لا من يحب ولاغيره ﴿أما قولنا﴾ مامعنى الحسنة فمعناها كل مايكون لك فيها خير ويحتاج ذلك إلى العلم بالتعبير إن كانت مما يحتاج إلى تعبير لأنه قد يكون ظاهرها خيرا وهو غير ذلك وقد يكون الأمر فيها بالعكس إلا إن كانت بينة لاتحتاج إلى تعبير فحينئذ يجرى على هذا الحكم ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى نسبتها إلى الله تعالى فهذا جار على أدب العبودية وعلى ماجاء به القرآن من قوله عز وجل (ماأصابك من حسنة فمن الله) ويشهد لذلك أيضا قوله عليه السلام ﴿إنها من النبوة﴾ كما ذكر فى الأحاديث قبل لأن النبوة من الله أى من عند الله ﴿وفيه إشارة﴾ إلى أن الخير الذى من الله به على العبد من الرؤيا الحسنة أو أى نوع كان من أنواع الخير إنه من عند الله أى بفضله ورحمته لابحق لازم عليه لأحد من العباد كان العبد أى نوع كان من أنواع عبيده (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ﴿وأما قولنا﴾ ماالحكمة فى أن لايحدث بالحسنة إلا من يحب فاعلم أن المحادثة على وجهين إما مع من تحبه ويحبك أو مع من تحبه وهو يكرهك لأنه لابد فى

الذى تحبه وهو لا يبغضك أن يكون له إليك ميل ما فهذان الشخصان هما اللذان تحدثهما برؤياك الحسنة ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى منعك أن تحدث بها من يبغضك أو تبغضه أما من تبغضه أنت فلا بد أن يجد لك بغضا ما لأن الحكمة الالهية جرت بأن تكون بين القلوب مادة تجذب بعضها من بعض بحسب ما فى هذا يجد الآخر منه نسبة ما إما أقل أو أكثر أو بالتساوى هذا متعارف عند أرباب القلوب حتى أن من كلامهم فى هذا النوع « أنظر إلى فؤادك كما تجدنا نجدك » يعنون كما تجدنا فيه من حسن أو قبح كذلك نجدك وجاء هذا الحديث شاهدا لهم وقد ذكر مما يقوى هذا النوع أن بعض التجار فى مدينة مراكش كان يجلس عنده أحد أبناء الدنيا ممن له تعلق بالملك ويظهر له التوادد فاذا انفصل عنه يقول لأصحابه هذا الرجل يعاملنى بالبر وأجد له فى نفسى كراهة فلما كان يوم عيد من الأعياد فذلك التاجر خارج إلى الصلاة بزينة العيد وكان أثر مطر وإذا بذلك الشخص خارج وهو راكب جوادا فلما قرب منه لوثت الدابة التى كان عليها ثياب ذلك التاجر وشوهتها ورجع إلى بيته على حالة مسكينة فقال لأصحابه ظهر الموجب للكراهية التى كنت أجدله فان المبغض لك إما مبغض ظاهر وإما باطن الغالب أنه لا يقصر عنك فى إذاية إن قدر عليها فلعلك إن قصصت عليه الرؤيا أن يعبرها لك على وجه مكروه وهى حسنة وقد جاء « أن الرؤيا مثل الطائر فاذا عبرت وقعت ولزمت » ومما يقوى هذا قصة يوسف عليه السلام لما أتاه الشخصان قد أبدل كل واحد منهما رؤياه برؤيا صاحبه فلما عبرها يوسف عليه السلام ورآى الذى كانت رؤياه دالة على الخير وهو قد أبدلها مع صاحبه فقال له لم يكن الذى رآى هذه إلا صاحبى هذا ولم تكن رؤياى إلا حسنة فقال لهما يوسف عليه السلام (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى بالتعبير قد وجب لكل واحد منكما ما عبر له فكان الأمر كذلك ﴿ ولوجه آخر ﴾ وهو أنه إن كانت قد عبرت لك بخير يحتال عليك فى ذلك الخير الذى بشرت به كيف يشوش عليك لعله يدفعه عنك فمن أجل هذين الأمرين نهى صلى الله عليه وسلم أن لا تحدث برؤيا الخير إلا من تحب ولأن الغالب ممن يحبك أو يميل إليك بقلبه من أجل حبك إليه أنه لا يحسدك ولا يريد لك إلا خيرا ولذلك منعه عليه السلام من أن يحدث بها من لا يحبه وإن كان لا يبغضك خوفا أن يحدث الشيطان عنده بذلك حسداً أو يتلفظ فى تفسيرها بلفظ يلحق منه إذاية كما ذكر عن ابن سيرين الذى كان مشهورا بعلم التعبير أنه جاءه شخص برؤيا فلم يجده فى الدار فقال له الخادم وما كنت تريده فقال له يعبر لى رؤياى فقال وما هى فقال إنى رأيت كأنى أشرب البحر فقال له الخادم ولم يتفتق بطنك فولى عن الدار وإذا بابن سيرين فذكر له الرؤيا فسأله هل ذكرتها لأحد فقال له لخادمك وقال كيت وكيت فقال احتفظ على نفسك فولى عنه فاذا ببقرة شرودة قد فلتت لصاحبها وهو خلفها يجرى فتعرض لها فنطحته بقرنها فشقت

بطنه أو كما قال ﴿ وفى هذا دليل ﴾ على كثرة شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ﴿ وفيه دليل ﴾ على التحضيض على اتباع أثر الحكمة يؤخذ ذلك من نهيه عليه السلام عن أن تحدث برؤياك من لا تحب وهو عمل سبب من أثر الحكمة فى دفع الضرر عنك وإن كان لا يرد من القدر المحتوم شيئا لكن نحن بها نخاطبون فنفعلها امتثالا ونعلم مع ذلك أنه لا ينفع منها إلا ما وافق القدر من ذلك وإلا القدر هو النافذ لذلك لا محالة ولذلك قال بعضهم « إذا فررت من مقدور فأينما توجهت فنحوه تتوجه » وهذه أجل الطرق لأنها جمعت بين الشريعة والحقيقة ومن أجل ذلك أثنى الله على يعقوب عليه السلام وقال فى حقه (وإنه لذو علم لما علمناه) ﴿ وأما كيفية التعوذ ﴾ فاعلم أن صفة التعوذ قد جاء عنه صلى الله عليه وسلم فى غير هذا الحديث وهو أن يقول « أعوذ بالله من شر ما رأيت أن يضرنى فى دينى ودنياى » والتعوذ من الشيطان معلوم ﴿ وأما صفة التفل ﴾ فقد عبر عنه بعض العلماء يشبهك إذا ألقيت نوى الزبيب من فيك حين تأكله وهو وجه حسن من التمثيل وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم فى حديث غير هذا أن تتحول عن الجنب الذى رأيت فيه ما تكره إلى الجنب الثانى وقوله صلى الله عليه وسلم « فليتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان وليتفل ثلاثا » عطفه بالواو توسعة بأيها بدأت لا شىء عليك فيه ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أن لا تحدث بالتى تكرهها أحداً لا من تحب ولا من لا تحب فان كان تعبدا فلا بحث وإن كان لحكمة وهو الأظهر فما هى فاحتملت وجوها منها أن يكون عدم تحدثك بها حتى تلقيها عن قلبك فلا يبقى لك منها حزن فيكون هذا من باب الشفقة واحتمل أن يكون هذا من أجل الغير فتحزن الذى يودك بشىء لا يضرك وإن كان مما يبغضك فيسر بها فلسروره بتحزين مسلم يكون مأثوما وتكون أنت سببا لأن تدخل على أخيك المسلم سوء فى عمله بشىء لا يضرك واحتمل أن يكون عليه السلام جعل عدم ذكرك لها دالا على تصديقه عليه السلام فى الذى أخبرك به فتصديقك له صلى الله عليه وسلم وامتثالك لأمره هو الذى يدفع عنك ذلك الضرر الذى يلحقك منها واحتمل مجموع التوجيهات كلها والآخر منها هو أظهرها والله أعلم ولذلك قال العلماء أن الرؤيا إذا كانت تدل على شر ولم تكن حلما وامتثل صاحبها السنة كما أخبر صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أنها لا تضره ببركة اتباعه السنة وهو الحق الذى لا شك فيه لأن الله عز وجل يقول (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وهذا لفظ عام فلا يقصر على جهة واحدة ولا معنى واحد بل يبقى على عمومه لأن ذلك فضل من الله وما كان من طريق فضل الربوبية يعتقد فيه أن كل وجوه الخير لأن ذلك هو اللائق بجلاله سبحانه جعلنا الله ممن تمسك بالكتاب والسنة وتوفى على ذلك مغفورا لنا بفضله وصلى الله على محمد وآله وسلم

(٣٨٥) ﴿ حديث الأمر بالصبر على طاعة الأمير وعدم مفارقة الجماعة ﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) الأمر لمن رأى من أميره مايكرهه بالصبر على ذلك ولا ينكث فى بيعته (والثانى) إخباره صلى الله عليه وسلم أنه من فارق جماعة المسلمين قدر شبر مات على سنة الجاهلية والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ الشىء الذى يكرهه من أميره هل هو على العموم فى أمور الدنيا والآخرة أو هو على الخصوص فى أمور الدنيا وما يتعلق بالأمور النفسانية وماصفة هذه الجماعة هل هم الذين تسموا باسم الاسلام كانوا على أى حالة كانوا عليها أومعناه الخصوص وكيفية هذه المفارقة ومامعنى تحديدها بالشبر وما هو معنى ﴿ ميتة جاهلية ﴾ هل يكون معناه على الكفر المحض أو على صفة من صفات الجاهلية مع بقاء الايمان ﴿ أماقولنا ﴾ الشىء الذى يكرهه من أميره وأمر بالصبر عليه هل ذلك على العموم أوعلى الخصوص اللفظ محتمل لكن يتخصص بالأحاديث المبينة لهذا العموم بأنه مما يتعلق بالأمور الدنيوية والأمور النفسانية تحفظا على أمر الدين الذى هو طريق الآخرة فمنها قوله عليه السلام فى الصحيح « اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » وهذه كلها أمور نفسانية ودينوية أو كما قال والحديث الآخر ذكر فيه أنهم قالوا « أرأيت إن ولى علينا أمراء فساق أنقتلهم » قال صلى الله عليه وسلم « لاماصلوا » فدل بقوله عليه السلام لاماصلوا إنهم إذالم يصلوا لاسمع لهم ولاطاعة وكذلك قال عمر رضى الله عنه على المنبر حين بيعته قال « ماأطعت الله ورسوله وإلا فلا سمع لى عليكم ولا طاعة » أوكما قال فدل بهذا أن الأمور التى يكون فيها مخالفة فى الدين لايطاع فيها أمير ولاغيره لأنه ماجعلت الامارة أن ينقاد الناس لها إلا من أجل أن « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وقد قال علماء الدين أنه لايجوز لشرطى أن يؤدب أحدا بقول أميره حتى يعلم أن ذلك حق عليه بأمر الله واجبا والأحاديث فى هذا النوع كثيرة وفيما ذكرناه كفاية ﴿ وأماقولنا ﴾ ماصفة هذه الجماعة هل على العموم حتى فى الدين تسموا باسم الاسلام أو ذلك على الخصوص فى المسلمين حقا البحث فى هؤلاء والجواب عليه كالجواب على الأمير وحديث حذيفة الذى بعد بين الجماعة وهو شرح هذا الموضع حيث قال له صلى الله عليه وسلم «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» ﴿ وأما قولنا ﴾ كيف صفة هذه المفارقة فمعناها أن تسعى فى حل تلك البيعة التى للأمير

ولو بأوفى شيء فعبر عليه السلام عنه بمقدار الشبر لأن الأخذ فى حل تلك البيعة المخالفة لجماعة المسلمين المنعقدين عليها وهو مع ذلك أمر يؤول إلى سفك الدماء بغير حق وقد قال صلى الله عليه وسلم «من شارك فى قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب على جبهته آيس من رحمة الله» أو كما قال عليه السلام ﴿وأما قولنا﴾ ما معنى قوله عليه السلام فمات ﴿إلا مات ميتة جاهلية﴾ هل ذلك كفر صراح أو إنه مات على صفة من صفات الجاهلية وإيمانه باق اللفظ محتمل وقد جاء ما يبينه وهو قوله عليه السلام «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه» أو كما قال عليه السلام فشبهه عليه السلام بالمرتد عن الاسلام وهذا أمر خطر اللهم عافنا من الخطر

(٢٨٦) ﴿حديث من علامات الساعة قلة البركة فى الزمان وكثرة الفتن والقتل﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ قَالُوا يَارَسُولَ اللهِ أَيُّمْ هُوَ قَالَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ

ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام (الأول) الاخبار بتقارب الزمان (والثانى) نقص العمل (والثالث) إلقاء الشح (والرابع) ظهور الفتن (والخامس) كثرة الهرج وهو القتل والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى تقارب الزمان وكيف يكون نقص العمل وما معنى هذا الشح الملقى هل هو على العموم أو على الخصوص وما الفتن المشار إليها وما صفة القتل الذى يكثر هل هو بحق أو بغيره وما معنى الهرج ﴿أما قولنا﴾ ما معنى تقارب الزمان فمعناه أن يقصر ويقل طوله وقد جاء فى حديث غير هذا كقوله صلى الله عليه وسلم «تكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كالساعة والساعة كالنفس» أو كما قال عليه السلام ولا يخلوا هذا القصر أن يكون المراد به معنويا أو حسيا فأما المعنوى فقد ظهر وله سنون عديدة يعرف ذلك أهل الأعمال ومن له فطنة ما من أهل الدنيا المشتغلين بالأسباب فيها فانهم يجدون أنفسهم لا يقدرون أن يبلغوا من عمل أسباب الدنيا قدر الذى كانوا يعملون ويشكون ذلك ولا يدرون العلة من أين هى وكذلك أهل أعمال الآخرة قد وجدوا نقص العمل ونقص تلك المعانى الخاصة بالقلوب الحاملة على الأعمال فالعلة فى ذلك والله أعلم ما دخل فى الايمان من الضعف من كثرة إظهار الأمور المخالفة للسان العلم من وجوه عديدة من حيث لا يخفى على ذى بصيرة ومما دخل من أجلها فى الأقوات من الشبه بل من الحرام المحض حتى أن كثيرا من الناس ما يتوقف فى هذا الباب عن شيء وكيف قدر أن يصل إلى شيء فعل ولا يبالى فان البركة فى الزمان والرزق والبدن

من طريق قوة الايمان واتباع الأمر واجتناب النهى يشهد لذلك قوله جل جلاله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وأما إن كان المقصود بتقارب الزمان أن يكون حسا ظاهرا فهذا لم يظهر بعد ولعله من الأمور التى تكون عند قرب الساعة ولعله عليه السلام عنى ذلك الوجهين معا فيكون الواحد وهو المعنوى قدظهر وبقى الآخر وهو الحسى حتى يصل وقته مع مابقى من الشروط وأما كيفية نقص العمل فعلى وجهين إن كان فى الحسى الذى لم يظهر بعد فهذا بين لايحتاج فيه إلى تعليل لأن الزمان ظرف الأعمال فاذا نقص بعض العمل لامحالة وأما نقصه فى المعنوى فمن وجهين أحدهما ما أشرنا إليه آنفا وهو من جهة المطعم وما دخل فيه من الخلل وقلة الباعث الذى هو حامل على الأعمال ومحرض عليها وذلك من ضعف الايمان والثانى من قلة المساعد على ذلك فى الخارج والنفس من طبعها أنها ميالة إلى جنسها ولذلك قال الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) ولكثرة شياطين الانس الذين هم أضر عليك من الشيطان الرجيم اللهم إلا تلك العصابة التى شاء سبحانه وتعالى بقاءها على الحق لايضرها من خالفها فهى محمولة بالقدرة واللطف الربانى وإنما جاءت الأخبار على الغالب من أحوال الناس ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى الشح الذى يلقى هل هو على العموم أو على الخصوص محتمل والظاهر العموم لأن الشح الخاص المستعمل عند الناس فيما عدا الفرائض لايعود منه ذلك الضرر المخوف وإنما الشح الذى يخاف منه ومن وباله الشح بالفرائض ومن يشح بها فمن باب أولى أن يشح بغيرها فيكون عاما والله أعلم يشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم « لاتزداد الدنيا إلا إدبارا ولا الناس إلا شحا » أو كما قال عليه السلام فجاء لفظ عام فى الحديثين معا ولا يسمى الفقهاء شحيحا إلا الذى يشح بالفرائض والناس يسمون الشحيح كل من لايجود عليهم ولا ينظرون هل أدى فرضه أم لا كما يزعمون أن الكنز هو ماجعل من المال تحت الأرض والعلماء يقولون الكنز هو المال الذى لم تخرج زكاته كان على وجه الأرض أو فى بطنها مدفونا وإذا كان مدفونا وهو يخرج زكاته فليس عندهم بكنز وأمثال حقوق الأموال سبب إلى ذهابها وقلة بركتها وطرو الجوائح عليها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لاينقص مال من صدقة » أو كما قال عليه السلام قال أهل العلم معناه أن المال الذى يخرج منه الزكاة لايلحقه عاهة ولا يتلف ولا يلحقه شىء من الأشياء التى تأتى على الأموال فينقص بها فان الزكاة تحرسه من ذلك ولذلك سميت زكاة فان المال يزكو بها وينمو وكذلك صاحبه ولذلك قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وفى هذا إشارة لأهل الطريق الذين بنوا أمرهم على الايثار لكى يسلموا من الشح على كلا الوجهين وكذلك لما لقى الشافعى شيبان رحمهما الله فسأله عن الزكاة فى الغنم فى كم تجب فقال له عندكم فى أربعين شاة وعندنا كلها زكاة فقال الامام لأصحابه وفق لما علمناه أو كما قال

﴿ وأما قولنا ﴾ ما الفتن التي قد عرفها بالألف واللام فهي والله أعلم التي قد بينها صلى الله وسلم بقوله فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا » أو كما قال عليه السلام لأن كل فتنة يسلم فيها الدين فليست بفتنة مخوفة أعاذنا الله من جميعها بمنه وفضله والهرج يحتمل معنيين أحدهما الفتن التي تقع بين الناس ويخوض بعضهم في بعض والثاني القتل ولذلك استفهم الصحابة رضي الله عنهم سيدنا صلى الله عليه وسلم بقولهم ﴿ أيم هو ﴾ فأزال عليه السلام الاحتمال الاول بقوله القتل ثم أكده ثانية لزوال الاحتمال الأول ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى كثرة القتل هل يكون ذلك لحقوق لازمة أو لغير ذلك فاعلم ان القتل الذي هو في الحقوق اللازمة شرعا رحمة للعباد والبلاد يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن يقام حد من حدود الله في بقعة خير لهم من أن تمطر السماء عليهم ثلاثين يوما وقيل أربعين يوما » أو كما قال عليه السلام فهذا في حد واحد فكيف إذا كثر القيام بالحدود وفشى أمرها وتعددوا إنما يكون القتل والله أعلم في الوجهين اللذين قد ذكرهما صلى الله عليه وسلم في أحاديث متفرقة منها قوله عليه السلام « لا تقوم الساعة حتى لا يعرف المقتول فيم قتل ولا القاتل فيما قتل » أو كما قال عليه السلام ولا يكون ذلك إلا لكثرة القتل بغير لسان العلم حتى لا يعرف القاتل ولا المقتول لم وقع بهم ذلك الأمر (والوجه الثاني) قوله عليه السلام « لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل عليه من كل مائة تسعة وتسعون » أو كما قال عليه السلام ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو ما الفائدة بأن أخبرنا بهذه الفتن فنقول والله الموفق لوجوه منها أن نستعيذ منها كما قال صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ونعوذ بك من فتنة القبر ونعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات » وهو صلى الله عليه وسلم معافى من جميعها لكن ذلك على طريق التعليم لنا وعلى جهة الأدب منه عليه السلام مع الربوبية حتى يجعل نفسه المكرمة من جملة العبيد الذين يخافون الفتن ومنها لأن يستعمل منا من رأى منها شيئا الدواء الذي قد علمناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم لما سأله بعض الصحابة عند ذكره صلى الله عليه وسلم الفتن فقال له ما تأمرني إن أدركني ذلك الزمان فقال صلى الله عليه وسلم « الجؤا إلى الايمان والأعمال الصالحات » فبين صلى الله عليه وسلم كيف العمل فيها وقد جاء من طريق آخر أنه لا يسلم منها إلا « من يكون حلسا من أحلاس بيته » ومنها لأن يتبين لنا الوجوه التي منها الفتن فنأخذ في سد تلك الطرق مستعينين بالله على ذلك ومنها لأن تكون معجزاته صلى الله عليه وسلم متتابعة إلى يوم القيامة لأنه كلما خرجت واحدة مما ذكر عليه السلام في هذا الحديث وغيره هي معجزة له عليه السلام في الوقت وفي ظهورها متتابعة إلى يوم القيامة حق لله تعالى وحق له عليه السلام وحق لأمته فالحق الذي هو لله سبحانه وتعالى هو استصحاب ظهور حجته عز وجل على عباده لأن ظهور معجزة الرسول عليه السلام حجة الله تعالى لقوله عز وجل (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وحجة الرسل في تصديق

ماجاؤا به وتصديق رسله حجة على عباده وزيادة قوة فى إيمانهم وأما الذى هو حق له صلى الله عليه وسلم فدوام معجزاته ودوام إنذاره إلى يوم القيامة بالطريقين العظيمين بالكتاب لقوله تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) فانذاره عليه السلام عليه باق إلى يوم القيامة باظهار معجزاته عليه السلام وهى ظهور كل ما أخبر به عليه السلام فان على ظهور كل واحدة منها علما بتصديقه عليه السلام مقولما جاء به وهذا مما خص به عليه السلام دون غيره من الأنبياء عليهم السلام وأما الذى هو حق لأمته فهو أن يكون هذا الخير الذى جاء به عليه السلام متساويا فى أمته من أولها إلى آخرها من طريقين بالكتاب العزيز الذى حفظ عليهم ولم يوكلوا فى ذلك إلى أنفسهم فكان يقع فيه التغيير والتبديل كما وقع فى الكتب المتقدمة وبمعجزاته عليه السلام التى هى من أول أمته إلى آخرها على نوعين منها ماهى ظاهرة لأهل ذلك الزمان ومنها ما يصدقون به ولم يروها حتى يكون الشاهد منها مايصدق الغائب وإن كانت كلها صدق لكن فاق الصحابة رضى الله عنهم غيرهم بزيادة الصحبة وعاينوا ما كان فى وقتهم منها وآمنوا بما أخبر به عليه السلام أنه يكون بعدهم ومن جاء بعدهم آمن بالذى شاهد منها الصحابة رضى الله عنهم وبالتى أتت بعدهم إيمان تصديق فحصل لهم بها إيمان ومشاهدة والذين يأتون فى آخر الزمان يؤمنون بما تقدم منها تقليدا وبما فى زمانهم معاينة فجاء هذا الخير الذى جاء به صلى الله عليه وسلم فى أمته من أولها إلى آخرها ولبقاء هذا الخير دائما أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لاتزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة أو كما قال عليه السلام فان الخير إذا بقى فى الأرض لابد له من أهل له قائمين به وكذلك هى إشارته عليه السلام بقوله « أمتى مثل المطر لايدرى أيه أنفع أوله أوآخره» أوكما قال عليه السلام ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو أنه لا يكون هذا الخير إلا للذين يعلمون علم الكتاب والسنة فانه لايعلم ماأخبر صلى الله عليه وسلم به إلا من سمع الحديث واعتنى به فمن اشتغل بغير ذلك من العلوم فاته هذا الخير وبقيت الحجة عليه قائمة بتضييعه لأثر النبوة التى بها الخير بدأ وعودا وأصلا وفرعا ومنها أن تكون النفوس تراض على دفعها وكراهيتها حتى إن ظهر منها شىء تجد النفس لها كراهية فاذا كرهتها أولا ووقيت أولها كفيت فيما بقى منها لقوله صلى الله عليه وسلم «تعرض الفتن على القلب عودا عودا فأى قلب آثربها نكتت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلايضره فتنة مادامت السموات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لايعرف معروفا ولاينكر منكرا إلا ماأشرب من هواه » والأسود المربد هو شدة البياض فى سواد والكوز المجخن هو الكوز المنكوس ولذلك قيل قلبك فاحفظه من الفتن وإلى الله فالجأ فى ذلك وأد من عافانا الله منها أجمعين بفضله

(٢٨٧) ﴿ حديث النهى عن اتباع الفرق الضالة والمحافظة على الدين ﴾

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ قُلْتُ وَمَا دَخَنُهُ قَالَ قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا قَالَ هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا قُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ قَالَ تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ قُلْتُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ قَالَ فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) الاخبار بالخلل الواقع فى الدين (والثانى) الأمر بالتمسك به مع جماعة المسلمين وإمامهم فان عدم ذلك فتبقى عليه وحدك وتفارق كل من ليس على طريقة الاسلام الحقيقى وإن آل الأمر بك إلى الخروج إلى البرية منفردا وترك الأهل والمال والقرابة والعشيرة وجميع أهل الوقت من قريب وبعيد وإن كان الأمر يضيق عليك فى البرية حتى لاتجد أين تأوى حتى تنحصر إلى أصل شجرة مع سلامة دينك فلتعض بها أى تشد عليها حتى يأتيك وأنت على ماأمرت به من أمر الله تعالى واجتناب نهيه ومنه قوله تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) وقوله تعالى (ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون) والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ النظر فى حكمة الله تعالى فى عباده كيف يعطى لكل شخص ماشاء الله أن يقيمه فيه يؤخذ ذلك من أنه عز وجل حبب للصحابة رضى الله عنهم سؤالهم له صلى الله عليه وسلم عن وجوه الخير كى يقتبسوها ويكونوا بأبالها وحبب لهذا السيد سؤاله له صلى الله عليه وسلم عن وجوه الشر كى يحذرها ويكون سببا فى سدها عمن قدر الله تعالى له النجاة منها ومنها النظر والاعتبار فيما أعطى الله تعالى سيدنا صلى الله عليه وسلم من سعة الصدر والمعرفة بحكمة الحكيم الذى يجاوب كل شخص عما سأل ويعلم أن ذلك الذى شاء الحكيم أن يقيمه فيه ويسده له ويدخل هذا تحت

متضمن قوله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا قاسم والله يعطى » فهو صلى الله عليه وسلم الذى أرسل لقسمة الأمور على ماقتضتها الحكمة الربانية والله يقيم من يشاء فيما شاء فهو عليه السلام المبين لوجوه الخير والشر والله يعطى منها ماشاء لمن شاء كيف شاء ويترتب على هذا من الحكمة والنظر أن الذى حبب لشخص هو الذى يفوق فيه غيره يؤخذ ذلك من حال حذيفة رضى الله عنه لأنه لما حبب الله له معرفة وجوه الشر كى يتقيه ويحذر عنه غيره فضل فيه عشرة من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ولما علم سيدنا صلى الله عليه وسلم هذا الذى أشرنا إليه خصه بأن أعلمه بجميع أسماء المنافقين لأنه من هذا النوع الذى حبب إليه حتى كان عمر رضى الله عنه وهو خليفة يأتيه ليلا ويناشده الله هل هو ممن سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين أم لا فيحلف له أنه ليس منهم ورتب أهل الحكمة على هذا من الفائدة أنك إذا كان لك ابن أوغلام أومن لك عليه كفالة وأردت أن تشغله بشغل من الأشغال أوعلم من العلوم أن تعرض عليه أنواع الأشغال إن أردت أن تشغله أو أنواع العلوم إن أردت به طريق ذلك وكانت تلك الأنواع مما تجيزها الشريعة فالذى تراه يحب ويعجبه من ذلك ففيه اجعله فانه يفوق فيه أهل زمانه لأن الذى حبب إليه هو المراد منه (ربنا ماخلقت هذا باطلا) واختبروا ذلك بعلم التجربة فوجدوه لاينعكس ومن جمع الله له بين الفريقين فهو الحال الجليل وهو معرفة الخير والعمل عليه ومعرفة الشر واتقائه ولذلك كان من دعاء على رضى الله عنه « اللهم اجعلنى مفتاحا للخير ومغلاقا للشر طيبا مباركا حيث كنت » أوكما قال رضى الله عنه وفى هذا بيان الطريق لأهل السلوك والمعاملات مع الله تعالى فانهم يقولون المبتدى حاله التكسب والمنتهى حاله الترك ومعناه أن المبتدى يسأل عن وجوه الخير ويعمل عليها كما كان حال الصحابة رضى الله عنهم فى الحديث الذى نحن بسبيله وأن المنتهى يسأل عن الشر كله وأنواع المفاسد كلها فيتركها ويتقيها كما كان حال حذيفة وحقيقة المعنى فيما أشاروا إليه أن هذا هو الغالب على أحوالهم لأن المبتدى يقع فى الشر أعوذ بالله ولو كان ذلك ماصح له فعل خير وكذلك حال الصحابة رضى الله عنهم وأن المنتهى الغالب عليه تنقية النفس والبحث عن المقاصد كلها ولأنهم أيضا يتركون عمل الخير ولو كان كذلك ماصح منهم ترك الشر وكذلك كان حذيفة رضى الله عنه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن كلما كان يهدى إلى طريق الآخرة ويهدى إلى أنواع الرشاد وكلما يقرب إلى الله سبحانه يسمى خيرا لغة وشرعا وأن كل كفر وضلالة أى نوع كانت كبرى أوصغرى وكلما دعى إليها يسمى شرا لغة وشرعا ويؤخذ ذلك من قول حذيفة ﴿ كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ﴾ وكرر ذلك فى الحديث مرارا ووافقه على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أما من طريق أنه لغة فلأنهم عرب وأما من طريق أنه شرع فلأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وافقه على ذلك بأن سلم له فيه وجاوبه عليه بأن جعل فيه اسم الشر سوأ للكفر والجاهلية التي كانوا عليها وسوأ للضلال الذي طرأ في الاسلام بعده صلى الله عليه وسلم من الفتن والمعاصي غير أن الفرق بينهما من طريق النظر أن الأولى وهي الكفر كبرى والتي بعد وفيها الخلل في الدين من طريق المعاصي صغرى ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه لا يطلق عليه اسم خير حتى يكون تاما لا عوج فيه ويستدل بذلك على أنه لا يطلق عليه إسم مسلم إلا من هو كامل الايمان وأن لا يكون إيمانه فيه دخن كما أخبر الصادق عليه السلام بقوله «وفيه دخن» ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن كل هدى أو علم إنما معياره وما يختبر به ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة فالذي يكون على ذلك بلا زيادة ولا نقصان فهو طريق الحق والمبلغ إلى الله عز وجل وأن لا يكون من أحد القسمين أما من القسم الذي فيه الدخن وأما من أهل القسم الذين من على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «وفيه دخن» ثم فسر ذلك الدخن بكونهم يهدون بغير هديه صلى الله عليه وسلم فاحذر هدى قوم جعلوا للدين أصلا خلاف الكتاب والسنة وجعلوا الكتاب والسنة له فرعا لقد عم دخنهم الأرض حتى تناهى فيه قوم فوقفوا به على باب جهنم فمن أجابهم إليها قذفوه فيها ﴿ وفيه دليل ﴾ على قبول الحق حيث كان وتحقيقه يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم «تعرف منهم وتنكر» ﴿ وفيه دليل ﴾ على وجوب رد الباطل وكل ما خالف هديه صلى الله عليه وسلم ولو قال له من كان من رفيع أو وضيع يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام تعرف منهم وتنكر ﴿ وهنا بحث ﴾ وهو ما هو هذا الشر الذي أشار إليه صلى الله عليه وسلم وما هو هذا الخير الذي فيه الدخن فنقول والله الموفق يحتمل أن يكون الشر الذي أشار إليه عليه الصلاة والسلام هو ما كان بعده من الفتن إلى زمان قتل العلماء وقد أخبر عليه السلام به في حديث آخر أعني بقتل العلماء فانه عليه السلام قال فيه «يا ليت العلماء تحامقوا» أو كما قال عليه السلام معناه لو أظهروا ذلك سلموا من القتل وأما الهدى الذي فيه الدخن فهو ما ظهر في الأمة من الشيع والبدع يفسر ذلك قوله عليه السلام «إفترقت بنوا إسرائيل على اثنين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» فكل من حصل له من الاثنين والسبعين ولو مسألة واحدة وإن كان لا يعلم بها فقد دخل في دينه دخن وبالحديث الآخر، هو قوله عليه السلام «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» وبقوله عليه الصلاة والسلام «كل من أحدث من أمرنا ما ليس منه فهو رد» أو كما قال عليه السلام فكل من حصل على بدعة من البدع فقد حصل في دينه وهديه دخن ولا يغيره كثرة عمل الناس لتلك البدعة وانتشارها فانها من جملة الدخن وقد قال صلى الله عليه وسلم في شأن تجنب الفتن «وعليك بخويصة نفسك» أو كما قال عليه السلام ولا يغرك صاحب البدع

وإن كانت لديه علوم جمة أو أعمال صالحة ونسك وتعبد أو جموعها فقد قال صلى الله عليه وسلم فى القدرية « يحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم يقرؤن القرآن لايجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية تنظر فى النصل فلا ترى شيئا وتنظر فى القدح فلا ترى شيئا سبق الفرث الدم » أو كما قال عليه السلام وقوله عليه السلام ﴿ دعاه على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ﴾ أى أنهم يرشدون إلى الطرق التى يدخل بها النار من الاعتقادات والأعمال المخالفة للسنة وهم يظهرون أنها هى المبالغة إلى الله تعالى وهم الذين قال عليه السلام فيهم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسألوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا فمن صدقهم واتبعهم دخل النار وفى قوله عليه السلام ﴿ هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ﴾ دليل على أنهم من هذه الملة وبزيها وعلى طريقها ولونها لأن معنى من جلدتنا أى على لغة العرب حتى لايتنكر أحد منهم شيئا ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أهم ماعلى المرء فى الدين نفسه يؤخذ ذلك من قول حذيفة رضى الله عنه ﴿ فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ﴾ فما سأل إلا عن نفسه كيف يكون خلاصه ويترتب على هذا من الفقه أن كل وجه يعلمه الشخص من وجوه الخير كان يدركه أولا يدركه يعتقد فعله إن أدركه فيكون على ذلك مأجورا وأى وجه عمله من وجوه الشر يكون بحيث يلحقه أولا يلحقه يعتقد أنه لايفعله وأن يتبع السنة فى الأعمال والأسباب المنجية منه فان هذا هو طريق السنة ومن كان مرتكبا طريق السنة فانه مأجور ويقوى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن أبلغ من عمله » لأنه ينوى عملا من أعمال الخير أو ترك عمل من أعمال الشر وقد لايدرك من ذلك شيئا لقصر عمره فكانت نيته أكثر من عمله ولكونه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ من فتنة الدجال وهو بالعلم القطعى عنده أنه لايدركه وقد قال عليه السلام « إن يخرج وأنا فيكم فأنا أكفيكموه » فقد علمه عليه السلام أنه إن لحقه فلا يضره بل هو عليه السلام يكفى المسلمين ضرره ومع ذلك كان عليه السلام يستعيذ من فتنته فهذا من باب الارشاد لنا إلى ما أشرنا إليه وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ تلزم جماعة المسلمين ﴾ يعنى الفرقة الناجية من الثلاثة والسبعين الذين هم على ماهو عليه وأصحابه صلوات الله عليه وعليهم أجمعين جعلنا الله منهم ومعهم فى الدارين بمنه وفضله وقوله ﴿ وإمامهم ﴾ يعنى الذى يقتدون به ويكون على تلك الطريق المباركة أيضا ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن من السنة أن لايكون جماعة إلا ولها إمام وقوله ﴿ فان لم تكن لهم جماعة ولا إمام ﴾ يعنى أن الموضع الذى يكون فيه ليس فيه من أهل الخير جماعة ولا إمام لأن هذه الأمة لاتزال جماعة من أهل الخير فيها باقية وكذلك آية الخير لاينقطعون منها لكن قد يقلون أو يكونون فى موضع من الأرض دون غيره يشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله »

أو كما قال عليه السلام وقوله عليه السلام فى نزول عيسى بن مريم عليه السلام « وإمامكم منكم » أى أنه يكون على طريق هدى متبع للكتاب والسنة ﴿ وفيه بحث ﴾ وهو أنه إن كان واحدا لأحد الطرفين إماجماعة على الخير ولا إمام معهم أو إمام على خير ولا جماعة له فالبقاء مع أحدهما خير من الانفراد لأنه أعون على الدين ولفظ الحديث يدل على ذلك فان الأمر بأن تتبع الجماعة والامام لا ينفى إذا لم يجد إلا الواحد منهما أن لا يتبعه غير أنه يأخذ أولا الأكمل فالأكمل فاذا كانا فى موضع مجتمعين وكان فى موضع آخر أحدهما فحيث جمعهما أولى فان لم يجد إلا أحدهما فهو خير من أصل الشجرة فان تلك هى الغاية فى الهروب والاحتياط للدين وقد قال صلى الله عليه وسلم « الجليس الصالح خير من الوحدة والوحدة خير من الجليس السوء » ففقه الموضع أن يكون صلاح الدين هو المعول عليه ويكون الصلاح على مقتضى الكتاب والسنة فان قدر على الاجتماع باخوانه المسلمين وبالامام أو بأحدهما إن أمكنه ذلك مع الاقامة مع الأهل فحسن وإن لم يكن ذلك وأمكنه الجلوس فى العمارة منفردا فحسن أيضا وإلا فالبرية على هذه الحالة الموصوفة فى الحديث يقوى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « بشر الفرارين بدينهم من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق أنهم معى ومع ابراهيم فى الجنة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى » أو كما قال عليه السلام فقدم عليه السلام الفرار من العمارة إلى العمارة على الفرار إلى الجبال ويقويه أيضا من كتاب الله عز وجل قوله تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وفى تسمية ما جاء به صلى الله عليه وسلم خيرا دليل على ماسميناه به الكتاب الذى هذا شرحه بجمع النهاية فى بدء الخير وغايته أن ذلك موافق بفضل الله لما قاله الصحابى رضى الله عنه ووافقه عليه سيدنا صلى الله عليه وسلم فقوى عند ذلك رجائى فى فضل الله أن يكون كل ما سكت فيه وفى شرحه موافق لما يرضى الله ورسوله ودالا على الخيرات وأبوابها ومسدا للشر وأبوابه بفضل الله ورحمته

(٢٨٨) ﴿ حديث إذا نزل عذاب بقوم يعم الصالح منهم ويبعث كل على عمله ﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ

ظاهر الحديث يدل على أن العذاب إذا أرسل على قوم عمهم الجميع ويبعثون فى الآخرة على قدر أعمالهم وعليها يجازون والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى ﴿ قوم ﴾ هل يكونون مؤمنين أو غير مؤمنين ومامعنى ﴿ من كان فيهم ﴾ وما الحكمة بأن يأخذ القوم ومن فيهم فى هذه الدار على حد سواء ثم عند البعث تقع الفرقة

بينهم بحسب الأعمال هل هذا تعبد أو لحكمة تعلم فيتحذر من هذا الأمر العظيم ﴿أما قولنا﴾ ما معنى قوم هل يكونوا مؤمنين أو غير مؤمنين أما المؤمنون حقيقة فلا يرسل الله عليهم عذابا بل بهم يدفع الله العذاب كما جاءت فى ذلك الآثار والأى تبين ذلك أما الأى فقوله تعالى (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) وقوله تعالى (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وأما الآثار فمثل قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله يحفظ الرجل الصالح فى أهله ودويرات من جيرانه» أو كما قال عليه السلام فقوله صلى الله عليه وسلم هنا «على قوم» يعم الكفار والعصاة وغيرهم ممن هم على ما يشبه حال هؤلاء الذين يرسل عليهم العذاب ﴿وأما قولنا﴾ ما معنى «من كان فيهم» ﴿فالجواب﴾ ان معناه أن يكون معهم وليس على حالهم لأنه لما خالف المجالس معهم الأمر لأن الله عز وجل يقول (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وقال الله تعالى (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم) وقال صلى الله عليه وسلم «من والى قوما فهو منهم» أو كما قال عليه السلام والأى والآثار فى هذا كثيرة وهذه سنة الله تعالى أبدا فى عباده وقد ذكر عن عيسى عليه السلام أنه مر فى سياحته على قرية وأهلها صرعى موتى فقال للحواريين لو كان موت هؤلاء من غير أخذ بلاء لدفن بعضهم بعضا ثم ناداهم يا أهل القرية فلم يجب منهم أحد ثلاث مرات ثم جاوبه واحد فقال له عليه السلام ما شأنكم قال له كانوا فى عافية فأصبحوا وهم فى الهاوية فقال له ما بالك أنت تكلمت وأصحابك لم يتكلموا قال إنى لم أكن منهم وإنما مررت عليهم فبت عندهم فأخذنى الأمر معهم فكل واحد منهم ملجم بلجام من نار لا يقدر أن يتكلم وأنا ليس مثلهم فتعجب هو والحواريون وتركوهم وذهبوا أو كما جرى ﴿ويترتب على هذا من الفقه﴾ الهروب من بين الكفار ومن بين الظالمين لأنفسهم بالمعاصى لأن الجلوس بينهم من إلقاء النفس إلى التهلكة هذا إذا كان معهم ولم يعينهم على ما هم فيه أو يرضى من أفعالهم شيئا فان وقع فى واحد من ذلك فهو منهم وبالله العياذ ولذلك كان سيدنا صلى الله عليه وسلم حين مر هو وأصحابه على حجر ثمود قال لهم «أسرعوا فى الخروج من هذا ولا تدخلوها إلا وأنتم باكون» أو كما قال عليه السلام وحين عجنوا العجين من بئر ذلك الموضع أمرهم عليه السلام أن لا يأكلوه ويطعمونه للبهائم وهذا منه صلى الله عليه وسلم خوفا من أجل أن يعود عليهم من شؤم تلك البقعة وبال جميع ما ذكر كله خوف من القرب من أهل المخالفات والمغضوب عليهم وإن كانوا قد دفنوا ﴿وأما قولنا﴾ ما الحكمة فى أن يؤخذ فى هذه الدار مع أهل البلاء من كان فيهم ثم فى الآخرة يبعث على عمله كل منهم بحسب ما كان عليه فهذا حكم بمقتضى ما دلت عليه الشريعة لأن الله تعالى يقول (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل

مثقال ذرة شرا يره) وقال عزوجل (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) ومس النار لهم إذا ركنوا إليهم بقدر ركونهم فلما لم يركن هؤلاء الذين أرسل عليهم العذاب إلا بالجلوس معهم أصابهم من النار أن أخذوا معهم وكانوا في البرزخ الذي هو مابين موتهم إلى حين بعثهم في ذلك العذاب الذي هم فيه ثم يبعثون عند البعث كل على ماكان عليه من خير أو ضده فدل ذلك على أن قدر عذابهم على ذلك الجزء اليسير وهي الاقامة معهم هو أن يؤخذوا معهم وأن يكونوا معهم على حالهم المهلكة حتى إلى وقت البعث فعند ذلك يرجع كل إلى حاله المختص به أولا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ ثم بعثوا على أعمالهم ﴾ واحتمل البعث هنا أن يكون بعث سؤال القبر لأنه إن حملنا ثم على المهلة الطويلة فيكون بعثهم على أعمالهم عند بعث النفخ في الصور والله أعلم لأن سؤال القبر مع الموت بسرعة ليس بينهما طول زمان وإن حملنا ثم على المهلة القصيرة في الزمان فيكون بعث سؤال القبر لأن ذلك هو الذي بعد الموت لاشيء آخر بينهما والله أعلم ومما يقوى ماقلناه قوله صلى الله عليه وسلم في خبره هذا الحديث «يموت المرء على ماعاش عليه ويبعث على ماعاين عليه» فهؤلاء أخذوا على ماكانوا عليه من مخالطة أهل العذاب فماتوا على تلك الحالة ثم عند البعث لم يبعثوا عليها وبعثوا كل منهم على حالته التي كانوا عليها قبل إرسال العذاب وذلك كان على قدر عذابهم على مخالطتهم بالجلوس بينهم ولا يكون هؤلاء المأخوذون مع أهل العذاب المرسل الذين قد عذرهم الله عز وجل بقوله (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) لأن من جعل الله له عذرا لا يؤخذ على ماقد عذره فيه بفضله ورحمته فعلى هذا يكون لفظ الحديث عاما فيما عدا أهل الاعذار الذين بين الله عزوجل عذرهم أو نقول هو عام ومعناه الخصوص فيمن لم يقدره الله سبحانه وتعالى ﴿ وفيه تخويف عظيم ﴾ بالضمن وهو أن إرسال العذاب على المخالفين لأمره سبحانه وتعالى ونهيه باق متوقع كما كان فيمن تقدم ومما يقوى هذا قول عائشة رضى الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم « انهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث » فيا الله يا الله يا رباه أغثنا فقد كثر الخبث ولا مهرب إلا إليك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(٢٨٩) ﴿ حديث الأمر بصوم يوم عاشوراء ﴾

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ أَذِّنْ فِي قَوْمِكَ أَوْ فِي النَّاسِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ أَنَّ مَنْ أَكَلَ فَلْيُتِمَّ أَوْ فَلْيَصُمْ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَكَلَ فَلْيَصُمْ

ظاهر الحديث يدل على حكمين (أحدهما) أن صوم يوم عاشورا يجزىء من أمسك فيه عن الأكل والشرب وإن لم يكن بيت صومه من الليل بخلاف غيره من الصوم لقوله صلى الله عليه وسلم في غير

عاشوراء «لاصوم لمن لم يجمع على الصوم من الليل» أو كما قال عليه السلام (والحكم الثانى) أن حرمته ليست كحرمة غيره من النوافل بل هو مثل حرمة الفرض لأن غيره من النوافل إذا أكل أحد فيه متعمدا لا يمسك بقية يومه والفرض إذا أكل أحد فيه متعمدا يمسك بقية يومه والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل هذا الحكم فيه مستصحب إلى هلم جرا أو ذلك كان فى ذلك اليوم لكونهم لم يكونوا يعلمون حرمته فيفوتهم ولا يكون ذلك بعد بلوغ العلم به وأما صومه لمن لم يعلم به إلا بعد طلوع الفجر أو الشمس أو علم ونسى ولم يبيت صومه فالظاهر أنه يجزيه صومه إذ أمسك ولم يأكل ولم يشرب بعد والدليل عليه من الحديث أنه سماه صلى الله عليه وسلم صوما وقد قال بعضهم إنما ذلك حين كان هو الفرض قبل فرض رمضان وأما الذى أكل وشرب وهو عالم هل يمسك أولا موضع خلاف أيضا لأن منهم من قال إنما ذلك حين كان فرضا صومه فكان حكمه حكم الفرض فأما اليوم فلا وأما هل يكون له أجر صومه فكذلك أيضا موضع خلاف وليس فى الحديث مايدل عليه لأن قوله صلى الله عليه وسلم ﴿من أكل فليتم بقية يومه﴾ احتمل أن يريد فليتم بقية يومه صائما أو ممسكا عن الأكل فمن جعله صوما قال هو فيه مأجور او من لم يجعله صوما قال ليس له أجر الصوم وعلى كلا الوجهين قد ثبتت له حرمة ليست لغيره لاسيما مع قوله ﷺ فى صومه «أنه يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده» ومنها أى يوم هو فقد اختلف العلماء فيه فقيل اليوم التاسع وقيل اليوم العاشر فمن أراد الخروج من الخلاف جمع بين اليومين لكن ظاهر الحديث يدل على أنه اليوم العاشر وكذلك مانقل عنه صلى الله عليه وسلم أن اليوم الذى صامه كان العاشر وأنه صلى الله عليه وسلم قال إذا كان إن شاء الله فى السنة الآتية أصوم التاسع فانتقل إلى كرامة ربه عز وجل قبل وصوله إليه صلى الله عليه وسلم وأما قوله ﴿أذن فى الناس أو فى قومك﴾ الشك هنا من الراوى وهذا مما قد تكرر الكلام عليه مرارا أنه مما يدل على صدقهم وتحريهم فى النقل وأذن بمعنى أعلم ويؤخذ منه الدليل على جواز النيابة فى تبليغ العلم لأن سيدنا صلى الله عليه وسلم إستناب هذا الرجل من أسلم أن يعلم الناس عنه ويؤخذ منه أن من السنة أن يعظم ماعظم الله تعالى من أى المخلوقات كان من جماد أو حيوان أو زمان اتباعا لحكمة الحكيم يؤخذ ذلك من تعظيم سيدنا صلى الله عليه وسلم لهذا اليوم لأنه عليه السلام لما دخل المدينة وجد اليهود يصومونه فسأل لم يصومونه فأخبروه أنه اليوم الذى نجى الله فيه موسى عليه السلام وأغرق فيه فرعون فقال عليه السلام «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه وأمر بصومه وكان هو الفرض حتى فرض رمضان ﴿وفيه دليل﴾ على أن تعظيم ماعظمه الله تعالى من هذه الأزمنة والأماكن إنما هو بعمل الطاعات فيها لله تعالى بحسب ماتقتضيه الشريعة مع اعتقاد الاثار له على غيره من جنسه ﴿وفيه دليل﴾ لمن

يقول من العلماء أن لسيدنا صلى الله عليه وسلم أن يشرع من الأحكام ماشاء وإن ذلك حكم الله تعالى يجب العمل به وهو الحق يؤخذ ذلك من أمره عليه السلام بصوم هذا اليوم ولم يذكر فيه عن الله شيئا لأن الأمور التي أمر عليه السلام بها عن الله مخبر أنها عن الله وهذا مستقر من السنة وفي قوله عليه السلام « فنحن أحق وأولى بموسى منكم » دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد عليه نسخ في شريعتنا وعلى هذا جماعة من العلماء ويقويه قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وفي ترفيع الله تعالى بعض الأزمنة على بعض وكذلك الأماكن إلى غير ذلك دليل على عظيم رحمته عز وجل بعباده المؤمنين يؤخذ ذلك من إرشاد الرسل عليهم السلام إلى تعظيمها وإلى أعمال البر فيها وزيادة الأجور في ذلك للعاملين وذلك مثل ماقال عليه السلام « صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أنه يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده » متفق عليه فظاهر ماقصد منها كثرة الأجور والخير لنا فضلا من الله ونعمة لله الحمد على ذلك

(٢٩٠) ﴿ حديث شهادة الأمة المحمدية على الأمم السابقة يوم القيامة ﴾

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجَاءُ بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ يَارَبِّ فَتُسْئَلُ أُمَّتُهُ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ فَيُقَالُ مَنْ شُهُودُكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا قَالَ عُدُولًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

ظاهر الحديث الاخبار بفضل هذا النبي صلى الله عليه وسلم وفضل هذه الأمة وأنهم الشهود على من تقدمهم من الأمم والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال كيف يشهد متأخر على متقدم وما الحكمة في ذكر نوح عليه السلام من بين سائر الأنبياء عليهم السلام أجمعين وهل الأمة كلها برها وفاجرها يشهدون أولا يشهد إلا من هو لذلك أهل ﴿ أما قولنا ﴾ كيف يشهد متأخر على متقدم فقد جاء في حديث غير هذا أن هذه حجة قوم نوح صلى الله عليه وسلم يقولون ياربنا وكيف يشهدون علينا وهم آخر الأمم فيقول الله عز وجل لهم « كيف تشهدون عليهم وأنتم آخر الأمم فيقولون ربنا إنا وجدنا فيما أنزلته في كتابك علينا أن نوحا عليه السلام بلغ أمته » ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن حكم الله تعالى بيننا في الآخرة على ماهي أحكام الشرع هنا يؤخذ ذلك من طلبه عز وجل الشهود من نوح عليه الصلاة والسلام وهو العالم بصدقه ومن استفسار الشهود كما ذكرنا ﴿ وفيه دليل ﴾ لمذهب مالك رحمه الله تعالى في أن القاضي لايحكم

بعلمه فاذا كان العالم الذى لا يخفى عليه شىء لا يحكم بعلمه فيما بيننا ذلك اليوم فكيف بالغير ﴿ وفيه دليل ﴾ على تساوى الأحكام فيما بين الناس على حد واحد القوى والضعيف والرفيع والوضيع يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ يجاء بنوح عليه السلام ﴾ أى أنه يساق للحكم كما يساق غيره وهو حيث هو من مكان الرسالة ثم أنه يطلب منه الشهود ولا يخلى عنه إلا بعد قبول شهادتهم وقد جاء أن أول ما يساق للحساب إسرافيل عليه السلام الذى العرش على كاهله والوحى يتحدر على جبينه فيقول الله جل جلاله «ماصنعت فى عهدى فيقول يارب بلغته جبريل فيؤتى بجبريل فيقول له الحق جل جلاله هل بلغك إسرافيل عهدى فيقول نعم يارب فيخلى عن إسرافيل ويسئل جبريل فيقول عز وجل له ماصنعت فى عهدى فيقول يارب بلغت الرسل فيؤتى بالرسل فيقال لهم صلوات الله على جميعهم هل بلغكم جبريل عهدى فيقولون نعم فحينئذ يخلى عن جبريل فأول من يسأل من الرسل نوح عليه السلام» فيكون من تمته ماهو نص الحديث فلا يخلى عنه إلا بعد قبول شهادة هذه الأمة ثم الذى بعده كذلك واحدا بعد واحد ويعارضنا هنا قوله عليه السلام «أول من يحاسب من الأمم أنتم وأول من يجوز من الأمم الصراط أمتى» أو كما قال عليه السلام ﴿ فالجواب ﴾ أنه ليس بينهما تعارض لأن حساب الأمم هو على نوعين وبذلك يجتمع الحديثان ولا يبقى بينهما تعارض وهو أن النوع الأول أن تسأل الأمم هل بلغت الرسل عن الله أم لا فهذا الذى يتقدم جميع الأمم فيه على هذه الأمة لأنهم هم الشهود عليهم فلا بد من حضورهم إلى آخر الأمم والنوع الآخر هو سؤال الأمم كل شخص منهم منفردا عن عمله بمقتضى شريعته فهذا الذى يكون هذه الأمة أول من تحاسب عليه وسيدنا صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى أن ذكر نوحا عليه السلام دون غيره من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فيحتمل أن يكون إنما ذكر نوحا عليه السلام لأنه أول الرسل فاذا كانت هذه الأمة تشهد على الأول من الأنبياء فمن باب أحرى غيره واستغنى عن ذكر الغير صلوات الله عليه وعليهم أجمعين بذكر الآية آخرا وهى عامة فهذا من الاختصار والبلاغة ﴿ وأما قولنا ﴾ هل الأمة شهد كلها برها وفاجرها أو لا يشهد إلا من هو أهل لذلك أما لفظ الحديث فمحتمل لأن العرب قد تسمى البعض باسم الكل لكن التخصيص يظهر فيه من وجهين (أحدهما) من الحديث الذى أوردنا شاهدا فى قولهم وجدنا فى الكتاب الذى أنزلت فهذا لا يكون جوابا إلا عن يكون له علم بالكتاب وكثير من هذه الأمة لا يعلمون من الكتاب شيئا ومن طرق النظر من يكون من هذه الأمة إذ ذاك من هو فى نوع من أنواع العذاب المتقدم ذكره فى الأحاديث كيف يستشهد بهم وكيف يقبل لهم شهادة ويتضمن الآية أيضا بقوله ﴿ وسطا ﴾ أى خيارا فلا يشهد منها إلا خيارها أو كما أشرنا إليه أولا أن الحكم هناك كالحكم هنا

وكما لا يقبل هنا إلا العدول الخيار كذلك هناك بقوله تعالى (ممن ترضون من الشهداء) فلما كان هنا لا يؤخذ إلا المرضى الحال فلا يؤخذ هناك ضده هذا ما تقتضيه الحكمة ﴿ وفيه إشارة لطيفة ﴾ وهي أن إعلامك بهذه المرتبة الرفيعة عناية بك لتحافظ عليها لعلك ممن تكون يشهد إذ ذاك لأنه يرجى من فضل الكريم أن من قبلت شهادته أن يسامحه ويتفضل عليه بالخلاص من ذلك الهول العظيم ﴿ وفيه تنبيه ﴾ إلى أن الشهود وإن اختلفت مراتبهم في الرفعة إذ الم يخرجوا من دائرة العدالة قبلوا كلهم يؤخذ ذلك من قول نوح عليه السلام حين يسئل عن شهوده قال ﴿ محمد وأمته ﴾ فجعله صلى الله عليه وسلم من جملة الشهود وبه صحت العدالة لمتبعيه ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن المخالف للسنة لا يكون ممن يشهد معه ولا يشهد معه إلا من تبعه بالاحسان لأن أولئك هم العدول وغيرهم أطراف لا وسط ولا عدول يقوى ذلك قوله عليه السلام ﴿ كلها في النار إلا واحدة ما أنا عليه وأصحابي ﴾ فمن يكون في النار أنى له بالوسط من الأمة والتعديل هذا في تجريحه أتم دليل ﴿ تنبيه ﴾ يا أخا البطالة والتلويث لنفسك انتبه الحاكم قد زكاك وأنت بما ارتكبت من قبيح الأوصاف تخرج نفسك وبذلك تفرح فقد خضت بحر المهالك وعلى عقبك من الخير نكصت ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن أقوى الأدلة في الأحكام كتاب الله تعالى يؤخذ ذلك من ترك سيدنا صلى الله عليه وسلم تمام الكلام الذي أبداه وأتى بالآية من الكتاب العزيز ومما يقوى ذلك قول معاذ له صلى الله عليه وسلم حين وجهه إلى اليمن قال له عليه السلام «بماذا تحكم قال بكتاب الله تعالى قال فان لم تجد قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فان لم تجد قال أجتهد رأيي فقال صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي وفق رسول رسوله إلى ما يحب الله ورسوله» أو كما ورد وفقنا الله في جميع الأمور إلى ذلك بمنه وأسعدنا به

(٢٩١) ﴿ حديث مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى ﴾

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ

ظاهر الحديث يدل على هذه الخمسة المذكورة في الحديث لا يعلمها إلا الله والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ أن يقال ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح وما الحكمة في أن جعلها خمسا وهل للغيب زيادة على تلك الخمس مفاتيح أم لا وما الحكمة في أن لم يذكر من أمور الغيب إلا تلك الخمسة ﴿ أما قولنا ﴾ ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح فلوجوه منها الاقتداء بما به نطق الكتاب في ذلك بقوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر) ومنها لتقريب الأمر على المخاطب لأن أمور الغيب